

ى يوميات

يومياتى المعلنة

جمال الغيطانى

حلمى التونى

يَوميّاتي المُعلنَة

دار سعاد الصباح
ص . ب : ٢٧٢٨٠
الصفاة ١٣١٣٣ - الكويت
ص . ب . ١٣ المقطم - القاهرة
فاكس : ٥٠٦١٠٣٠
٣٥ ش محى الدين أبو العز
ت ٣٤٩٧٧٧٩ - ٣٤٩١٧٢٧

رقم الأيداع ٤٨١٩ / ٩٢
الترقيم الدولى 7 - 3465 - 00 - 977

الطبعة الأولى
١٩٩٢

الاشراف الفنى : حلمى التونى

ى يوميات

يوميات المعلنة

جمال الغيطانى

الجزء الأول

دار سعاد الصباح

إلى .. سعيد سنبل

نشرت هذه اليوميات فى جريدة
الأخبار ١٩٨٥ - ١٩٨٨

ابريل ١٩٨٥

علامات الزمن .. رمضانيات

من الذى يتغير ؟ الإنسان أم الزمن ؟

وما الفرق بين الأحاسيس والمشاعر التى تراود من كان فى مثل عمرى الآن تجاه الشهر الكريم ؟ رمضان من علامات الزمن البارزة فى حياتنا ، بموقعه ومكانته وخصوصية أيامه وعبق لياليه . أجدنى الآن أرحل إلى سنوات الطفولة ، وأقارن وأستعيد التفاصيل ، فى الجمالية العريقة نشأت ، وفى حواريها التى تنز جدران مبانيها بالتاريخ .

عشت رمضان الخمسينيات والستينيات وجزءا من السبعينيات ، حقا .. ما أسرع كر الأيام ، فى الطفولة كانت الأسابيع المؤدية إلى رمضان تشهد انتظار الليلة الأولى ، خاصة بعد ليلة النصف من شعبان . هذه الليلة أبرز العلامات التى تسبق رمضان ، فيها تقوم الأسر كلها ميسورها ومعسرها بالتوسيع . أى إعداد طعام يخرج عن المألوف احتفالا بها ، ونرى رمضان قد أصبح قريبا ، حتى إذا دنت ليلة الرؤية تزدحم الحارة بالأطفال . فى العادة يرجعون إلى بيت الأهل مع نزول الليل ، ولكن فى هذه الليلة مسموح اللعب والضجيج واللهو، وبعد صلاة العشاء ندرك أن اللحظات الحاسمة تقترب ، وإذ يعلن ثبوت الرؤية تتناقل الأسر النبأ عبر الشرفات ، ونسمع التهنئة ، " كل سنة وأنت طيب " نخرج لشراء طعام السحور لقد ظهر باعة الفول ،

وحوالى العاشرة أو الحادية عشرة يمر باعة الزبادى فى الحارة ، يرتدى الواحد منهم جلبابا نظيفا أبيض ويحمل فوق رأسه صينية خشبية مستديرة صفت عليها سلاطين الزبادى المصنوعة من الفخار . كان " زبادى دسم " له رائحة أفتقدها الآن ، تغطيه طبقة القشدة السميكة ، فلم يكن لبن البودرة قد عرف بعد .. كذلك أكواب البلاستيك التى يباع فيها الآن .

فى أول أيام الشهر الكريم تبدو النهارات ذات طبيعة خاصة ، فالهدوء سائد ، والكل مشغول بالسعى وإعداد طعام الإفطار ، مقاهى الجمالية كلها مغلقة نهارا ، كذلك باعة الشاى الذين يقفون قرب تجمعات الحرفيين ، المتاجر أعادت ترتيب بضاعتها وعرضت أجمل ماعندها ، حتى إذا ما اقترب وقت المغرب خرج أطفال الحارة إلى المدخل حيث يقوم مسجد سيدى مرزوق نتجمع أمامه . هاهوذا " البولاقى " يعرض أنواع المخلل ، وكان رجلا قصير القامة نحيلها ، لا أدرى عمله الآخر .. ولكنه فى رمضان يتفرغ تماما لبيع المخلل .. فقط فى رمضان . أوان زجاجية مليئة بليمون كبير الحجم أصفر تبدو منه ذرات العصفر ، وأوان أخرى فيها باذنجان أسود مستطيل شُقَّ وحُشِى بقدونس أخضر ، وخيار ، ولفت ، وكان مقابل قرش صاغ يملأ طبقا كبيراً .

المقاهى تفتح أبوابها قبل المغرب ، ترش الأرض بالماء وتصف المناضد والمقاعد ، وإليها يأوى بعض الغرباء وأبناء السبيل ، يضع كل منهم أمامه طعامه الذى جاء به أو أرسل فى شرائه من مطعم قريب ، ينتظرون مدفع الإفطار .

حدثنى بعض العجائز والمعمرين فى الجمالية ، أنه حتى ثلاثينيات هذا القرن كانت بيوت الأثرياء فى المنطقة تفتح فى رمضان ، وفى الأفنية

الداخلية تعد الموائد وعليها أطباق الطعام متاحة لأى فقير لايملك زاد يومه ، أوأى عابر سبيل فاجأه ميعاد الإفطار وهو على الطريق يدخل فلايسأل عن شخصه ولا عن مقصده ، يتناول إفطاره ثم يمضى ، وقد أدركت آثارا من هذه العادة القديمة ، فبعض الحرفيين الكبار فى خان الخليلى كانوا يقيمون مأدبة إفطار جماعية ولكن لمرة واحدة فى الشهر الكريم ، ولا أظن أن هذا التقليد مستمر.

* * *

يتردد صوت الشيخ محمد رفعت يتلو آيات القرآن الكريم ، وما من صوت يعيد إلى كل ما أفتقده من أيام رمضان النائية هذه كصوت الشيخ محمد رفعت . وعندما يرتفع صوت الآذان يصيح الأطفال مهللين وسرعان ماينصرفون إلى بيوتهم لتناول الإفطار ، . كثيرون منهم كانوا يصرون على الصيام برغم تحايل الأهل عليهم لصغر السن ، فى رمضان يصبح للإفطار أكثر من معنى ، فأى طعام له لذة ، سواء كان فولا أوطبيخا فيه لحم ومرق ، فالطعام يعد بعناية ، والأكل يسبقه شرب قمر الدين أوأى عصير ميسور .وفى معظم الأحيان تتطلع أنظار الصغار خلسة إلى صينية الكنافة المغطاة بشاش أبيض نظيف أو القطايف منتظرة دورها بعد الانتهاء من الطعام .

فى الإفطار الرمضانى شعور بالأمن أيضا . فالأسرة كلها مكتملة مجتمعة . فى الأيام العادية قد يتأخر الأب فى عمله ، قد يتناول الصغار طعامهم إذ يجوعون ، ولكن فى رمضان ينتظم الكل حول المائدة ويلتئم الشمل ، لحظات الإفطار يخيم صمت عميق على الحارة ، صمت معتم ، ومازلت أذكر رنة صوت شحاذ شيخ كبير كان يمر فى أثناء تناول الإفطار

يتوكأ على كتف امرأة عجوز كان نداؤه حزينا متعبا منغما ، وكان عديدون يقدمون إليه ماتيسر .

الإذاعة أضافت إلى علامات الزمن ، فمع مطلع الشهر الكريم تتردد أغنيتان شجيتان .. " رمضان جانا " لمحمد عبد المطلب ، و"وحوى ياوحوى" لأحمد عبد القادر ، معهما ندرك أن عاماً قد انقضى ، وأن رمضان جديدا قد أقبل ، ومع اللحن المميز لحلقات ألف ليلة وليلة ، تأليف طاهر أبو فاشا ، ندرك أن وقت الإفطار قد انتهى وأن صلاة العشاء تقترب .. يمضى الكبار إلى مسجد مولانا الحسين لصلاة العشاء والتراويح ، تتبادل الأسر الزيارات. كان جيراننا الأقباط يشاركوننا مظاهر الاحتفال بالشهر الكريم ، فلم يجهر أحدهم بإفطاره قط ، وكانوا يتناولون الغداء عند حلول المغرب ، وفى الحارة يحمل أطفالهم فوانيس رمضان ويلعبون معا ، صورة من صور التسامح الدينى الجميل ، والمشاركة الوجدانية التى عرفتها مصر على مر عصورها بين طوائفها المختلفة .

كانت فوانيس رمضان من الصفيح والزجاج الملون تنحدر من العصر الفاطمى ، بعضها صنع على هيئة نجمة أومركب أوطائرة ، لسنوات طويلة اختفت هذه الفوانيس وظهرت أخرى من البلاستيك مصنوعة فى هونج كونج! تماما كتلك الحوارى المصنوعة التى تعلن عنها الفنادق الكبرى وتجعل من موظفيهـــا شحاذين لزوم الفلكلور ، وتحول الشهر الكريم إلى ظاهرة سياحية .

فى العام الحالى ظهر فانوس رمضان القديم ، ولكن شتان مابين أسعار زمان والأسعار الحالية ، هذا الفانوس طالما تغزل فيه الشعراء ، يقول الرشيد أبو عبد الله من شعراء مصر فى القرن السابع الهجرى :

أُحِبُّ بفانوس غدا صاعدا
وضوؤه دانٍ من العينِ
يقضى بصوم وبفطر معا
فقد حوى وصف الهلالين

أما أبو العز مظفر الأعمى فيقول :

وما الليل إلا قانصى لغزالة
بفانوس نار نجوها يتطلب

ينطلق الأطفال فى الحوارى والشوارع يسعون خلف المارة منشدين نفس النشيد الذى تردد عبر عصور متوالية فى الزمن القاهرى .

وحوى ياوحوى .. إياحه
إدونا العادة .. ياالله نكبر .. إلخ

وفى ميدان الحسين يجئ الرواد من أهالى الأحياء الأخرى ، فى القاهرة كان مقهى الفيشاوى العتيق بمقاصيره القديمة ، ملتقى الفنانين والشخصيات البارزة والدراويش وأهل السبيل ، لم يعد باق من الفيشاوى إلا شظايا مكان ، ولأننى لا أطيق الزحام المفتعل وظهور أعداد كبيرة من الأجانب فى الليالى الرمضانية خلال السنوات الأخيرة ، فإننى أمضى إلى المقاهى الصغيرة فى الحى الأصيل ، أو إلى حديقة بيت السحيمى الذى وصل إلينا سالما من العصر العثمانى ، وبقى نظيفا جليلا بحديقته النادرة ، بفضل عناية مديره الصديق محمد مجاهد ، هذا البيت وفناؤه الذى تغطيه الظلال الثقيلة الليلية بمثابة ركنى السديد الذى آوى إليه فى رمضان ملتمسا الزمن

الحلو القديم الذى لن يرجع أبدا .

تمضى الليلة ، ويقترب موعد مرور المسحراتى ، نطل من النوافذ والشرفات يظهر عم حسن الباجورى مسحراتى حارتنا ، يقرع بعصاه الأبواب والنوافذ ، مناديا كلا باسمه ، وإذ يصيح " وحد الله ياأبو جمال " أصيح فرحا ، فقد سمعت اسم الوالد الكريم ، ومن قبلى ومن بعدى صاح أطفال الحارة .

نتناول السحور ، وبعده يمر أحد الرجال على بقية السكان منبها إياهم إلى صلاة الفجر ، وفى الصمت نسمع أصوات القباقيب تخطو فى صالات البيوت ، وصنابير المياه عند الوضوء ، فى الحارة يتجمع الرجال، يمضون جماعة الى مسجد الحبيب سيد الشهداء ، ثم يغلبنا النوم ، فيهجع الصغار.

مع الأيام الأخيرة كان الوالد يقول لنا مداعبا : إن الشيخ رمضان يحزم متاعه ويستعد للرحيل ، وكنا بمخيلتنا نراه شيخا مهيبا قد جاء فوزع السرور والألفة والبهجة ، ثم بدأ يستعد للرحيل ، ليجئ من بعده شوال والعيد ، وعندما يرحل رمضان تخيم على القلب وحشة ، ويفتقد الفؤاد أنسه وحيويته وحركته ، ونتطلع بلهفة إلى عام جديد مقبل .

***

رمضان الذى عشناه فى طفولتنا النائية ، ليس رمضان الذى عاشه أهل القرن التاسع عشر ، لنصغ معا إلى واحد من أهل الغرب الذين عشقوا مصر ، يقول ادوارد لين الانجليزى :

" يبدأ الصوم عندما يتم شعبان ثلاثين يوما ، وفى مساء ذلك اليوم يسير موكب المحتسب ومشايخ الحرف المتعددة .. الطحانين والخبازين

والجزارين والبدالين وباعة الفاكهة ومعهم بعض أعضاء من هذه الحرف ، وفرق من الموسيقى ، وفرق من الجنود من القلعة إلى مجلس القاضى ، وينتظرون شهود الرؤية ، غير أن الموكب المدنى والدينى استبدل به عرض عسكرى . فيتكون موكب ليلة الرؤية الآن من مشاة النظام خاصة ويتقدم حاملو المشاعل كل فرقة من الجنود ويتبعونها لينيروا لهم الطريق ، ويختم المحتسب وتابعوه الموكب .

فى رمضان لايشاهد المرء المارة يمسكون بشبكهم (أدوات التدخين) كما كان يشاهد فى أوقات أخرى ، يتأجل هذا إلى ماقبل الغروب ، وتبدو الشوارع خالية كئيبة فى الصباح ، اذ أن كثيرا من الحوانيت يغلق ، غير أنها تفتح جميعا فى العصر وتزدحم كالمعتاد ، وعادة كبار الأتراك بالقاهرة وكثيرون غيرهم أن يقصدوا مسجد الإمام الحسين ، عصر كل يوم من رمضان للصلاة ، ومن الشائع فى هذا الشهر أن تشاهد تجارا فى حوانيتهم يتلون القرآن أو الأدعية أو يوزعون الخبز على الفقراء ، وفى الليل تزدحم المقاهى بأخلاط الناس لتناول القهوة والتدخين فى الشبك ، وفى رمضان على العموم يوضع كرسى عليه صينية الطعام قبيل الغروب فى غرفة الاستقبال . بمنازل الطبقتين العليا والوسطى ، ويوضع عليها صحاف عديدة فى انتظار الوافدين عليهم على غير انتظار ، وبعد الفراغ من الطعام شرب القهوة وتدخين الشبك يقيمون صلاة العشاء ، ويؤدون صلاة التراويح .. "

هذه بعض ملامح الصورة كما كانت منذ قرن ونصف القرن من الزمان .

***

الآذان

فى ليالى رمضان لا أغمض عينى إلا بعد استماعى إلى شعائر صلاة الفجر من مسجد الإمام الحسين ، وأنا فى مسكنى بضاحية حلوان النائية ، وقد كنت أحضرها وأشهدها قبل أن ينأى المكان بى .

بن المذياع أيضا أصغى طوال الليل إلى إذاعة استامبول ، عبر المسافات البعيدة يصلنى أصوات قراء القرآن الكريم الأتراك ، لتلاوتهم إيقاع خاص ، ولتراتيلهم الصوفية مضمون غامض وحزين ،أصغى إلى أناشيد جلال الدين الرومى ، إلى الموسيقى الصوفية الخاصة ، أما أذان الفجر فقد سمعته أول مرة من مساجد استامبول عندما كنت أعبر البوسفور على ظهر سفينة عام ألف وتسعمائة وثمانية وسبعين ، كان صوت المؤذن فيه شجى ، وتلخيص للمصير الإنسانى ، ينبعث من الأرض متجها إلى عنان السماء ، كأنه معبر عن حزن المخلوق الذى انفصل عن الخالق ،كأنه تعبير عن غربة الروح الإنسانية فى هذا العالم المادى ، فيه قوة تعبر عن رغبة الإنسان فى الوصول وتخطى المستحيل ، وفيه حزن مقطر يعبر عن إدراك الإنسان ... لعجزه وتقصيره ، كأنه شكوى غامضة تعبر عن انقضاء الزمان ومرور الأيام وانتهاء أجل الإنسان الفرد عند مدى بعينه ، استغاثة مهذبة ، خجول ، طامعة فى الرحمة .

اذ يرتفع هذا الأذان من الضفاف البعيدة ، يأتينى عبر بقايا الليل ، إذ يرتفع أذان الفجر من منابر مساجدنا ، يسود الليل صمت ، وتتنزل فى قلبى سكينة ، وأصغى إلى إيقاع الزمن الخفى الذى لاراد له ، وأتساءل مستعرضا كل مامر بى من أيامى الرمضانية :

من تغير .. من ؟ الإنسان أم الزمان ؟ .

زيـــــــارة

مايو ١٩٨٥



.. أول أيام العيد ، الثلاثاء ، وهذا يعنى بالنسبة لى قضاء جل ساعات النهار لمراجعة صفحتى أخبار الأدب التى ستصدر غدا الأربعاء . خرجت فى الرابعة إلى شوارع المدينة التى بدت خالية تماما ، معظم المتاجر مغلقة ، والنسبة العظمى في الطرقات من الأطفال ، واضح أنهم يرتدون ملابس جديدة ، مازالوا بعد في المرحلة الخضراء من العمر ، وإحساسهم بالعيد لم يهن بعد ، أما فرحهم فمازال غضًا.

قطعت وسط المدينة إلى المقهى ، الندوة الثقافية فى باب اللوق ، إنه أول الأيام التى يفتح أبوابه نهارا ، طوال شهر رمضان لايفتح الابعد الإفطار ، صافحت المعلم جلال ، كان بمفرده تماما مع العاملين ، حسنا .. تلك فرصة للانفراد بالذات ، كم بقيت ؟ ، نصف ساعة أو أكثر ، كنت أدخن النرجيلة ، هذا الصديق الصامت ،مؤنس الوحدة ، وفى مثل هذه اللحظات أستعيد الأيام البعيدة التى قدر لى أن أعيشها ، دائما إما راحل إلى الماضى الذى لايمكن استعادته أبدا ، وإما متطلع إلى مستقبل لا أدرى إن كنت سأشهده أم لا ؟

أعود إلى المدينة الخاوية ، قاهرتنا التى أعشق حالاتها المختلفة ، وهذا

الخواء حالة نادرة ، إذن .. لأمشى على مهل ، قبل أن أنزل درجات السلم المؤدية إلى محطة مترو حلوان ، تحت رطوبة وهواء بارد ، هذا أفضل من الهواء الساخن ، الحار .

لمحت مقعدا خاليا فوق الرصيف ، ورجلا فى منتصف العمر ، يرتدى جلبابا بلديا ، وعمامة ، وأمامه " قفة " مغطاة بقماش قديم ، له ملامح أهل الصعيد ، ألقيت السلام عند جلوسى ، فرد الرجل ، ثم سألنى :

- محطة الزهراء بعد كم محطة ؟

الزهراء ؟ رحت أعد المحطات ثم قلت له :

- بعد خمس محطات ..

فى الزهراء يسكن أقاربى الصعايدة ، من يدرى ... ربما يقصد أحدهم ، سألته :

- من أين ؟

قال :

- من العامرية ..

قلت :

- الاسكندرية ؟؟

قال :

- نعم .. نحن عرب نعيش فى العامرية ..

ثم قال :

- مشوار متعب ، مشيت كثيرا بعد نزولى من الأوتوبيس ، السلالم كثيرة ..

ثم قال :

- عندى شقيقة متزوجة في مصر ،وتعيش فى الزهراء ، جئت بزيارة لأعيّد عليها ..

سألته عما إذا كان يعرف الطريق ، قال إنه جاء مرة من قبل ، ولكنها المرة الأولى التى يركب فيها مترو الأنفاق ، قلت له ، يجب الاحتفاظ بالتذكرة ، وكما أدخلها فى الماكينة هنا ، يجب أن يفعل ذلك عند خروجه . أومأ برأسه ، وعدت إلى صمتى ، متطلعا إلى " القفة " واسمها فى نفس الوقت " زيارة " أى هدايا .

هذا شقيق يمضى لزيارة أخته ، وربما لها أولاد ينتظرون خالهم القادم من البلد ومعه خير الفلاحين البسطاء ، إذا صح هذا ، فهم الآن فى نفس موقعى منذ ربع قرن ، وأكثر ، كان خالى يجئ " من جهينة مرة على الأقل فى كل عام ، وكان الوالد يمضى للقائه فى محطة مصر ، وإذ يصل القطار يبدأ فى الصياح عليه ، وإذ يلتقيان ، يحمل عنه القفة التى كنا ننتظرها بشوق ، ياسلام .. كأن هذا كان بالأمس القريب ، بل إننى مازلت أذكر رائحتها التى هى خليط من رائحة الخبزالصعيدى الشمسى ، والفايش ، وهو عبارة عن قراقيش معجونة باللبن والسمن البلدى ، تؤكل بعد غمسها فى الشاى ، وفى طفولتى كنت أسمع من يقول إنه لابد من خبزه بواسطة بنت بكر وقبل طلوع الشمس حتى يخمر جيدا ، كانت القفة تحوى أيضا ملوخية جافة ، وأظن أن الفايش والبتاو والملوخية طعام منحدر إلينا من العصر الفرعونى ، وعندما تأملت بقايا الطعام المحفوظ منذ أربعة آلاف سنة والمعروض حاليا

فى المتحف المصرى ضمن مجموعة الملك الشاب توت عنخ آمون لم تكن الأصناف غريبة عنى ، فقد عرفت مثلها فى صعيدنا ، كان ذلك فى زمنى الماضى ، قبل أن تعرف قرانا خبز الدقيق الأمريكى ، الذى يباع في الأفران الآن ، وقد كان من أكبر الأمور التى يمكن أن تشين بيتا ، أن يقال عن أهله ، إنهم يشترون الخبز من السوق ، أويبيعون لبن البهائم الخاصة بهم ، كان ذلك من علامات الشؤم ، ونذر الفقر ، وإذا مدح قوم يذكر فى معرض المديح " دا دقيقهم فى بيتهم " ، ولكن هذا كله تغير الآن ، ولا يوجد شئ يمكن أن يغير العادات العتيقة المتوارثة مثل الظروف الاقتصادية ، سواء كان على مستوى المجتمع ، أو المستوى الفردى .

أعود لأنظر إلى القفة على الرصيف ، وأستعيد بقوة حضور قفة خالى ، خاصة رائحة البلح المجفف ، كان ضامرا ، بنى اللون ، طريا ، بلح من نخيلنا ، والبلح المصرى متنوع ، غنى بأنواعه ، شديد الحلاوة ، ولكنه للأسف لم يقدم حتى الآن للمستهلك بشكل لائق .

أستعيد رائحة الأوزة المذبوحة ، وفرادى الحمام ، كان هذا أثمن ما فى الزيارة ، ولذلك يوضع فى النهاية ، فوق كل الأصناف السابقة ، إن مذاق الطعام تغير أيضا ، لاحظت هذا خاصة فى السنوات الأخيرة ، ويرجع هذا إلى نوعيات السماد التى غلبت عليها المنتجات الكيماوية ، وأنواع الغذاء التى تقدم إلى الطيور والحيوانات ، ويبدو ذلك واضحا فى مذاق الدجاج الأبيض ، واختفاء مذاق الشوربة القديم ، أعود إلى اللحم فقد كان له موقع خاص فى الطعام ربما لارتفاع سعره نسبيا ، وكان هو الصنف الوحيد الذى يتولى الوالد تقسيمه ، وتوزيع الأنصبة علينا ، وكثيرا ما كانت أمى تعيد توزيع نصيبها هى من جديد علينا ، وكنا نختتم به الطعام ، لهذا إذا

مضيت إلى دعوة حتى الآن وتصادف أن بدأت باللحم - حتى لوكان باردا - فإننى أشعر بالشبع فورا ..

وصل المترو ..

قام الرجل حاملا القفة ، بقيت على مقربة منه وإن لم أجلس إلى جواره ، هذه القفف المصنوعة من الخوص تختفى أيضا ، وآخر مرة كنت فى الصعيد منذ شهور ، لاحظت أن معظم الركاب سواء فى الدرجة الأولى أوالثالثة يحملون حقائب حديثة ، إما من جلد صناعى وإما قماش وإما أكياس بلاستيك ، لهذا بدت لى هيئة القفة فريدة ، وأثارت عندى ما أثارت من تداعيات الزمن القديم .

كان الرجل يجلس وقد وضع " الزيارة " أمامه ، أحيانا يحكم لف شال عمامته ، ولكن لم تكن تبدو عليه علامات الاضطراب ، كان يبدو من بعيد واثقًا ، على الرغم من أنى لاحظت أنه سأل أحد الركاب مرة ثانية عن المحطات المتبقية على الزهراء ، لم يثق بإجابتى الأولى ، وتلك ملاحظة رصدها أستاذنا يحيى حقى بالنسبة للقادمين من الريف ، ترى أحدهم فى ميدان باب الحديد يسأل أحد أفندية المدينة ، ثم يبتعد مسافة ويسأل شخصا آخر ، إنه الحذر الريفى من المدينة ، فالمدينة أو البندر بالنسبة للقروى مصدر شرور دائم ، إنها السلطة ، والميراث التاريخى أثبت له أن هذه السلطة سواء كانت فرعونية أو رومانية أو أموية أوعباسية أومملوكية أوعثمانية لاتريد له خيرا أبدا ..

هذا ميراث ، ولكن هل هذا الحذر مازال كما هو ؟ ، خاصة بعد الهجرة الواسعة التى تمت منذ بداية السبعينيات بالنسبة للفلاح المصرى، هذا الفلاح الذى فارق أرضه لأول مرة فى تاريخه ، وركب الطائرات إلى أحواش الأهواز

فى العراق ، وإلـى صحـارى السـعودية ، بل واصل بعضـهم إلى أقـصى الدنيـا ، إلى سلطنة برونو فى آسـيـا ، مـا انعكاس هذه الهـجـرة على السلوكيات وبالتالى على المجتمع المصرى ؟

أخيرا .. محطة الزهراء ..

تأهبت لكى أنبه الرجل ، ولكننى وجدت أكثر من راكب يقول له :

- الزهراء أهه .

إذن .. سأل أكثر من شخص ، قام حاملا قفته ، ممسكا بالتذكرة الصفراء وعندما اختـفى عن نظرى ، رحت أتخيل لقاءه بشقيقتـه التى قطع هذه المسافة كلها ليقول لها كل سنة وأنت طيبة ، ورحت أتخيل فرحة أبناء أخته به ، وأتسـاءل : ترى من سـيـذكـره منهم بعـد سنوات طوال ، ومن سـوف يستعيد لحظات زيارته ، وهذه القفة وماتحوى ، من منهم ، وفى أي مكان سوف يتذكر ؟ تماما كما تذكرت أنا خالى عندما كان يزورنا فى هذه الأزمنة البعيدة .

* * *

الخميس :

أعود إلى رمضان الذى شد رحاله وغاب بسرعة .

هذه ليلة قضيـتها فى قبة الغـورى ، يوم افتـتاحه ، المسرح صغـير ، جلسنا فى المدرج الأيمن ، فى المدرج المقابل السـفـير الأمـريكى ، والسـفـير السـوفيتى وعدد آخر من السفراء وعدد من المثقفين والصحفيين ، كنا فى انتظار دخول الرئيس مبارك ، إلى المقعد أمامى مباشرة ، جاء رجل أجنبى ، نحيل جدا ، أصلع تماما ، صلعة مبالغ فيها ، وتذكرت التشبيه القديم

بالزلطة ، فعلا ملساء ، وكانت ثنايا الجلد تبدو واضحة ، كان يجلس منطويا داخل ذاته ، كتفاه مرفوعتان ولاحظت أن أذنيه كبيرتان بشكل ملحوظ ، كأنهما ايريال بشرى ، ولا أدرى السبب الذى جعلنى أوقن أن هذا الرجل يعمل فى وكالة المخابرات المركزية ، هل هى هيئته ؟ ، هل تكوينه الجسمانى المريب ، الغريب ، هل لأنه كان دائم النظر إلى مكان السفير الأمريكى ؟ هل لأنه لم يتبادل كلمة واحدة مع السيدة التى كانت ترافقه ؟ لم يتحدثا قط ، لاقبل العرض ، أوبعد العرض . أعرف أن طبيعة العمل تنعكس على التكوين الجثمانى للإنسان ، وكان حضور هذا الأصلع يؤكد لى أنه رجل مخابرات ، وربما لأن عندى حاسة شديدة الحساسية تجاه هؤلاء الأجانب ، خاصة إذا كان جاسوسا .

العرض كان رائعا ، ولكن عيناى كانتا تروحان وتجيئان عند هذه الصلعة المتصلة بقفا عار تماما ، قفا أصلع أيضا ، عندئذ كنت أفكر ، أى أسرار داخل هذه الصلعة ؟ ، وفى أى الفروع يعمل ؟ وماذا يدبر ؟وكيف يرى الحضور هنا ؟ كنت أحاول أن أتشاغل عنه ولكننى أجد نفسى متأملا الصلعة من جديد ، وعندما كانت الأضواء تخفت كان جلد الرأس يلمع ، المهم أن الرجل كان لا يتحرك أبدا ولايتلفت أبدا ، لايمينا ولاشمالا ، ولايبدو عليه أى انفعال وعندما كانت تنتهى فقرة ، كان يصفق سرا ، بدون أن يرفع يديه ، انما تلامس كل يد الأخرى وهى مبسوطة فوق ركبته ، ملت على صديق عزيز .. قلت مداعبا :

- أراهنك أن هذا الأمريكى فى السى آى إيه ؟

سألنى :

- هل تعرفه ؟

قلت :

- أبداً .. حتى لم أر وجهه جيدا ، لكن انظر إلى حضوره .. إلى صلعته وإلى أذنيه ..

المهم ، بعد انتهاء العرض ، قام صديقى هذا ، وصافح عددا من المسئولين ، وجاءنى ضاحكا :

- هل تشم رائحتهم ؟ ، إنه فعلا المسئول عن السى آى إيه فى السفارة الأمريكية ..

وعرفت أنه سأل صديقا له ممن يعملون فى الأجهزة المختصة ، وقال له إن هذا الرجل له صفة أخرى غير صفته المعلنة ، ولكن هذا معروف تماما لرجالنا المصريين ، التفت متابعا الرجل أثناء خروجه ، كان يتطلع إلى الحاضرين وكأنه فى فندق ، وتذكرت دعابة شعبية عن المخبر القديم ، الذى يمشى بين الناس ، كلهم يعرفونه ، وهو يعتقد أنه مستتر عن الجميع .

* * *

وإذا كان الشئ بالشئ يذكر ، فقد توقفت طويلا أمام سطور قليلة فى التحقيق الممتاز الذى أجراه الزميل الكبير وجيه أبو ذكرى فى الأخبار عن شركات توظيف الأموال ، قال إن ثمة خبرا يتعلق بإحدى الشركات تسرب قبل نشره إلى أصحاب الشركة ، وهذا يعنى نجاح اختراق المؤسسات الصحفية الكبرى من جانب هذه الشركات ، وهذا كلام خطير ..

كلام خطير . وإن كان العاملون فى الصحف القومية أو المعارضة ، يدركون أساليب الاختراق ، والذى تظهر أعراضه حتى فى بعض الأعمدة الخاصة بكتاب المفروض أنهم كبار جدا ، جدا ، بل وتصل إلى حد أن صحيفة قومية كبرى تنشر نص حديث رئيس الجمهورية إلى جريدة السياسة الكويتية ، فتحذف منه الفقرات الخاصة بشركات توظيف الأموال ، حدث

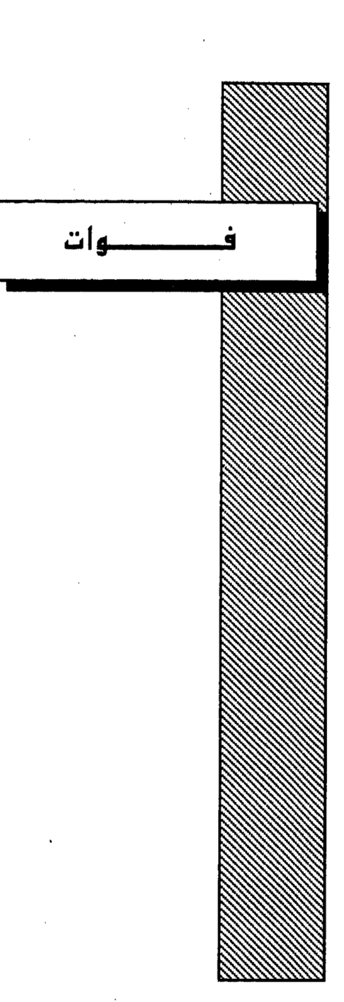
هـذا فـعـلا ، وليراجع من يشاء نص حديث الرئيس مبارك فى الصحف الثلاث .

المهم .. أن مايعنينى هنا ، هو ظهور منافس خطير لأجهزة الأمن . فالمعروف أن أجهزة الأمن تعتمد على بعض من يتعاونون معها فى مختلف مجالات الحياة ، وهؤلاء إما يتعاونون عن طيب خاطر ، وإمامقابل تسهيل بعض أمورهم ، وإمامقابل مبالغ مالية ، وهناك بنود فى أجهزة الأمن للمصاريف السرية ، طبعا هذه البنود مهما كانت محكومة باللوائح الحكومية ، وبميزانيات معينة ، والمعروف الملموس أيضا أن الأسعار فى ارتفاع ، وأن تكاليف الحياة فى ازدياد مستمر ، وبالتالى فإن المكافآت التى تمنح للمتعاونين يسرى عليها مايسرى على المرتبات والمكافآت .

في هذه الظروف بالذات تظهر شركات ذات إمكانيات هائلة ، تتعامل أساسا فى المال ، ويبدو أن برامجها تتجاوز مشروعات اللحوم والطعام ، والأسمنت ، فقد قرأنا إعلانات عن برامج لحوأمية مائة ألف شخص ، أى وزارة تعليم موازية ، وقرأنا أيضا عن شراء مستشفى ، ونظام يشبه التأمين الصحى مقابل ثلاثمائة جنيه فقط فى السنة للعائلة كلها مهما بلغ عددها . يعنى وزارة صحة موازية ، ثم قرأنا فى تحقيق الزميل وجيه أبو ذكرى سطورا عن عمليات اختراق للمؤسسات الصحفية ، وهذا يعنى نشاطا جديدا فى نفس الاتجاه الرامى إلى خلق مؤسسات موازية للمؤسسات الشرعية التى تتولى الحكم فى مصر ويتكون منها النظام ، المهم .. هو هذا المجال الجديد ، خلق فئات من المتعاونين فى مختلف المؤسسات ، وطبعا الشركات تدفع لهم أكثر من أى جهة أخرى ، ألا يشكل هذا خطورة على المدى القريب والبعيد، خاصة بالنسبة لأجهزة الأمن ؟

مجرد ملحوظة أرجو أن تكون عواقبها سلمة بالنسبة للعبد لله .

اكتوبر ١٩٨٥



فــــــوات

لم أحمل الزهور إلى أبى وأمى قط فى حياتهما التى كانت !

كانت رحلتنا فى الحياة قاسية ، وكانت عواطفنا عميقة دفينة ، عند السفر يودع كل منا الآخر بالنظر ، والتمنيات لانطقها إنما نعرب عنها بالحس ، كان كل منا يشعر بمايدور فى نفس الآخر بدون اللجوء إلى اللفظ ، لم أحمل إليهما الزهور قط إلابعد أن رحلا إلى الأبد ، وأصبح اللقاء بهما فى عالمنا مستحيلا والمسافات التى تفصلنا قصية .

فى العيد ، أول أيامه ، سعيت إلى مرقدهما ، عندى من الذكرى كنز عظيم ، الصباح باكر ، ومنزلهما الأبدى خال تماما ، قبعت فى انتظار وصول أشقائى ، أتامل الأرض التى احتوت ، التى يرقد فى باطنها من هما أصلى ، على ترابها نثرت الزهور ، وأنّبْت نفسى ولمت روحى ، لو أننى حملت زهرة واحدة الى أبى أو أمى عندما كانا يسعيان ، كان بإمكانى أن أفعل ، ولم أفعل ، وما أكثر المناسبات التى مضت ولن ترجع ، كيف كانا سيتقبلانها ؟ . أى عواطف رقيقة كانت ستتدفق داخلهما ، هأنذا أحمل لهما الزهور بعد فوات الأوان ، لكم أجلت النطق باللفظ الرقيق حتى فات الأوان تماما ، لكم تقاعست . فيا صحب ، وياأعزاء ، لا تؤجلوا عواطف اليوم إلى

الغد ، فرب كلمة طيبة تلفظها اليوم تبعث السعادة القصوى ، وإذا صمتنا عنها ، فقد لايسمح لنا الدهر بالنطق بها أبدا ، أقصى الآلام ماصاحب الفقد والفوت ، وأفظع الندم مايجئ بعد فوات الأوان .. وقـــد فات !

ولكن ..

عندما يعى الإنسان أنه فرط فيما كان يجب ألا يفرط فيه ، وأنه بدد الوقت ، وأنه افتقد الزمن الذى كان يجب أن يفضى فيه إلى الأحبة بمشاعره ، هل يتدارك الأمر فيما تبقى له من عمر؟ لا أدرى كيف تكون الإجابة ولكننى صباح كل يوم بعد أن أودع محمد ابنى إثر ذهابه إلى المدرسة ، ينتابنى ندم ، ألوم نفسى ، كان يجب أن أقضى معه ليلة أمس ولو نصف ساعة لكننى فرغت إلى كتاب كنت أقرأه ، أوإلى كتابة كان يجب أن أتمها ، وأرجأت جلوسى إليه إلى الغد ، قبل نومه يفتح الباب على مهل واستحياء ، يقف مترددا اذ يرانى منكبا على الكتب ، يسأل :

- ممكن أقعد معك ؟

لا أرده ، ولكنه بعد لحظات يستشعر انشغالى ، وشرودى ، فيقوم منسحبا إلى النوم ، وأرجئ أنا جلوسى إليه إلى الغد ، مع أنى قد لاأبلغ هذا الغد حيا ، ومحمد الآن يسعى إلىّ ولكنه مع مرور الأيام سينمو ، وتصبح علاقاته أوسع وسيرحل إلى بلدان شتى ، وقد يجئ اليوم الذى أعيش فيه هنا ، ويعيش فيه هناك ، أبحث عنه فألقاه مسافرا ، أتمنى رؤيته فلا أسمع إلا صوته عبر الهاتف ، عندئذ أقول لنفسى ، ليتنى قضيت معه الوقت عندما كان يطلبنى وأتشاغل عنه ، أعزى نفسى بصراعى الحاد مع الزمن ، فالعمر قصير والعلم كثير ، وما أود أن أقرأه لن تتسع له أيامى ، وما أرغب فى كتابته يضيق عنه الجهد ، وما بين هذا وذاك تضيع الفرصة ،

ويفوت الأوان .

* * *

الليل يتقدم ، وأنا جالس فى مقعد أمام الطبيب الكبير محمد الفقى ، من اكتشف منذ سنوات أمر العلة القديمة فى القلب ، إنه يتحدث فى الهاتف إلى قسم الرعاية المركزة بمستشفى عين شمس الجامعى ، يطمئن على موقف المرضى ، قبل أن يوغل الليل ، يناقش مع النائب هناك أدق التفاصيل ، يطلب إجراء أشعة أمامية وأخرى جانبية ، يطلب التأكد من نسبة البوتاسيوم فى دماء مريض آخر ، يطلب إجراء تحليل لبصاق ، يقول مصطلحات طبية لا أفقه أمرها ، أتخيل بذهنى قسم الرعاية المركزة النظيف ، الهادئ ، والمرضى الذين أجرى لهم جراحات القلب فوق أسرتهم جلهم من الفقراء ، كل توجيه يقوله الدكتور محمد الفقى يتعلق بإنسان ، بحياة كاملة ، بمصائر ، لقد وهب حياته لهؤلاء فى مصر ، كان من الممكن أن يقيم فى أوربا وأن يلمع هناك وبالتالى هنا ، كم من أمثاله آثروا البقاء بين قومهم فى مصر ، تذكرت صديق الطفولة وزميل الدراسة وابن الجمالية الدكتور إسماعيل محمود بعد تخرجه رفض السفر إلى الخارج ، وافتتح عيادة في كفر الزغارى يعالج فيها أبناء الحى الذى نشأنا فيه ، كم من أمثاله لايدرى عنهم أحد ؟ أفقت من تأملاتى على صوت الدكتور محمد الفقى ، يطلب منى أن أتمدد ، أن أتنفس ببطء وبسرعة ، يلف حول ذراعى قماشة جهاز الضغط المطاطية ، أرقب تعبيرات وجهه ، أرقب جهاز الضغط العالى ، وجهاز رسم القلب الذى تظهر الدقات والخفقات على وريقاته خطوطا متعرجة ، فأى خط يضم خفقة العشق القديم ، وأى خط يحتوى الحزن ، وأى خط يعبر عن الندم .

- ضغطك منخفض قليلا ..

خلل جديد ، يقول الدكتور محمد الفقى وفى صوته حزم ولوم :

- تغيب كثيرا عن الميعاد الذى أحدده لك .

نعم ، هذا حقيقى ، فهل تحين اللحظة التى يفوت فيها الأوان ؟

اليوم ، تملكنى الحنين إلى الجمالية ، كعادتى مضيت إلى ميدان الحسين، هذا هو شارع المشهد الحسينى ، أمشى على مهل ، لكم قطعته طفلا بصحبة الأب الذى غاب إلى الأبد والأم التى رحلت منذ عامين تماما ، أعبر الحارة الضيقة المؤدية إلى شارع الجمالية ، تلك مدرسة محمد على الإعدادية ، هنا قضيت أربع سنوات من عمرى ، تتردد فى أفق ذاكرتى أصوات الجرس وملامح المدرسين ، ولحظات الانصراف ولحظات الترقب التى تسبق إعلان النتيجة ، هذا هو مقهى البنات ، تهدم وأعيد بناؤه ، مدخل قصر الشوق ، وجوه أعرفها ، وجوه أكثر أجهلها ، خطاى تنتقل فوق المكان نفسه ، ملامح البيوت لم تتغير كثيرا ، لكن الزمان ليس هو ، خطواتى هذه لن تقودنى إلى البيت الذى قضيت فيه عمرا ، نعم سأصل إلى نفس البيت الذى عشنا فيه ، ولكنه ليس المأوى ، لم يعد محلا للإقامة ، ومن ينتظرنى فيه انتقل ورحل ، أستأنف التجوال في المكان غير أننى لم أقدر إلا على الحنين ، الحنين الجارف ، أما ماكان فقد طواه الزمان فى مسيرته الغامضة التى لاترد أبدا ، فهل المكان هو المكان ؟ ، وعلى الرغم من فشلى فى إدراك الزمان ، إلا أن هذا لا يمنعنى من المعاودة ، فى التردد دائما لعلى أحظى بقبس من ذكرى فالتة أو لحظة شاردة .

ديسمبر ١٩٨٥

متتاليات مصرية

قطار حلوان يندفع مسرعا بعد محطة المعصرة ، خف الزحام قليلا ، وأصبح من الممكن الجلوس فوق مقعد خال بعد أن غادره الركاب في المحطات العديدة السابقة ، خاصة محطة دار السلام حيث الكثافة السكانية العالية ، والتى يطلق عليها البعض اسم " الصين الشعبية " ، هناك مكان آخريطلق عليه القاهريون نفس الاسم ، إنه " بولاق الدكرور " ، فى العالم صين واحدة ، وفى القاهرة وحدها اثنتان ، هأنذا جالس فوق المقعد ، أتأمل الطريق الذى يتراجع مسرعا ، وامرأة يبدو أنها موظفة تجلس قبالتى ، تغالب النوم ، ورحت أتخيل يومها الشاق ، بدءا من استيقاظها مبكرة ، وإعداد الطعام للزوج والأطفال ، ثم ارتداء الثياب ، وهذا المكياج السريع الفقير ، واللهاث وراء القطار الذى يصعب فى ساعات الذروة الحصول على موطئ قدم فيه ..

فجأة .. دوت صرخة ، صرخة حادة ، أنثوية ، مرهقة ، ملتاعة ، التفت، امرأة ريفية ، نحيلة ، تحمل على ذراعيها طفلا صغيرا ضامرا جدا ، تقف قرب الباب ، وجهها باتجاه الخارج المارق بسرعة ، يميل جسدها إلي الأمام ، رجلان يمسكان ذراعيها ، يبدو أنهما لحقا بها فى الوقت المناسب ، قال أحدهما وكان يحمل جريدة مطوية تحت إبطه :

- ياستى ارجعى واخزى الشيطان ..

بينما صاح الآخر ..

- تموتى كافرة يعني ؟

على مهل تستجيب لهما ، تعود إلى مقعدها ، الكل ينتبه إليها ، الغريب أننى لم أنتبه إليها قبل صرختها ، تشير إلى رجل يرتدى جلبابا ريفيا يجلس فى مواجهتها ، يتطلع أمامه ، صامتا ، جامدا ، كأن الأمر لايعنيه كأنه تجمد ، تشير إليه :

- مش عايز يريحنى ..

راحت تردد العبارة عدة مرات ، ثم بدأت تبكى بكاء عنيفا ، بينما الطفل الضامر ، النحيل ، يتطلع بعينين شبه مذعورتين إلى مايجري ، لا يفقه من أمره شيئا ، ولايدرى مايجرى فى هذا العالم الغريب الذى لم تتكشف له بعد مفرداته ، قالت المرأة باكية وبصوت متسلخ ، متقطع ، قالت وهي تبعثر كل خصوصياتها ، وأسرارها على مسمع من الناس ، إنها كانت فى البلدة ، وإنها لم توافق على مجيئها معه إلى مصر ، ولكنه ألح وصمم ، وقال أنه ليس من المعقول أن تعيش هى فى ناحية وهو فى ناحية ، ثم جاءت ، وليتها لم تأت ، ليتها لم تغادر البيت ، بيت أبيها وأمها ، منذ أن وصلت ..

- ومش عايز يريحنى ..

الزوج مازال صامتا ، أحد الركاب يتطلع إليهما ثم يقول مخاطبا الرجل :

- ماتريحها ياأخى .. ويرتفع صوت من المقعد خلفى :

- ياأخى عايزها تموت نفسها يعنى ..

رجل آخر :

- وحدى الله أمال وبلاش عياط

رجل من المقعد المجاور :

- طيب علشان اللى على باطك ده ..

تلتفت إليه :

- أنا ماقلتش حاجة .. بس لو يريحنى .. يصيح أحد الركاب :

- ياأخى ماتريحها أمال ..

والزوج صامت ، جامد التعابير ، سارح بعينيه فيما لاندريه ، وعندما توقف القطار فى حلوان ، نزل من القطار ، خلفه كانت الزوجة تحمل طفلها تمشى ، رحت أتابعهما حتى غابا تماما فى الزحام القاسى .

شايفك يابتاع امريكا

سنترال حلوان ، الصالة الرئيسية ، الساعة الثامنة والنصف ليلا ، التليفون الدولى ، عدد من الناس ينتظر إجراء المكالمات ، مع أنحاء مختلفة من العالم ، شاب يقف فى المقصورة الأولى ، آخر يقف فى المقصورة الثانية ، ثالث فى المقصورة الأخيرة ، فجأة ينقطع التيار الكهربائى ، يسود الظلام ، يسمع وقع الأقدام ، ومرور عربة بالخارج ، يقوم الموظف المسئول عن إجراء المكالمات ، وتحصيل الأجرة ، والمبالغ تدفع بعد انتهاء الاتصال ، يصيح :

- كله يثبت فى مكانه ..

يسمع صوته قويا ، مليئا بالمخاوف ، فلو تسلل أحدهم فى الظلام إلى الخارج سيدفع هو المبلغ ، وتكاليف المكالمات مرتفعة ، يصيح :

- شايفك يابتاع أمريكا ..

يقصد الشاب الذى يتحدث إلى الولايات المتحدة ..

- اثبت عندك يابتاع رأس الخيمة ..

يجاويه صوت :

- ياعم ماتخافش ..

يصيح الموظف:

- أنت يابتاع الكويت ..

تسرى ابتسامات فى الظلام ، يتردد صوت قريب من مكتب الموظف :

- حسابك ياريس .. هو حد يخلصه برضه ينسحب من غير مايدفع ..

يبدو أن الموظف جلس ليتسلم النقود ، يسأل عن البلد والمكالمة ، يذكر المدة ، ويطلب من الرجل أن ينتظر قليلا حتى يشعل الشمعة التى أرسل فى طلبها ، فجأة يصيح :

- تعال هنا يابتاع أمريكا .. أنا شايفك أهه .. ويهتز لهب الشمعة التى أضيأت للتو.

بعد انتهاء إجراءات الجوازات فى مطار القاهرة انتقلت إلى صالة انتظار الحقائب ، الوقت فجرى ، والصباح سيكتمل بعد قليل ، يصيح أحد العمال مشيرا إلى السير المتحرك :

- بتوع فرنسا ييجوا هنا بالصلاة على النبى ..

للمصرى لوازم لايخلو منها كلامه ، أوحواره ، نهارنا أبيض ، ليلتنا فل ، بالهنا والشفا ، أستعير سطورا من كتاب " سندباد مصرى " للدكتور

حسين فوزى الذى قرأته فى بداية الستينيات وحفر فى نفسى آثارا عميقة ، يقول الدكتور حسين فوزى :" أتصور الشعب المصرى على طول تاريخه الإسلامى ، والفضل لمن ذكرت من أصحاب الحوليات العظماء ، وللمقريزى بنوع خاص عندما أقف بحى الأزهر ، أوتحت الربع ، أوأجلس بباب حلاق بالحسينية أوبالحنفى ، أشاهد بياع البسبوسة يرجو جاره أن يحرس صينيته حتى يذهب ليتوضأ ويصلى فى سيدى البيومى ، أوفى جامع الأشرف برسباى ، ويعود الرجل بعد هنيهة متهلل الوجه ، نظيفه ، وزبيبة الصلاة قد زادت سمارا ، أتصور الشعب المصرى فى تلك العصور وفى المدن ، بائع الحلوى والخراط والسروجى والبزاز والعطار وصانع الخيام ، وعندما استمع إلى حديث أوساط الناس فى أحيائنا الوطنية ، أستعيد أيام طفولتى بينهم ، فأفهم المعانى المستترة وراء لغتهم السمحة المهذبة من أمثال " يفتح الله " ومعناها : السعر الذى تعرضه غير مقبول ، و"صل على النبى " أى فلتبدأ فى الفصال ، و"على الطلاق " ، أى لاتصدق كلمة مما سأقول ! و"يافتاح ياعليم " أى أول القصيدة كفر ، وبعدها وياك ، وربنا يكفينا شرك ، و"باسم الله " أى تفضل وشاركنى لقمتى التى لاتكاد تكفينى ، ثم يتشجع عندما ترفض دعوته فيقول " حلفت عليك " ومعناها : أيها الأديب لقد فهمتنى ! و" اتوكل على الله " يعنى أغرب عن وجهى من غير مطرود " .

وهذه لغة شعب فيلسوف ،مسالم ، يتكلم بالكناية ،وينادى على سلعته ، بصور شعرية : "ياللى طاب وطلب الأكال ، يابيض اليمام ، ياناعم ! " شعب علمه ظالموه الحذر وصون اللسان ، كما فرضوا عليه ممارسة السخرية المستترة ، فما عرفت والله شعبا فى مثل قدرته على التندر بالحكام ، وفى حذقه فى التلاعب بالألفاظ !

أحلام المدينة

.. لولا صديقى الناقد السينمائى وكمال رمزى ، ما أمكننى رؤية أفلام عربية وعالمية هامة لاتعرضها دور العرض فى مصر ، الصديق كمال رمزى أعارنى فيلم " أحلام المدينة " للمخرج السورى - من جيلنا - محمد ملص ، ولكم استمتعت ،ولكم انفعلت به ، يحكى الفيلم فى بساطة أخاذة ، وواقعية صادقة ، وشاعرية سينمائية ترقى الى المستوى العالمى ، قصة أم تصطحب ولديها بعد موت زوجها إلى دمشق لتقيم عند والدها الفقير قاسى القلب . الابن الأكبر - حوالى عشر سنوات - يعمل صبى كواء لينفق على أمه وشقيقه ، وفى نفس الوقت يواصل دراسته ، الحى شعبى والشخصيات متنوعة ، عديدة ، تذكرنا فى عوالمها الإنسانية بنماذج الأدب العالمى الواقعى ، السنوات هى السابقة على إعلان الوحدة بين مصر وسوريا ، الحكم العسكرى ، والانقلابات ، ترى الدور المصرى فى بعد لم نعشه ، حيث تجمع التوقيعات من الناس ، لتأميم القناة ، وحيث يتردد اسم عبد الناصر كبطل أسطورى ، وتتطلع العيون فى هذه الحوارى القديمة ، المتخمة بالتاريخ إلى القاهرة باعتبارها مركز العربية ومنطلقها ، وينتهى الفيلم بأغنية محمد قنديل ترددت كثيرا فى هذه الأيام التى تبدو الآن نائية جدا ، قصية جدا ، وكأنها تاريخ خارج التاريخ ، " وحدة مايغلبها غلاب " ، بينما العيون تتطلع إلى أفق جديد ، لكم أتمنى أن يعرض هذا الفيلم فى مصر ، فلكم أثار الشجون ، وبعث الأمل .

أثرياء هذا الزمان

طوال الأسبوعين الماضيين كنت أتردد على مستشفى عين شمس لزيارة أخى على الذى احتجز فى قسم الغدد الصماء ، وقد عرفت هذا الطريق منذ

حوالى خمسة عشر عاما ، عندما بدأ الصديق والطبيب الإنسان عادل صادق يعالجه من مرض عضال ، ومازال ، الأطباء الشبان يبدون عناية ظاهرة لجميع المرضى ، بدون وساطة أوتوصية ، لا أعرف منهم إلا الأسماء الأولى ، الدكتورة الهام ، الدكتورة مها ،الدكتور محمد ،وغيرهم ، أتامل لافتة تحليل فى الممر ، تشير إلى أسماء المساهمين فى إنشاءات معمل تحاليل الغدد الصماء ، عدد من شركات الأدوية المصرية ، أتوقف عند اسم واحد " قوت القلوب الدمرداشية ، إذن .. استمرت هذه السيدة تتبرع وتسهم فى أعمال الخير حتى الستينيات ، أذكر أنى اشتريت طبعة من إحدى روايات أستاذى نجيب محفوظ ، كتب عليها ، أنها حصلت على جائزة قوت القلوب الدمرداشية ، هكذا كان حال أثرياء الزمن القديم ، يتبرعون للخير ، وينشئون الجوائز للأدب ، أما أثرياء عصرنا البائس الذين لم يعرف معظمهم حظا من الثقافة أو الانتماء ، فلم نسمع عن واحد من ملياردير اتنا قد تبرع لدعم مشروع فنى ، أوطبى ، كان سيد جلال يجمع القروش ليبنى مستشفى يخدم الفقراء مجانا ، وفى زماننا يبنى أحدهم مستشفى مجهزا بأحدث الوسائل العلمية ، ولكن المشروع استثمارى ، مغلق ، محاط بأسوار عالية فى وجه من لايملك تكاليف العلاج الباهظ ، ومثله الكثير ، كنت أتأمل عنبر الغدد الصماء ، وأتساءل : لماذا لم نسمع عن أحدهم وقد اشترى بطاطين للمرضى ، أوأسرة ، أوأجهزة حديثة ؟

غير أننى سرعان ماأجيب على تساؤلى ، إنه الفرق بين عصر وعصر ، بين تكوين وتكوين ، بين زمن وزمن ، بين انتماء وانتماء ، وما أبأس العصر الذى يصبح فيه العلاج مشروعا استثماريا ، فقط فيه العلاج للقادرين جدا ، والهدف منه جنى أكبر قدر من الربح فى أقل وقت ممكن .

فبرايـر ١٩٨٦

يــوم .. عصيــب

الأربعاء: الساعة العاشرة:

الثامنة صباحا ، بدا طريق الكورنيش هادئا ، حركة المرور أخف من المعتاد ، تذكرت أيام العطلات ، من نافذة الميكروباس لم يبد شئ غير عادى قبل نزولى من البيت ، اتصلت الزميلة بركسام رمضان ، قالت إن حظرا للتجول مفروض على شارع الهرم حيث تقطن ، وتساءلت عن الأحوال فى حلوان أخبرتها أن الأمور تبدو طبيعية ، فكرت فى زوجتى التى اصطحبت ولدينا الصغيرين إلى المدرسة فى المعادى ، ثمة قلق خفى ، يضاعفه خلو الطريق نسبيا من العربات ، مررت على فندق شبرد حيث ينزل صديقى عالم النفس الشهير مصطفى صفوان ، لم أجده توجهت إلى مقهى الندوة الثقافية فى باب اللوق .

اليوم الأربعاء ، وفيه تظهر صفحة الأدب ، ولهذا يمكننى أن أصل متأخرا بعض الشئ إلى الجريدة ، فى المقهى كان الرواد قلة أيضا ، وكان المعلم جلال يتحدث عن قرار حظر التجول فى منطقة الهرم ، كان الجو فى المقهى مشابها لأيام اضطرابات عظمى شهدتها من قبل ، الكل واجم ، ساهم ، والعبارات قصيرة موجزة ، من المذياع جاء صوت المذيعة يعلن عن حظر التجول الشامل بدءا من الواحدة ظهرا ، راح جلال يتحرك بسرعة ، يلملم المقاعد

التى صفها فى الخارج ، أمسكت التليفون محاولا الاتصال بمؤسسة روز اليوسف محاولا الاتصال بزوجتى لكى تتوجه فورا إلى المعادى لتصطحب محمد وماجدة ، بعد أن أجابنى شخص ماوقال إنه سيوصلنى بها ساد صمت ، مضت ثوان ثقيلة ، يئست من الرد ، فانطلقت خارجا ، أعدو عبر باب اللوق ، وعندما وصلت إلى شارع قصرالعينى كان الزحام قد بزغ فجأة ، الكل يتدفق إلى الطريق ، السيارات تتدافع ، عندما وصلت إلى مبنى روز اليوسف كنت مجهدا من الجرى ، قيل لى إن المدام نزلت من دقائق ، هرعت إلى شارع جانبى ، لمحتها ، كان أيمن شقيق زوجتى يقود العربة ، أما هى فكانت أصابعها تنقر باب العربة فى عصبية ، بدت مضطربة ، طرقت زجاج العربة الخلفى ، قلت يجب أن نتجه بسرعة إلى المعادى ، قال أيمن إن البنزين على وشك النفاد ، وكان لابد أن ننفق أكثر من ثلث ساعة كى نصل إلى محطة بنزين لاتبعد أكثر من مائة متر ، كان العمال يضعون الحواجز ، غير أننا أقنعنا المدير بحاجتنا الملحة ، بعد لحظات كانت السيارة تقف فى خضم أعظم من العربات ،ولم يكن هناك جندى مرور واحد ، بينما وقف بعض الأهالى يحاولون تنظيم المرور ، الوقت يمضى ثقيلا ، واليأس من الحركة يدب إلينا ، فكرت فى ركوب القطار ، لكن البعض قال إن قطار حلوان متعطل ، فكرت أن أنزل وأقطع الطريق مشيا ، إلى المعادى ، كان الزحام شديدا ، والحر يتصاعد ، والبعض ينتقد قرار الحظر المفاجئ ،الذى أربك المدينة .

* * *

الأربعاء : الساعة الثانية عشرة والنصف :

مازلنا فى المنعطف المؤدى إلى كورنيش النيل ، بعض السيارات بدأت

تتعطل ، يبدأ حوار بين ركابها عبر النوافذ القريبة ، عندما دخلنا طريق الكورنيش توقفت الحركة تماما ، ولم يكف تدفق المشاة بين السيارات ، كان بعض الطلبة قادمين مشيا من جامعة القاهرة ، عندما اقتربت الساعة الواحدة كانت موتورات السيارات قد توقفت ، ونزل على الجميع صمت ثقيل لا حظت غياب الشرطة تماما ، رأيت أمينا للشرطة يمشى فى الاتجاه المعاكس، يمسك بغطاء رأسه بين يديه ، وهو يلوح بيديه لم يكن فى حالة ممارسة وظيفته ، فى السماء حلقت طائرة هليكوبتر عسكرية ، بعث مرآها اطمئنانا خفيا ، كان الناس يتحركون بهدوء ، والبعض يقدم على زق العربات التى تعطلت عند بدء الحركة المحدودة ، ومن هنا وهناك كانت تسمع بعض الدعابات في ذروة هذا الموقف القاسى ، لم يحل قلقى وغمى دون ملاحظة التحضر الكبير الذى بدا فى سلوك البسطاء " لحظة نادرة يتجلى فيها معدن هذا الشعب النادر ، الأصيل ، الشعب الذى لم يفهمه بعض أبنائه الذين حكموه فأنشأوا له جهازا قمعيا ، على غرار أجهزة القمع فى أمريكا اللاتينية ، وغاب عنهم أن مصر ليست السلفادور ، أوهندوراس . .

أدرت مؤشر الراديو . وزير الإعلام صفوت الشريف يتحدث عن الموقف ، يطالب المواطنين بعدم الاستماع إلى الاذاعات الأجنبية المسمومة ، فيما بعد وخلال الأحداث اكتسح الإعلام المصرى كافة أجهزة الإعلام الأجنبية ، لأول مرة فى حدث مهول تتجه الأذن المصرية إلى إذاعتنا ، لأول مرة نعيش كافة التفاصيل بدقة ، بأمانة ، بمصارحة الذات ، ولعل ذلك يكون بداية سياسة جديدة للإعلام المصرى ، أعود إلى الشارع المزدحم ، صورة ماجدة الصغيرة ابنة الأعوام الخمسة ، صورة محمد تتوالى على ذهنى بمختلف الاحتمالات ، يخفق قلبى قلقا وشؤما وخوفا وأملا ، غير أننى أخفى انفعالاتى حتى لايتضاعف قلق زوجتى التى وصل توترها عند لحظة معينة إلى حد البكاء،

أخيرا ، دارت موتورات السيارات ، بدأت الحركة على مهل ، ثم انفتح الطريق إلى .. المعادى ..

* * *

الاربعاء : الثانية والربع ظهرا ..

نقترب من مدخل المعادى ، تقول زوجتى إنه الميعاد المعتاد الذى نذهب فيه لنصطحب الأولاد ، تقول ليس مهما ماسيحدث بعد ذلك ، عندما رأينا الحواجز تسد طريق الكورنيش المؤدى إلى حلوان ، حيث سكنا ، قالت ليس مهما أن نصل إلى البيت ، المهم أن نكون معا ، أن ينضم الأولاد إلينا ، ولنبق فى السيارة حتى ، رحت أستعرض معارفنا فى المعادى الذين يمكن أن نلجأ إليهم ، الزملاء حسنين كروم ، مصطفى بكرى ، مهجة عثمان .. بل فكرت فى لجوئنا إلى حديقة نادى المعادى ، لكن المهم قبل هذا كله أن نصل إلى الأولاد ، أنطلقت السيارة مسرعة ، أولا .. صوب مبنى مدرسة حضانة كلية النصر ، المبنى محاط بسور قصير ، بدا خاليا من الحياة ، راحت زوجتى تنادى من تعرفهن من المدرسات والعاملات ، لا أحد يجيب ، هزت الباب .. القفل محكم .. لاأحد .. راحت تعدو فى اتجاهات مختلفة .. صارخة ، بنتى ، لمحت أحد السكان يطل من المبنى المجاور ، قال إن العربة نقلت الأطفال إلى المبنى الرئيسى للكلية ، على المقعد الخلفي انهارت زوجتى ، تولى أيمن القيادة صوب المدرسة . .

* * *

الاربعاء : الثانية والنصف ..

لم يكن هناك أى طلبة فى المدرسة ، كان بعض العاملين يقفون عند

المدخل ، أخبرنا أحدهم أن أبا لطفل في المدرسة اصطحب محمد وماجدة ، قال إن اسمه أشرف المزاحي ، وأنه ترك رقم تليفونه ، حاولنا الاتصال بحلوان ولكن عبثا ، التليفون أخرس ، كيف نصل إلى حلوان وطريق الكورنيش مغلق ، قال إن هناك طريقًا آخر يمر عبر جبل طرة ، طريقًا جديداً لم يفتح بعد ، وأن السيارات تسلكه إلى حلوان ، عدنا إلى العربة ، لم نكن نعرف كيف الوصول إلى بدايته ، ولكن عدة سيارات كانت تمضى ، قال سائق إحداها إنه متجه إلى حلوان ، تبعناه ، مررنا بجوار محطة القمر الصناعى ، الطريق غير ممهد فى مدخله ، معسكرات القوات المسلحة خلف الأسلاك الشائكة كان جنود الجيش المصرى الوطنى يقفون شاهري السلاح ، يتطلعون إلى اتجاه معسكرات الأمن المركزى بطرة ، رأيت الجنود يرتدون الخوذات ، وشدة القتال الثقيلة .. كانوا يبتسمون للمارة ، ويرشدونهم إلى طريق حلوان الجبلى ، بقدر ما أثاروا فى نفسى من طمأنينة ، بقدر ماتحرك عندى من حزن ، حزن مبعثه أن هذا يجرى في مصر ، مصر التى أعرف تاريخها جيدا ، ومعدن شعبها ، حزن مبعثه هذه اللحظة التى يمر فيها الوطن باضطراب عظيم ، وصلنا إلى بداية الطريق المرصوف حديثا ، قلت إن المهندس أشرف لابد أنه جاء من حلوان عبر هذا الطريق ، ولابد أنه عاد منه ، ولابد أن ماجدة ومحمد عند جدهما الآن ، قال أيمن : إن محمد رجل ، وأنه سوف يتصرف جيدا ، ولاقلق عليه .. غير أن زوجتى كانت كمدة ، تبكى !!

* * *

الأربعاء : الثالثة والنصف ..

توقفت العربة أمام منزل الجد ، صاحت زوجتى منادية ، هرعت تدق الباب

بقيت واقفا فى الشارع ، أخشى اللحظة التى سأعلم فيها أن الأولاد لم يصلوا بعد .. وقد كان ، إنهما ليسا فى البيت ، لنمض إذن إلى بيت المهندس أشرف ، لقد ترك الرجل عنوانه ورقم تليفونه ، إلى شارع راغب ، قيل لنا أنه يسكن فى الطابق السادس ، آخر دور ، أسرع أيمن وزوجتى بالصعود ، كنت منهكا ، خائفا ، واضطراب عظيم يغزونى ، رحت أنادى على المهندس أشرف ، أطل أحد الجيران ، قال إنه غير موجود ، والشقة مغلقة ، فى هذه اللحظة توقفت أمامى سيدة تحمل حقيبة بها خضراوات ، قالت إنها تعرف المهندس أشرف ، وأنه يكون أحيانا عند والده ، وأن منزل والده على مرأى النظر ، أشارت إليه ، أسرعت جريا اليه ، أستقبلنى والد الرجل برقة ، قال أن المهندس أشرف فى المعادى ، باق عند أصحابه ، وأن معه طفلة واحدة اسمها انجى ، وأنه اتصل منذ قليل تاركا رقم التليفون ، قلت أرجو أن أتصل به ، دخلت البيت ، راحت الأسرة الطيبة تهدئ امرأتى ، وأتت الأم بكوب ماء أخيرا .. أخيرا ، جاءنى صوت المهندس أشرف ، قال لى أنه بقى فى المعادى لأن طريق الاوتوستراد كان مغلقا أيضا وبه إطلاق نيران ، اذ فر بعض الجنود إلى الجبال ، سألته هل محمد وماجده معه ، قال نعم ، أكدت له أننا عدنا من طريق الأوتوستراد وأنه مفتوح ، قال لى الرجل إنه سينزل فورا ، قال لى لاتقلق فمعى ثمانية أطفال من حلوان ، قلت له، أننى سأعود إلى الطريق وأقابله عليه ، قال لى والده إن عربة أشرف مرسيدس لونها أخضر ، دعا لى والده بالطمأنينة على الأولاد ، ورفع يديه بالدعاء ، تأثرت من مقابلة القوم ، أصررت على بقاء زوجتى فى بيت والدها . الطريق جبلى ولاندرى المفاجآت ، أيمن يقود السيارة ، للأسف .. لا أعرف القيادة حتى الآن ويبدو أننى لن أعرف ، ترى ماذا سيجرى على الطريق ؟ من الممكن أن تقع السيارة فى دائرة الحظر ، هل يعترضها بعض

الجنود الفارين ، سمعت أنهم اقتحموا مدرسة فى المعادى ، فى أى بقعة مكانية أولادى الآن ، لأول مرة نحن فى ناحية .. وهم فى ناحية ، ويحول بيننا مايحول ، هل سأراهم مرة أخرى ؟ هل سيكونون بقربى عند العاشرة مساء ، لماذا العاشرة مساء بالتحديد ؟ لم أدر . قلت لأيمن أن يتمهل ، قلت له لابد أن نتيح فرصة للمهندس أشرف حتى نلقاه فى منتصف الطريق .

* * *

الاربعاء : الرابعة والنصف :

ضوء النهار يفقد حدته ، اللون الرمادى يتسرب فى الفراغ ، الطريق الجبلى موحش ، وحظر التجول بدأ بالفعل ، ولا أثر لسيارة المهندس أشرف ، توغلنا حتى منتصف الطريق تقريبا ، مداخن مصانع الأسمنت بطرة قريبة ، هنا يتشعب الطريق إلى فرعين ، لو اتجهنا هنا ، فربما جاءوا هنا ، قلت لأيمن : فلنعد وننتظر قرب المعصرة ، كنت قد لمحت تجمعا من البيوت الفقيرة على الطريق ، ودكانا لإصلاح إطارات السيارات ، توقفنا جانبا ، السيارات المارقة قليلة استوقفنا شابا يركب دراجة بخارية ، قال إنه لاينصحنا بالتوغل فى الطريق ، الجنود الفارون ارتدوا الثياب المدنية ويعترضون العربات ، أى هول ؟ أى مقادير مجهولة يخبئها الغيب ؟ لمحنى واحد من أبناء المنطقة ، يبدو أنه لاحظ اضطرابى ، سألنى عما إذا كنت أريد شيئا ، قلت له إن عيالى فى المعادى ، وإننى أنتظرهم ، وحتى الآن لم يظهر لهم أثر ، ثم سألته عما إذا كان يوجد تليفون قريب ، قال ثمة تليفون قريب فى صيدلية ، قلت لأيمن اذهب أنت وسأبقى أنا لأراقب العربات ، كان الجبل يبدو موحشا أكثر ، وكان اقتراب الليل يدفع إلى فكرة الانهيار ، ترى ماذا جرى للأولاد على الطريق ، بعدما يقرب من نصف ساعة لمحت السيارة

تتجه ناحيتى ، كان أيمن يضئ أنوارها ، قال لى : إن المهندس أشرف وصل بالأولاد فعلا ، يبدو أنه سلك طريقا مختلفا فى العودة ، قال أيمن إنه يبدو أن زوجتى قد عادت إلى الطريق لتخبرنا بوصول محمد وماجده .. ولى انزعاج وبدأ آخر ، كيف نعود إلى هذا الطريق الموحش ؟ كيف ؟ لامفر من عودتنا ، لنرى ماسيحدث .

* * *

الخامسة والربع:

أمام بيت الجد كانت زوجتى تقف وبجوارها ماجدة الصغيرة مرتدية الزى المدرسى ، قالت إنها خرجت إلى الطريق بعربة أحد الجيران ، ولكنها عادت إذ وجدته خاليا موحشا ، قالت إن المهندس أشرف صحب الأولاد جميعهم إلى أحد أصدقائه بالمعادى ، وأن سيدة المنزل أعدت ساندويتشات للأطفال ، وأننا يجب أن نتصل به لنشكره ، صافحنى محمد وقال :

- " شفت طائرة هليكوبتر تضرب بالقرب من المدرسة ..

ثم قال مخبرا إياى : "

- " نزلت فى حديقة المدرسة .. كانت بمروحتين !! "

فبرايــر ١٩٨٦

التعريب .. والتغريب .. !

أنهيت عملى الليلى ، وبدأت طقوسى المعتادة قبل النوم ، مثل ملء كوب ماء ، الاطمئنان إلى إغلاق الباب ، وضع المذياع الصغير بالقرب منى ، عند عبورى الصالة توقفت ، نظرت إلى المقعدين الصغيرين أمام الباب تتوسطهما مرآة ، على أحدهما قميص وبنطلون محمد ، وتحته حذاؤه وجوربه ، وإلى جواره حقيبة المدرسة ، تطل منها الكراريس والكتب ، مفتوحة ، لاتنتظر إلا الساندويتش ، كل شئ معد اختصارا للوقت عندما يطلع الصباح ، وتكون الدقائق حرجة ، ما استوقف نظرى فوق المقعد الآخر ، مريلة ماجدة الصغيرة ، والحذاء الأسود الدقيق ، والجورب الأبيض ، وحقيبة لونها أزرق صغيرة الحجم ، عليها رسم ملون ، ابتسمت ، وبعد أن خطوت خطوتين التفت مرة أخرى ، إنها إحدى علامات الزمن .

.. لقد أصبحت ماجدة تلميذة فى حضانة كلية النصر بالمعادى ، تذكرت لحظة رؤيتى الأولى لها ، لحظة المواجهة الأولى بين الأب ومن أنجب ، لكم أسرع الزمن بالمرور ، فى اليوم الأول لبدء الدراسة فى العام الماضى ، ارتدى محمد الزى المدرسى ، وفى لحظات ماقبل خروجه إلى المدرسة ، وقفت شقيقته الصغيرة ، تبدى العناية به ، تردد ماتقوله الأم ، تربت ظهره ، " خذ بالك يامحمد " ، وعندما بدأ نزول السلم خرجت خلفه ، " مع السلامة

يامحمد " ، كانت تهز رأسها مشجعة له ، ولكنها عندما استدارت إلى داخل البيت دمعت عيناها ، قالت " أنا عاوزة أروح المدرسة " ، وقلنا لها إنها مازالت بعد صغيرة ، تزايد بكاؤها ، " اشمعنى محمد " ، ويمضى الزمن ، وفى أحد الأيام نصحبها إلى السيدة والمربية عفاف فؤاد ، وفي الطريق كانت والدتها تهمس لها بالنصائح ، تهز رأسها بجدية ، كأنها تقول " نعم .. أفهم " ، ويمضى الزمن ، ويصبح واجبا على الأم أن تعد ملابس ماجدة كما تعد ملابس محمد ، وحقيبة ماجدة ، مثلما تعد حقيبة محمد ، وأعود لألقى نظرة على الأشياء فى صمتها ، حقا .. لكم تنطق ولكم تعبر ، ولكم تشير إلى علامات الزمن !

* * *

التغريب

.. من الأمور المزعجة التى لم أمل التنبيه إليها طوال السنوات الماضية هذه الموجة من التغريب التى تمثلت وتجسدت فى ظهور الأسماء الأجنبية على المنشآت والمتاجر حتى دكاكين البقالة الصغيرة فى الجمالية أصبحت لافتاتها تحمل اسم " سوبر ماركت " و" مينى ماركت " ، حتى هذا المتجر الذى يعلن أنه متخصص فى الأزياء الإسلامية اختار اسما أجنبيا ! الأسبوع الماضى حضرت اجتماعا دعا إليه اللواء يوسف صبرى أبو طالب محافظ القاهرة ، كان اجتماعا لمجلس محافظة القاهرة ، لكن الجديد أنه دعا رجال الفكر والأدب من كافة الاتجاهات للاستماع إلى آرائهم ، وأفكارهم ، تقليد جديد ورائع ، ذكرنى بالتقليد الذى اعتاده سير ونستون تشرشل ، عندما كان يدعو أدباء انجلترا للمشاركة فى اجتماعات رئاسة هيئة الأركان للمشاركة فى تصور خطط القيادة ، لمالهم من قدرة على التخيل واقتحام

آفاق التصور، كان الاجتماع غنيا بحق ، وفيه أشارت الدكتورة نعمات أحمد فؤاد إلى ظاهرة هذه الأسماء الأجنبية والعناوين ، ولكن الجديد بالنسبة لى ماقالته عن قرار صدر فى عام ١٩٤٨ يمنع إطلاق الأسماء والعناوين الأجنبية على المحلات والمتاجر ، وإذا كان صاحب المتجر أجنبيا أوالشركة أجنبية ، فلابد من إطلاق الاسم بالعربية مع كتابة الاسم الأجنبى فى ثلث مساحة اللافتة فقط ، ثم قال لى الأستاذ نجيب محفوظ فيما بعد: إن الوزير الذى أصدر هذا القرار هو عبد الحميد عبد الحق ، المهم .. أن تطبيق هذا القرار من سلطة المحافظ ، وطبقا للقانون ، إننى أدعو إلى بدء تمصير العناوين والأسماء ، . إلى حملة تعريب تطرد التغريب .

* * *

مشكلـــة

.. بدأ رسالته قائلا ، شاء القدر ألا أفشل فى التعليم !

توقفت لحظات فى دهشة ثم تابعت سطوره ..

.. حصلت على مؤهل متوسط عام ١٩٦٤ ، والتحقت بالحكومة عام ١٩٦٥ ، ثم بدأت أكمل المشوار ، مشوار النجاح كما يسمونه ، فحصلت على بكالوريوس تعاون تجارى ، وهكذا .. أصبحت من أصحاب المؤهلات العليا ، بكل أسف ، لو أننى فشلت لما أصبحت فى الحالة التى أمربها الآن ، من قلق وترقب وانتظار المستقبل بما يحمله من خير وشر ، لوأننى فشلت فى الدراسة وأصبحت عامل قيشانى أو سباكا ، أونجارا ، لأصبحت الآن ميسور الحال ، بدلا من حالى الآن ، أقل الناس دخلا وأكثرهم ضغطا فى الإنفاق ، أما زملاء الطفولة الذين لم يتموا تعليمهم وأصبحوا حرفيين ، فإنى أراهم أفضل وضعًا وأحسن مستوى ، أنا لا أحسدهم ، ولكننى أرثى لنفسى

ولفشلى ، بل لنجاحى الفاشل ، مع تزايد ضغوط الحياة فكرت فى احتراف عمل آخر إلى جانب الوظيفة لأزيد دخلي ، لكن ماهو المجال المناسب ؟ ، بعد تفكير قررت أن أحترف القيادة وأعمل سائقا للتاكسى بعد الظهر ، وفعلا كنت قد تعملت القيادة أثناء خدمة وطنى بالقوات المسلحة من عام ١٩٦٧ حتى ١٩٧٤ ، خضت خلالها حرب الاستنزاف وكنت فى أكتوبر من العابرين ، بدأت العمل على سيارة أجرة اشتريتها بالتقسيط ، ضحيت بساعات راحتى من أجل زيادة دخلي ، حتى أتمكن من خوض ظروف الحياة الصعبة ، من تربية أطفالى ، ولن أتحدث عن الأسعار وصعوبات الحياة فهذا مكرر معاد ، ضحيت بالوقت الذى كان من الممكن أن أقضيه مع أطفالى ، أخرج فى الصباح إلى الوظيفة ، وبعد الظهر إلى التجوال بالتاكسى ، أعود لأجدهم قد ناموا ، ومع هذا كله كنت أحمد الله ، وأشكر فضله ، مادام الرزق يأتينى حلالا ، غير أن الأيام تبطن لنا مالاندري !

لقد أصدر مجلس الدولة فتوى ملخصها أن كرامة الوظيفة لاتسمح لشاغلها بقيادة سيارة أجرة . لماذا ؟ لأنها امتهان لقدسية الوظيفة !

أى منطق ؟ أى كرامة مهدرة في عمل شريف مثل قيادة سيارة أجرة ؟ ماهو العيب ؟ ماهو الجرم فى ذلك ؟ يقولون إن هذا عمل تجارى ، وممنوع الجمع بين الوظيفة والعمل التجارى ، قانون قديم وضع فى الخمسينيات والستينيات ، عندما كان للموظف قيمة ! ، كيف يمكن لى مجابهة الحياة بدون عمل إضافي ..

* * *

.. أى أمور تجرى في العالم السفلى لقاهرتنا ؟ ، كأنى أقرأ عن أحداث جرت فى العصر المملوكى أوأزمنة التدهور التى مرت بها مدينتنا الكبرى

عبر تاريخها الطويل ، وأنا أطالع تفاصيل هذه الحادثة الغريبة التى أعلنت تفاصيلها مؤخرا ، معلم فرن فى الجمالية ، أى فى أشد مناطق القاهرة ازدحاما بالسكان ، يحتجز عشرات الأحداث (منهم واحد فى الثامنة والعشرين) يسومهم العذاب اليومى ، يجلدهم ، يحشرهم فى غرفة تشبه بعض الأماكن التى قرأنا الأدب العالمى يتخيلها فى الجحيم ، حيث رماد الفرن ، والظلام ، وضيق المكان ، وأين ؟ فى قاهرة الربع الأخير من القرن العشرين ، معاملة تتضاءل إلى جوارها ماقرأنا عنه من معاملة الرقيق فى القرون الوسطى ، أوفى رواية الجذور الشهيرة للأديب الأمريكى الشهير الكس هيلى ، ويستمر حجز هذه المجموعة من البشر عدة أعوام ، ثم يكتشف الأمر بالصدفة كيف ؟ ، التساؤل مقلق ومجد ، كيف لم تتوصل أجهزة الشرطة إلى اكتشاف مايجرى داخل هذا الفرن ، أذكر أنه منذ عدد ليس ببعيد من السنوات كانت المسافة الزمنية التى تفصل بين وقوع جريمة والإعلان عن القبض على مرتكبيها فترة زمنية قصيرة جدا ، وفى واقعنا الحالى نماذج حية تدل على أن الهمة عندما تدب وتنشط فإنها تصل إلى الهدف فى أقل مما نتصوره ، ونموذج جريمة اغتصاب فتاة المعادى ليس بعيدا عن الأذهان ، فقد تم التوصل إلى مرتكبى الجريمة فى ساعات ، ولكن فى الجانب الآخر هناك بعض الجرائم التى بدأت تعرف طريقها إلى مجتمعنا ويبدو أنه ينتشر نتيجة تغير السلوك والعادات والقيم ، أخشى التعامل معه كأمر واقع ، أوكظاهرة شبه عادية ، من ذلك ماكتبه الأستاذ الكبير جلال الحمامصى حول ظاهرة اختطاف حقائب السيدات من الشباب مدمنى المخدرات ،وعند ذهاب المجنى عليها إلى الشرطة تفاجأ أن الضابط يصف لها ماجرى ! إن أجهزة الأمن المصرية عريقة فى تاريخها ،وكفاءتها ليست بحاجة إلى تنويه ، ولكننى أخشى أن يكون الاهتمام بأحد فروع الأمن قد

جاء على حساب جوانب أخرى ، إننى أقصد الأمن السياسى ، فعلى الرغم من أن الشوارع مدججة بالجنود الذين يرتدون الأزياء السوداء ويشهرون الرشاشات ، إلا أن حضورهم يستهدف الإرهاب السياسى ، أوحماية السفارات والمنشآت الأجنبية والحيوية ، أما الاطمئنان الذى كان يثيره عسكرى الدورية القديم وصيحته الليلية المشهورة ، فمفتقد إلى حد ما الآن ، إننى أعبر عن إحساسى كمواطن عادى ، وأنبه فقط واثقا أن ضابط الشرطة الكفء ، اللواء أحمد رشدى سيضع ملاحظتى هذه التى تعبر عن إحساس كثيرين موضع الدراسة والعناية .

* * *

أبناء الشـــهداء

نادى الضباط بالزمالك ، منذ سنوات لم أدخل المبنى العريق ، إحدى أمسيات القاهرة الشتوية ، احتفال بسيط ومؤثر وعميق تقيمه إدارة الشئون المعنوية للقوات المسلحة ، لتكريم المتفوقين من أبناء الشهداء في المراحل التعليمية المختلفة ، ولتوزيع جوائز مسابقة القصة السنوية ، بعد تلاوة آى الذكر الحكيم وكلمة رقيقة من اللواء جمال الدين شرف مدير الشئون المعنوية بالقوات المسلحة بدأ توزيع شهادات وجوائز التفوق على أبناء الشهداء ، استيقظت حواسى ، قد أكون عرفت بعض آبائهم قبل أن يولدوا ، إن تلاميذ المرحلة الابتدائية الذين سأراهم بعد قليل لم يروا آباءهم فقد استشهدوا وأبناؤهم مازالوا أجنة في بطون أمهاتهم ، أو أنهم كانوا فى شهورهم الأولى ، أليست هذه السنة الثالثة عشرة على الحرب ؟ ، بدأ النداء .. يتقدم المتفوقون ، إيناس عبد الخالق ، ومحمد مقلة ، وجيهان جرجس رياض ، ورشا إبراهيم عبده ، و خالد محمد زرد ..

تنتفض دقات قلبى ، أين الشهيد محمد زرد ، زرد أحد أبطال مصر فى أكتوبر ١٩٧٣ ، محرر النقطة القوية ١٤٩ ، القناة ، الشظايا ، الموت ، العدو .. صور ، صور عديدة لاتنتهى ، يتقدم خالد الذى أنهى المرحلة الابتدائية نظرت إلى عينى الصديق أحمد رضوان المذيع بإذاعة الشرق الأوسط والذى عمل في الجبهة خلال حرب الاستنزاف ، كانت نفس المعانى عنده ، وكأن الشهيد البطل مثل أمامنا حيا يسعى ، وتتابع الأسماء ، نها لويس عجايبى ، ونجلاء أحمد حمدى ، مرة أخرى أتوقف ، تتقدم فتاة ، رقيقة ربما في المرحلة الثانوية ، إنها ابنة البطل أحمد حمدى الذى استشهد في معركة العبور وعلى كتفيه رتبة اللواء ، أذكر أننى زرت أسرته بعد استشهاده بأسابيع ، وكتبت تحقيقا صحفيا عن سيرته ، أذكر السيدة قرينته ، وشقيقه ، وأطفالا صغارا .. نجلاء كانت صغيرة جدا وهى تتطلع إلى الكاميرا وقتئذ ، ثلاثة عشر عاما ليست بالزمن القليل ، خاصة أن ماجرى فيها كثير ، مهول ، ولكن قواتنا المسلحة لاتنسى ، لاتنسى أبناء أولئك الذين قدموا حياتهم من أجلنا ، لذلك كان لهذا الحفل البسيط منزلة وأثر عندى .

* * *

لمــن ؟

جاءنى محمد ابنى ممسكًا بقصاصة من مجلة أسبوعية ، أشار إلى إعلان ملون يمثل طائرة قتال حديثة جدا ، قال لي إنه يرغب فى شراء طائرة ، قلت له لايمكن شراء هذه الطائرة ، تساءل : لماذا يعلنون عنها إذن ؟ ، الحقيقة أنني حرت ، هذه الإعلانات عن هذه الطائرة بالذات تتوالى منذ فترة زمنية محور الإعلانات طائرة قتال متقدمة ، ما المقصود ؟ ، إن التسليح يخضع

لاعتبارات علمية ، منها نوعية السلاح والاحتياجات الفعلية ، وهناك هيئات متخصصة وعلى مستوى رفيع هدفها تحديد النوعية المناسبة ، لمن تعلن الشركة المنتجة إذن ؟ " للأفراد ؟ هل يمكننى شراء طائرة لو توافر الثمن ؟ لماذا ؟ ربما لاستخدامها فى معاركى الأدبية ، وما أكثرها ، لكن .. هل تصلح ؟ هل مداها مناسب ؟ هل تسليحها معقول ؟ أما ثمنها فما يفوق القدرة على الخيال ، أفيق من أحلام اليقظة مرة أخرى لأتساءل : ماجدوى هذه الإعلانات ، ما المقصود منها بالضبط ؟ .

مـــارس ١٩٨٦

كشف المـحجوب .. في التصـوف الإسـلامي

مامن سعادة تعادل عندى العثور على كتاب طال بحثى عنه ، وقد ذهب عام ١٩٨٥ أوخرج على خير ، كما كان يقول شيخى ابن إياس ، وفيه عثرت على كتابين طال بحثى عنهما ،وقد أتيت بهما من عالمنا العربى ، الأول : كشف المحجوب ، " للهجويرى" ، أحد الكتب الأساسية فى التصوف الإسلامى، كتب بالفارسية ، وقد قرأت عنه كثيرا ، وأثناء زيارتى لتونس في يوليو الماضى، وفى مكتبة قديمة بجوار جامع الزيتونة عثرت على نسخة يتيمة من طبعة بيروت ، حملتها مثل كنز ثمين ، ترجمته إلى العربية الدكتورة إسعاد قنديل ، أذهلتنى الترجمة ، الأسلوب يرقى إلى أسلوب كبار المتصوفة ، أى لغة ؟ أى رقة ؟ أى جمال دفين ؟ ، ومنذ أسابيع كنت فى جامعة عين شمس أحضر ندوة عن الحرب العراقية الإيرانية ، التقيت بالدكتور بديع جمعة رئيس قسم اللغة الفارسية سألته عن الدكتورة إسعاد قنديل ، أخبرنى برحيلها عن عالمنا ، ترحمت عليها ، وقرأت الفاتحة ، كم من أمثالها جاءوا إلى العالم وأخلصوا الجهد وبذلوا الوقت فى صمت ثم رحلوا دون أن يخلفوا ضجيجًا ، لم يتركوا إلا آثارهم الثمينة من نتاج جهد .. رحمها الله ،الكتاب الثانى :(المقابسات) لأبى حيان التوحيدى ، وبدون مبالغة أعتبره أعظم ثائر عربى على الإطلاق ، أكاد أحفظ (الإشارات الإلهية)هذا الكتاب الفريد فى التراث العربى ،

قـــرأت لـــه (الصداقة والصديق) ، (الإمتاع والمؤانسة) قرأت كثيرا عنه ، تتبعت أخباره في معجم الأدباء لياقوت ، وكافة المصادر المتاحة ، وبقى هذا الكتاب (المقابسات) ، الذى طبع في مصر عام ١٩٢٩ ، وحققه المرحوم حسن السندوبى عام ١٩٢٩ ، وخلال زيارتى لبغداد فى نوفمبر الماضى ، وفى شارع المتنبى ، حيث المكتبات العتيقة ، عثرت على نسخة وحيدة من طبعة مصر هذه ، نسخة فى حالة جيدة ، لم يقرأها أحد ، إذ أننى أفصل بين صفحاتها ، شعرت براحة ، وعدت إلى القاهرة لأضع الكتابين فى مكتبتى .. هذه المكتبة التى تزدحم بالكتب يوما بعد يوم،وكلما تطلعت إلى زحام الكتب ، أتساءل : هل يتبقى من العمر مايكفى لكى أقرأ هذا كله ؟

طريق حلوان

.. فى كل يوم أعود فيه عصرا إلى البيت اختلس النظر حذرا من عند الناصية ، أرى السيارة فيهدأ اضطرابى ، إذن .. وصل الأولاد إلى البيت ، يوميا يقطعون الطريق من حلوان إلى المعادى حيث المدرسة ، وفى ذهابهم وفى إيابهم يتمدد قلبى عبر هذا الطريق الذى أصبح بحق طريقا للرعب ، مامن يوم إلا ونرى عبر سيارة الأخبار التى تنقلنا إلى الجريدة ومنها حوادث مرعبة لاندرى كيف وقعت ، ولايمكن لخيالنا أن يدرك الظروف التى أدت إليها ، الحوادث يومية ، وفظيعة ، والسبب هو عدم وجود أدنى نوع من الرقابة عليه ، تتسابق عربات الميكروباس فى سرعة جنونية ، تتمايل عربات النقل الهائلة ، لاجندى مرور ، لاراكبو دراجات بخارية ، ويمكن القول إن الطريق بعد مصر القديمة وحتى حلوان لايخضع لأى نوع من تنظيم المرور ، وإحصائيات الحوادث عليه تثبت مايتم به من فوضى ، أرجو من المسئولين

تشديد الرقابة على هذا الطريق الذى أصبح بحق وسيلة فعالة للحد من التزايد السكانى !

رسالة من قارئة

قرأت يومياتك بعنوان " ذلك رجع بعيد " ، تأثرت بكلماتك ، أكتب إليك لتشاركنى مشاعرى تجاه أمى ، فنحن نشترك فى إحساس واحد ، هو فقد الأم ، منذ ست سنوات أصبح وضعى مشابها لوضع شقيقتك ، حملت مسئولية الأسرة مع أنى أصغر أفرادها ، بعد وفاة والدى تحملت أمى مسئوليتنا جميعا ، لم تشعرنا بأى قصور أونقص ، ظلت هكذا عدة سنوات بعد وفاة الأب ، غير أنها لم تحتمل ، وافاها الأجل ، رحلت حزنا على والدى ، كنت فى وقتها فى بداية حياتى العملية بعد تخرجى فى الجامعة .. كنت أعمل بالقاهرة ، والأسرة تقيم فى محافظة أخرى ، انتقلت إلى بلدتنا ليظل البيت الكبير مفتوحا تماما كما تمارس شقيقتك دورها الآن ، غير أن الفارق بينى وبينها أنها تعيش وسط اخوة متعاونين ، متفاهمين ، هذا مابدا واضحا من خلال كلماتك ، نحن للأسف أصبحنا غير ذلك ، استمرت مسئوليتى تجاه البيت لمدة ست سنوات إلى أن تخرج أخى الأصغر ، وبدلا من اعترافهم بماقمت به ، أنكرونى ، تجاهلونى ، انصرف كل منهم إلى مشاغله وهمومه الخاصة ، الآن .. تخطيت الثلاثين من عمرى بعامين ، بالرغم من أن مظهرى يوحى أننى أصغر من ذلك ، كانت أمى كما عبرت أنت بإحساسك وقلمك " سقف البيت وتعريشته التى تظله ، واللبلابة التى ترطب أيامه ، والجناح الذى يبسط علينا أمنه ، والندى الذى ينعشه .. كانت العصب " !

لقد كنت أكثر إخوتى تأثرا بفقدها ، لقد تعود منى الجميع التضحية،

تعـودوا أن أحل لهم مـشكلاتهم دون أن يصـغـوا إلى مـشكلة تخـصنى ، تعـودوا أن يجدوا العـون منى دائـما ، ولاكلمـة شكر حتى ، كـان هذا أمـراً مفروغاً منه ، كأنى الأم الثانية لهم ، حتى شقيقاتى المتزوجات يعاملننى بهـذا المنطق الذى اعـتـدته ، ورغـمـا عنى ، أوبرضـائى ، تناسيت حيـاتى الخاصـة- عن رضا - فى غـمـرة إحـساسى بانتـمـائى لحـيـاتى الأسرية وسط إخوتى ، هل تتـصـور أنهم لايذكرون على الإطلاق ذكرى والدتى ، وفى كل عـام أنبـهـهـم إلى ذلك .. أرتب كل شئ .. لقـد أديت رسـالتـى بتـخـرج آخـر إخوتى هذا العام ، أصبح لكل منهم حياته ، وأشعر الآن أننى أواجه الحياة بمفردى ، وأن العـمـر يمضى ، وأن الأوان يفـوت ، أسأل نفـسى أحيـانا ، هل أخطأت حينما أنكرت على نفـسى أن أعـيش حياتى مثلهم جميـعا ؟ هل سأجد فى السنوات القـادمة تعـويضا لما فـات ؟ لم أقصد بهذه التساؤلات أن تجيب على ، إنماهى سطور كنت أود الإفـضـاء بهـا إلى من شعـرت بصـدق إحساسه وكلماته .

زينب - الدقهلية

ابريـــــل ١٩٨٦

علـــى الطـــريق

.. ولى زمن الحميمية ، هذا مالا أشك فيه ، يتباعد الأصدقاء ، وأحيانا تتقوقع الذوات فى جزر معزولة ، متنائية ، يقولون إن الشباب يبدأ غروبه فى نهاية ثلاثينيات العمر ، ولكنى أشعر أن مرحلة شبابى أذنت بأفول منذ عام ١٩٧٠ ، عبر الأعوام التى تلت ذلك تكاثفت الهموم ، وتراكمت الأكدار، وشحت لحظات الفرح ، والتواصل الإنسانى الحقيقى إلافيما ندر .

كنا نسهر فى مقهى الفيشاوى ، نقضى الليالى فى حيوية ، ونقاشات لاتنتهى ، وخلافات ،واتفاق ، حتى إذا دنا الفجر قمنا لنجول فى حوارى الجمالية القديمة ، حتى إذا طلع علينا الصبح سعينا إلى أعمالنا ، ممتلئين حيوية ونشاطا ، كأننا لم نقض الليل كله فى سهر ، أحيانا كنت أقضى أياما ثلاثة بدون نوم ، أسافر إلى الإسماعيلية أوالسويس ، وأعود من الجبهة مشحونا بمشاعر شتى ، أقص على صحبى ماعانيت ، لم أكن أشكو تعبا ، ولانصبا ، وكنت أقرأ أكثر ، وأكتب أكثر ، ثم تتابعت الأيام ، وتباعدت المسافات ، وناءت أيامنا بما أعسرها وعكرها ، وشحبت علاقات كنت أظن أنها لن تبيد أبدا ، وحادت عن قصدها أحلام كانت تبدو فى المتناول ، أصبحنا الآن لانلتقى إلاعلى مسافات متباعدة ، صعوبة الاتصال عبر أطراف المدينة ، ربما كان هذا سببا ، أهو السعى وراء الرزق ، والخوف من

المجهول ، خاصة بعد أن أصبح جلنا أباء ومسئولين عن مصائر ، ربما ... بعد انتقالى من سكنى فى الجمالية اعتدت لسنوات متتالية المضى يومين على الأقل أسبوعيا إلى مرتعى ومرابعى التى قضيت فيها ثلاثين ولت من عمرى ، كان الانتقال ميسورا ، الآن يجب أن أخطط ، كيف سأصل ، أى مواصلة سأركب ؟ أما المشى الذى كان هوايتى ، خاصة فى شارعى الأزهر والموسكى فقد أصبح الآن مغامرة غير مأمونة العواقب مع اختفاء الأرصفة ، وتعاظم الزحام ، واختناق الشوارع .. نعم .. ولى زمن الحميمية ، ولكنى مازلت قادرا على استعادته كلما سنحت الفرصة ، فى نوفمبر الماضى عند سفرنا إلى مهرجان المربد الشعرى ، كنا نسهر كل ليلة حتى مطلع الفجر فى غرفة صديقى جلال السيد ، وفى الصباح نخرج إلى مكتبات بغداد ومقاهيها العتيقة ، مصطفى نبيل ، ويوسف القعيد ، وآخرون ، وفى قاعات المهرجان كنا نجلس متقاربين ، حتى قال القائل : المصريون جاءوا ليقعدوا مع بعضهم ! ، من هنا لا أدع فرصة كهذه تفلت حتى لوكانت قصيرة ، عندما اتصل بى الصديق يوسف القعيد صباح الخميس ، وأخبرنى أنه سيسافر غدا صباحا إلى قريته الضهرية بصحبة مصطفى نبيل وصديقنا حسين الحلاق المثقف والناشر السورى ، لم أتردد ، وافقت على الفور .

***

الجمعة :

.. على الطريق انطلقت السيارة ، قلت ليوسف : يبدو أننى سأكتب عن قريتك الضهرية ، قبل أن أكتب عن جهينة مسقط رأسى ، وطبعا أنت تستغل قربها من القاهرة ،مائة كيلو متر فقط ، لتصحب ضيوفنا إليها ، أما جهينة فنائية ، وصولنا إليها يقتضى عشر ساعات سفر ، ضحك قائلا :

هل تذكر أول مرة سافرنا فيها معا ؟ ، ابتسمت ، ياه .. كان ذلك منذ سبعة عشر عاما بصحبة إسماعيل العادلى وكان وقتئذٍ يعمل مذيعا ، لكم أسرع الزمن ! ، بعد اجتيازنا مدخل طريق الإسكندرية الزراعى ،وعند اقترابنا من طوخ ، قال يوسف : هذه بلدة اسمها طوخ ، قال مصطفى مستنكرا : هل تعتبرنا من السائحين ؟ ، قال : أنا أقول لحسين ، أقصد سيادة الوزير ، كان يشير إلى المنصب الوزارى الذى شغله حسين الحلاق فى أثناء الوحدة بين مصر وسوريا ، قال حسين : يا أخى هذا تاريخ ، ومع ذلك طوال الطريق لم يكف يوسف ، نحن الآن نجتاز حدود القليوبية ، سيادة الوزير .. نحن الآن نقترب من طنطا ، وعند قويسنا أشار إلى مبان يعرفها المسافرون جيدا ، قال ، إنه جزء من زمن الحرب ضد إسرائيل ، كانت حظائر للطائرات ، ولم يكن فى وسط هذا الجزء من الطريق مزروعات أوفاصل ، كان ممرات احتياطية قلت له : لاحظ أنك تفشى الآن أسرارا عسكرية ، وقال : كانت أسرارا يوما ما ..

* * *

.. يبدو أن سجائر حسين قلت ، توقفنا عند كشك لمحنا بداخله نوع السجائر الأجنبى المطلوب ، قال الشاب الذى يقف مرتديا سروالاقطنيا :

- نفس النوع يوجد منه صنفان ، الأول مصرى الصنع بدأ إنتاجه أخيرا ، والثانى مستورد ..

ثم قال :

- يعنى أصلى ..

راح حسين الحلاق يتأمل العلبتين ، أشار الشاب إلى تمغة الجمرك ،

مؤكدا أن الصنف مستورد ، كانت العلبة تزيد خمسين قرشا عن السجائر المصنوعة محليا ، ثم قال :

- أنصحك ألا تأخذ من المصرى .. الأجنبى أحسن .

راح يؤكد أن الإنتاج المصرى ردئ ، وأن طعم السيجارة " شايط " أما الأجنبى فياسلام ، رحت أتبادل النظر مع يوسف ومصطفى ، العلبة واحدة ، والشركة واحدة ،ولكن لهجة البائع هى الجديدة حتى على السلوك المصرى نفسه ، وماهذا إلانموذج فقط ، تذكرت المرحوم أمين الخولى عندما كان يحدثنا فى ندوة الأمناء عن ثورة ١٩١٩ ،وكيف أقبل المصريون على ارتداء الانتاج المحلى برغم بدائيته بالنسبة للإنتاج الإنجليزى وقتئذ ، أقبل المصريون على الصوف المصرى وأداروا ظهورهم للإنجليزى ، بل وحرضوا على عدم شرائه ، أما الآن ونحن نقترب من نهاية القرن ، وفى هذه النقطة من الريف المصرى ، فرحنا نصغى إلى الهجوم والتشهير الذى يشنه هذا البائع وماهو إلا ضحية لانقلاب القيم والسلوك ، ذلك الانقلاب الذى بدأ فى السبعينيات ، وأصبح جزءا من السلوك اليومى ، القرارات الاقتصادية قد تلغيها قرارات أخرى ، لكن التغير الذى يلحق بالقيم الإنسانية والمعانى ، هذا مايصعب تغييره إلا على مدى ، عدنا إلى السيارة ، وفى إحدى محطات البنزين بمدينة كفر الزيات أشار يوسف إلى شخص تجاوز الأربعين ، صافحه بحرارة ، ثم عاد إلينا ليقول :

- بلدياتى .. كان عنده نصف فدان واشترى عربة سوزوكى .. وجد ذلك أربح .. وكثيرون فعلوا مثله .

***

.. قبل اجتيازنا كوبرى كفر الزيات ، وعلى ضفتى النيل ، لمحنا مدافن

قمائن حرق الطوب تطلق دخانا كثيفا ، تساءلت : ألم يصدر قرار بمنع تجريف الأرض ؟ " ألا تتم الحملات بين الحين والحين لوقفه ، قال يوسف : إن هذا حقيقى ، والعقوبة شديدة ، ولكن كما ترى يتم ذلك جهارا نهارا ، التجريف نفسه يتم بالليل خفية ، أما عمل القمائن فيجرى على مدار الأربع والعشرين ساعة ، والحجة أن هناك مهلة أعطيت لأصحاب القمائن لاستنفاد ماالديهم من خامات ، تساءل حسين عن معنى التجريف ، بدأ مصطفى يشرح له كيف كان طمى النيل يتجدد فى كل عام ، ثم توقف بعد بناء السد العالى مما يعنى أن هذا الطين المنتزع من الأرض لن يعوض أبدا ، وبذلك يسهم الإنسان في التصحر ، وتحويل مصر إلى صحراء من أجل ربح محدود سريع قصير النظر .

نعبر الكوبرى ، بعد عدة كيلو مترات ، اتجه يوسف إلى طريق مرصوف قلت : إن هذا الطريق ليس الذى اعتدته ، قال ضاحكا : إننى أمر منه تحية لسيادة الوزير السابق ، قال حسين محتجًا : ياأخى بطّل .. أنا سايبك من ... الصبح ، قال يوسف : لامؤاخذة ياسيادة الوزير ، وضحكنا !

.. منذ سبعة عشر عاما ، كان المدخل إلى القرية محفوفا بالحقول ، المبانى زحفت ، والتهمت الأراضى ، كثيرون من الذين عادوا من البلاد العربية شرعوا فى بناء بيوت جديدة على حساب الأراضى الزراعية ،الحق أننى أسفت لاختفاء منظر الخضرة ، وتوارى الحقول ، كنا نقترب من قلب الضهرية ويوسف مستمر فى أداء دوره كمرشد سياحى والذى لم يكف عنه طوال الطريق ، فهذه القرية شهدت مولد المرحوم عبد المنعم الصاوى ، أما أحمد حمروش فمن هذه الناحية وشقيقه عمدة البلدة ، وهذا المسجد بنته سيدة ثرية تزوجت كويتيا .... إلخ ، عند مشارف البيوت أشار إلى بعض

الخيام المنصوبة فى العراء ، وقال إن هؤلاء هم ضحايا الحريق الضخم الذى التهم جانبا كبيرا من القرية فى العام الماضى ، وأنهم مازالوا يقيمون فى الخيام ، ثم قال : أرجو أن تنقل ذلك إلى الأستاذ مصطفى أمين ، فقد كان أول من سارع لنجدة المنكوبين ، ولكنه بالتأكيد لايعلم أن بعضهم مازال مقيما فى الخيام ، وكَلَيْت النظر بعيدا وأنا أفكر فى الشتاء الذى انقضى ، والأمطار ، وكيف مرت على ساكنى الخيام هؤلاء ؟ .

***

فى الطريق إلى البيت رأينا طابورا يقف أفراده متزاحمين أمام فتحة صغيرة في جدار ، استفسرت ، قال يوسف إنه الفرن الجديد ، ثم قال ، زمان من زمان قريب ، كان من العيب شراء الخبز من الأفران ، كان ذلك علامة فقر ، الآن تغيرت القيم ، صار معظم الناس يشترون الخبز والدواجن المثلجة .

***

أمام البيت كان والد يوسف في استقبالنا ، وأشقاؤه ، ملامح أعرفها جيدا ، جاء إلينا بعض الأصدقاء من البلدة ، سامى المدرس الذى لم أره منذ سبعة عشر عاما ، لقد تزوج ، وسافر إلى اليمن لمدة عامين ، إنه يميل الآن إلى بدانة ، أما شعر رأسه فقد امتلأ باللون الأبيض ، تجاوز الأربعين بقليل ، جاء الزميل طايل الشباشيرى ، كان يوسف يقدم صديقنا حسين الحلاق مبتسما ، ثم يؤكد أنه سيادة الوزير أيام الوحدة ، التفت مصطفى إلى حسين قائلا ، هو يريد أن يدرج فى تاريخ الضهرية أن وزيرا قد زار القرية ، ربما كان استمرار يوسف فى مداعباته هو الذى جعلنا نتحدث طويلا عن تلك السنوات البعيدة ، التى تبدو الآن نائية ، تحدثنا عن الثقافة

العربيـة ، عن ياسر عرفـات ، كنا نجلس متـمددين فوق السطح ،، والهـواء الأبريلي المنعش يلامـسنا ، وأصـوات الطيـور ، وحـفـيف الأشـجـار ، وكـان حديثنا صاخبا ، يفـيض بهـموم قريبة وبعيدة ، لمحنا صينيـة ضخمـة محملة بالفطيـر والجبن والقشـدة والعـسل واللحم ،والخضـار ، وخبـز أبيض عندمـا استقرت أمامنا قلت ليوسف مداعبا :

- الكميات قليلة .

قال ، انتظر ، تبعت الصينيـة الأولى صينية ثانية مـحملة بمالذ وطاب ، أكلنا وشربنا ، ثم خرجت إلى طرقات القرية ، إلى أصدقاء قدامى ، ومنهم سمعت ماأثار دهشتى .

* * *

.. المخدرات فى جميع القرى المجاورة متوافرة ، الحشيش ،والأقـراص ، الحشيش أصبح رخيصا ومتاحا بعد استقالة اللواء أحمد رشدى ، القرش نزل من أربعين جنيها إلى خمسة عشر ، القرص بجنيه ، فى مدينة قريبة يوجد ناد للفيديو ، النادى ملحق به صالة يؤدى إليها باب سرى ، بها مائتا مقعد، التذكرة مقابل خمسة جنيهات ، والمعروض ،أفلام جنسية تماما ، أكد لى أحد الأصدقاء أنه رأى العديد منها ويقوم ببطولتها أسمـاء معـروفة من فنانات عربيات ، قلت له إن هذا مونتاج متقن ، قال إنه لايصدق ، على أية حال ، لماذا لاتبحث النقابات الفنية ذلك الأمـر الخطير ، لكن مايعنينى ليس قيـام بعض الممثلات ببطولة هذه الأفـلام ، أو تزييـفها ، ولكن مايعنينى حقـا هو انتشارها فى الريف المصرى ، ومايتـبع ذلك من آثار مدمـرة ، آثار نفـسيـة واجتماعية .

عدت إلى البيت ، النهار يوشك على الانتهاء ، وكثيـرون من الأصدقاء

يصرون على استضافتنا ، ولكن الوقت المتبقى قليل ، والطريق طويل ، واليوم جمعة سيكون مزدحما ، من الأفضل أن نرحل حتى نقطع أطول مسافة في ضوء النهار .

* * *

ضوء النهار يخبو ، والضوء يغمق فوق الحقول التى لاأدرى إلى متى سوف تستمر حقولا خضراء قبل أن يلتهمها السرطان العمرانى ، أفكر فيما رأيناه ، فيما سمعته ،وفى القلب تتكسر النصال على النصال ، وتتعاظم الهموم بدلا من أن تتبدد .

مايــو ١٩٨٦

تنويعات .. واللحن واحد!

.. نداءات الباعة المصريين على بضائعهم مشهورة ، ومذكورة فى أكثر من مؤلف تاريخى ، أو جغرافى ، لفتت أنظار الرحالة والمهتمين بظواهر المجتمع ، كانت تصل فى بعض الأحيان إلى حد أن يدلل البائع بضاعته ، فيصف الفول المدمس باللوز ، والكتاكيت بالملاح ، وفى أحيان أخرى يغنى لما يبيعه ،وكثير من ألحان سيد درويش الجميلة مستوحى من نداءات الباعة. من منا لم تشجه "مليحة جوى .. الجلل الجناوى " ، غير أن مارأيته فى مترو حلوان كان أسلوبا جديدا ، فى إحدى المحطات طلع بائعان ، واحد من الباب الأمامى ، والثانى من الخلفى ، كل منهما يحمل علبة بها شيكولاتة ، الأول نحيل ، خفيف الحركة ، صاح :

- " ثلاثة بجنيه يابو العيال . "

وهنا نادى الثانى ،وهو ممتلىء قليلا :

- " ثلاثة بجنيه .. شيكولاته باللبن والجوز واللوز .. يابلاش .. "

عندئذ قال الأول النحيل وهو يتطلع ناحية الثانى:

- " الله .. هو الجدع ده طلع برضه .. "

سكت لحظة ، وصاح :

- " طيب أربعة بجنيه .. أربعة بجنيه .. "

هنا قال الثانى :

- " وبعدين بقى .. ده مش حيجيبها البر ... " ثم زعق :

- " أربعة بجنيـه .. أربعـة بجنيـه .. أنا حبيع بخسارة عشان الجدع ده .. "

هنا صاح الأول متحديا :

- " اشهدوا يارجالة .. خمسة بجنيه .. خمسة بجنيه .. أنالازم أقطع رجله من القطر .. "

قال الثانى مخاطبا الأول :

- " ياجدع ماتخربش بيتى .. كفاية بقى " .

هنا تلفت الأول حوله ، بريق عينيه يشتد . " شوفوا بقى ياجماعة ، حظكم النهارده .. ثم جعر بصوته : "

- " ستة .. ستة بجنيه .. "

بدا الثانى كأن كمدا أصابه ، انسحب إلى مؤخرة العربة حاملا علبته ، وبين الحين والحين يوجه سبابا إلى الأول ، فيجاوبه هذا بسباب مماثل ، راح الأول يصول ويجول فى العربة ، ملوحا بقطع الشيكولاته ، وكلما انتهى من بيعة نظر شزرا إلى الثانى الذى سكن تماما ، وقال مايعنى التحدى . توقف القطار فى محطة وادى حوف ،اقترب الأول من الثانى ، قال الثانى وهو يتأهب للنزول مع الأول :

- " شوف أنا حتصرف معاك إزاى ؟ "

جاوبه الأول بسباب ، عندئذ ضحك أحد الركاب .. قال :

- " هو فيلم ياجدعان ، ماتبطلواْ ضحك علينا .. "

قال آخر :

- " دلوقتى حيركبوا العربية الثانية مع بعض .. "

قال الثالث :

- " يعملوا إيه .. الرزق يحب الخفية " .

* * *

طريق حلوان :

ليلة السبتْ ، بدأ هطول الأمطار بعد يوم عاصف ، ورياح مثيرة للرمال ، زوجتى تقود السيارة بحذر ، كنا فى طريق العودة بعد حضورنا ندوة ثورة يوليو التى أقامتها دار المستقبل العربى للنشر ، تبدو السيارة مرتبكة ، حذرة ، بعد المعادى رأينا عربة نقل ضخمة انتقلت إلى الجانب المضاد ، اصطدمت بسور الكورنيش ، تحطمت مقدمتها تماما ، كانوا يحاولون إخراج السائق وشخص آخر ، اشتد المطر ، قرب طرة تمهلنا ، كانت سيارة حمراء تتوسط الطريق ، وثمة أشخاص يشيرون إلى السائق ويتصايحون ، اقتربنا بحذر ، كانت هيئتهم تنبئ أن شيئا جسيما قد حدث ، وعندما حاذينا السيارة الحمراء فوجئت بساقين عاريتين تبرزان من أسفل السيارة الحمراء ، بالضبط مابين العجلتين ، كان مشهدا كابوسيا مروعا ، لكنه لم يكن الأخير فى هذه الليلة الليلاء ، قبل المعصرة رأينا عربة تاكسى قد دخلت مقدمتها كلها تحت سيارة نقل ، تهشمت تماما ، حوادث كلها طازجة ، دامية ، فى فترة وجيزة لاتتجاوز دقائق معدودات ، تؤكد كلها أن طريق حلوان مازال

مزرعة للموت ، وأنه مامن رقابة أى رقابة مفروضة عليه ، لامن المرور ، ولامن الشرطة ، ولا أى جهة ، وقد كتبت من قبل عن هذا الطريق ، ونبهت إلى التجاوزات التى تحدث عليه ، ولكن مامن صدى وما من جهة أصغت ،ومامن رد ، ويبدو أن الكلمة قد فقدت فعاليتها وقيمتها فى واقعنا الذى يموج باللامعقول !

* * *

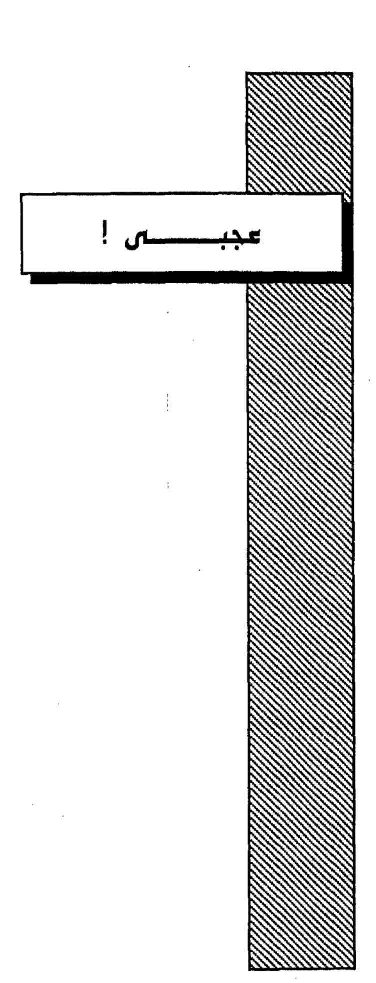
العودة إلى الذات :

.. خلال الأسبوع الأخير لايفارقنى هذا الكتاب ، " العودة إلى الذات " للدكتور على شريعتى أهم فيلسوف فى إيران قبل الثورة والذى أدت أفكاره إلى بلورة العديد من الأطر، انتهت حياته فى لندن على أيدى رجال السافاك الشاهنشاهى قبل قيام الثورة بشهور ، الكتاب ترجمه إلى اللغة العربية الدكتور إبراهيم الدسوقى شتا ، ترجمة حية ، دقيقة ، الكتاب يعبر عن كثير من القضايا التى أثيرت خلال السنوات الأخيرة خاصة فيما يتعلق بالمواجهة الحادة بين الشرق والغرب ، بين الأصالة والمعاصرة ، بين الدول الاستعمارية والمستعمرة ، بين العالم الأول والعالم الثالث ، محوره كيفية الحفاظ على الذات فى مواجهة حملة شرسة من التغريب المنظم الذى يستهدف طمس الهوية ، وإفقادنا الصلة بالجذور الحية يقول على شريعتى: إنه عندما كان عائدا من سويسرا إلى إيران زار تركيا بصحبة طالب تركى تعرف عليه فى الطريق ، وعندما دخلا استامبول رأى عرضا عسكريا ، وسأل شريعتى رفيقه : ما الخبر ؟ . فقال إن الجيش التركى يحتفل بمرور أربعين سنة على تأسيسه ، فقال شريعتى : أربعين قرنا ؟ ضحك الطالب وقال : لا .. أين عقلك ، أربعين سنة ، ثم راح يفسر له مفترضا أن صاحبه

يجهل التاريخ ، قال له إن الدولة التركية والجامعة والمؤسسات كلها أسست منذ أربعين سنة ، يقول على شريعتى : لم أستطع تحمله بعد ذلك .. وفررت من رفقة هذا المفكر الذى ينتسب إلى أمة حديثة الظهور ، حديثة العهد بالإنسانية ، يعود تاريخها إلى نصف عمر إنسان ، وكأن سماء القسطنطينية لاتزال تذكر آخر حادثة وهى بالنسبة لى كأنها حدثت بالأمس فحسب ، جيوش السلطان محمد الفاتح تدخل فى سنة ١٤٥٣ ميلادية من بوابات المدينة التى كانت قلب الإمبراطورية الشرقية وأعظم مراكز حضارة القرون الوسطى ، ويقول على شريعتى : إن هذا المهندس الذى تعلم فى سويسرا ، والذى سوف يصبح أستاذا فى الجامعة أو وزيرا للزراعة ، ومن صفوة الطبقة المفكرة فى مجتمعه لايدرى أن جيشه قد أسس بقيامه منذ ستة قرون بأعظم ملحمة عسكرية تاريخية صارت بداية لفصل من فصول التاريخ البشرى .

وما هذا المثل الذى يضربه المؤلف إلا نموذجا لأحد هؤلاء المتشبهين بالغرب ، وما ثقافته تلك إلا نموذج للقيم التى نجح الغرب فى ترسيخها داخل مثقفى الشرق والعالم الثالث، أولئك الذين انسلخوا عن جذورهم تحت وطأة التاريخ ، إن على شريعتى يشرح بالتفصيل كيف تتم هذه العملية كيف تدير الشعوب ظهورها لمشروباتها الوطنية وتقبل على الكوكاكولا والبيبسى كولا ، لايكتفى بطرح شعار العودة إلى الذات ، لكنه يجيب : كيف وإلى أى ذات نعود ؟ ، فى كل سطر من الكتاب بدا أنه يعبر عما أشعر به ، وكأنه يصوغ الإطار النظرى لأحاسيس ومفاهيم عديدة لم تكن متضحة أومتبلورة لى ، وسوف أعود إليه مرارا .

اغسطس ١٩٨٦



عجبـــــى !

أعيش هذه الأيام مع عمل فنى رائع وجميل ، تلك الرباعيات التى كتبها الفنان الكبير الراحل صلاح جاهين ، أى حكمة مصرية عجوز تكمن فى هذا الشعر الرقيق ، الذى جعلنى سيد مكاوى أعيد اكتشافه من جديد ، أى شجن وأى تأملات مصرية هادئة تكمن فى تلك الألحان الجميلة ، البديعة ، التى صاغ فيها سيد مكاوى تلك الرباعيات :

أوقات أفوق ويحل عنى غبايا
واشعر كأنى فهمت كل الخبايا
وأفتح شفايفى عشان حقول الدرر
ماأقولش غير حبة غزل فى الصبايا

عجبى !

أى أسى مبكر فى تلك الأشعار التى تعيد إلينا روح ابن عروس الشاعر المصرى ؟

لوفيه سلام فى الأرض وأمان وأمن
لوكان مافيش ولافقر ولاخوف وجبن
لويملك الإنسان مصير كل شئ

دا أنا كنـــت أجيـــب للدنيا ميت ألف ابن

عجبـــى !

كأن حكمة الشرق القديم تنبض في روح هذا الشعر، وذلك اللحن الجميل الشجى :

فتحت شـــباكى لشمـــس الصبـــــاح

مادخلـــش منـــه غيـــر عويل الرياح

وفتحـــت قلبـــى عشـــان أبوح بالألم

ماخرجش منه غير محبـــة وســـــماح

عجبـــى !

أى أحزان شفيفة أثارها ،وأى كوامن خفية قلبها ،

أنا قلبـــى كـــوره والفـــراوده أكم ؟

ياما اتنطـــح واتشـــاط وياما أتعكم

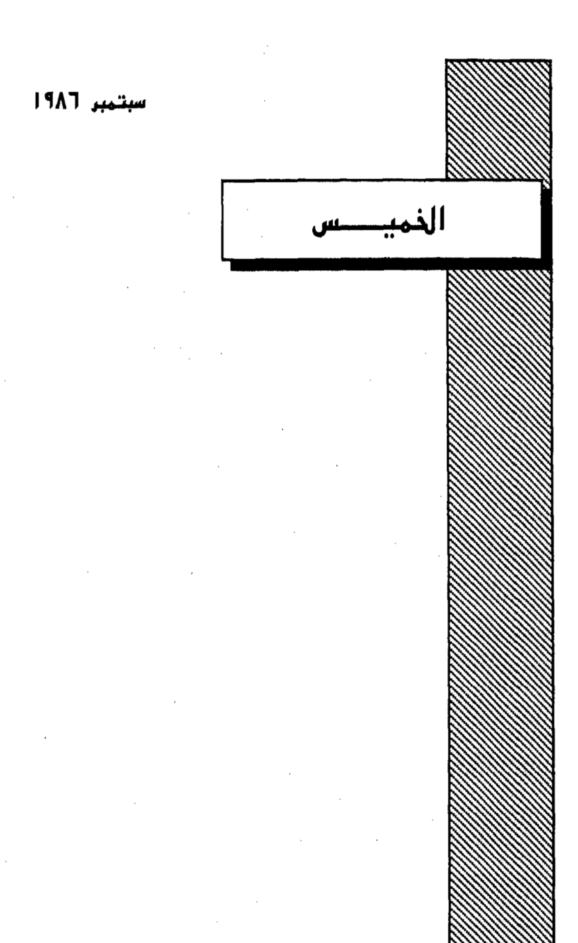
وأقـــول له كـــله حينتهـــى فى الميعـــاد

يقول لى دى ساعتك ولاســـاعة الحكـــم ؟

عجبـــى !

للفن الجميل سطوة ، ومقدرة على التطهر ، فما البال إذا كان هذا الفن نابعا من طين ذلك الوادى الذى ننتمى إليه ، وحكمة الشعب العريق الذى نحن منه ، وأسى شاعر عظيم بلغ قدرا من الحكمة فى عمر مبكر ، وموسيقار شجى الصوت ، فائض اللحن ، أدرك لب الشعر فصاغه أجمل صياغة وأبدعها .

سبتمبر ١٩٨٦



الخميـــس

.. المكالمة خارجية ، من بغداد ، فجأة بدأ الخط يضطرب ، سمعت علامة مشغول ، ثم بدأ صوت آخر فى التليفون . وضاع صوت محدثى ، أوظننت فى البداية أنه يصغى مثلى إلى مايجرى انتظارا لعودة المكالمة إلى حالتها الطبيعية ، صحت " آلو" ، ولكن المتحدث يبدو أنه لم يكن يسمعنى ، أضطررت للصمت لحظة ، لقد اتضح الصوت تماما ، إنها امرأة ، صوت حزين، متعب ، متباطئ ، صحت ، آلو .. ياست اخرجى من الخط .

لكن يبدو أنها لم تسمعنى ، كما أننى لم أستطع الإصغاء إلى صوت محدثها على الطرف الآخر ، كانت تقول :

"طول الوقت أنا قاعدة لوحدى "

وماحدش بيبجى لى .

ثم سكتت لحظة وقالت :

" أروح فين .. دى الدنيا مليانة ثلج ..

صحت مرة أخرى :

ـ ياست اقفلى الخط ..

ولكن يبدو أنه من المستحيل أن تسمعنى ، فالصوت آت من مكان

قصى ، ناء فى هذا العالم ، بلد فيه ثلوج الآن ، أى بلد هذا تعيش فيه المرأة ولايمكنها الخروج بسبب الثلوج ، بينما القيظ حولى يجعلنى أعرق وأضيق ، من أى مكان تتحدث فى هذا العالم ؟ ، أغلقت سماعة الهاتف ، عندما شعرت أن محدثى اختفى تماما من التليفون ، غير أننى رحت أفكر فى هذه المرأة ، ان صوتها يوحى بالنضج ، ليس فتيا ، وليس عجوزا ، كان حزينا جدا ، يقطر وحدة ، وإحساسًا بالعزلة ، والصوت في الهاتف يلخص أحوال صاحبه تماما ، ربما لأن الإنسان نفسه يتحول إلى صوت ، إلى رمز ، الهاتف مرشح جيد للمشاعر ، ترى من هى ؟ ، وأين تعيش ؟

ومن هم أولئك الذين لايسألون عنها ؟

مجرد جملتين سمعتهما عرضا ، وصدفة ، من مكالمة ضلت سبيلها عبر الأقمار الصناعية وعبر فضاءات هذا الكون ، جعلتنى أنشغل بمصير إنسان لا أعرفه ، وأعيش اليوم كله متطلعا إلى الألم ، والمجهول .

الجمعة سبتمبر ١٩٨٦

.. منذ شهور لم ألتق بأستاذى نجيب محفوظ ، هو لايذهب إلى الأهرام إلايوم الخميس ، وهذا يوم اعتدت أن أقضى صباحه فى البيت ، ومنذ بداية الصيف سافر إلى الإسكندرية ، منذ يومين اتصلت به ، قال لى إنه يسافر أسبوعا ، ويقضى فى القاهرة أسبوعا آخر ، إذن يمكننى أن أراه فى كازينو قصر النيل ، حيث يلتقى بصحبه ومريديه ، وهذه الندوة ماهى إلا امتداد لندوة الأوبرا ، التى بدأت فى الأربعينيات وتوقفت فى أوائل الستينيات ثم تنقلت بين عدة مقاه فى وسط المدينة حتى استقرت على النيل ، صحبت صديقى الفنان بهجت عثمان ، هو أيضا لم يلتق بنجيب محفوظ منذ فترة ، مع أنه أحد أفراد مجموعة الحرافيش التى لم ألتحق بها خلال علاقتى

الطويلة بأستاذنا الكبير ، والحرافيش انفرط عقدها بعد وفاة الأديب محمد عفيفى ، ورحيل صلاح جاهين ، ولم يتبق منها إلاعادل كامل الروائى القديم الذى هجر الأدب ، والفنان أحمد مظهر ، وبهجت عثمان ، والروائى الكبير ثروت أباظه .

فى القاعة المغلقة المطلة على النيل ، فى نفس المقعد ، يجلس نجيب محفوظ ، عدد من الأدباء والمثقفين يتحلقون حوله ، وجوه أعرفها من قديم، هارفى المحامى ، ومصطفى نصر الكاتب المسرحى ، ووجوه عديدة أخرى لشبان جدد يخطون فى أول الطريق . لو أن تاريخ هذه الندوة دُوِّنَ لكان سجلا أمينا لتطور الحياة الأدبية في القاهرة ، فكم من وجوه ظهرت ثم اختفت ، وكم من وجوه بقيت ، وكم من مناقشات أثيرت؟

نجيب محفوظ يبدو نحيلا ، لقد نقص وزنه ، قال إنه الحر ، ثم جلجلت ضحكته ذات الإيقاع الخاص :

- بسبب منع لحم الطاووس .. شايف أنا خسيت أزاى ؟؟

الحديث لاينتظم فى موضوع واحد ، يخضع للتداعى ، تحدثنا عن الأسعار ، عن الواقع الاقتصادى ، قلت إنه منذ عشرين عاما ، كنا نتحسر على الأسعار التى كانت سائدة قبل عشرين سنة أوخمسة وعشرين ،أما الآن فنقارن أسعار اليوم بالأسعار التى كانت منذ سنة واحدة ، أوستة شهور ، قال نجيب محفوظ : إن مرتبه قبل الحرب العالمية كان ثمانية جنيهات ، وكان يكفيه ويكفل له أمانا اقتصاديا ، كان يرسم خططه لفترات طويلة مقبلة ، وإذا حدثت طفرة هائلة كأن تجئ علاوة مقدارها خمسون قرشاً أوجنيه ، فإنه يعدل الوضع الى الأفضل ، وإذا لم تجئ فلاشئ يتغير ، الحديث مازال مستمرا عن الهموم اليومية ، أين موقع الأدب إذن ؟ . قال نجيب محفوظ :

إذا أردت أن تنظر إلى واقع الثقافة فانظر إلي موقعها فى حديثنا خلال هذه الجلسة .

منذ ربع قرن كان الحوار كله حول الثقافة ، حول القضايا الأدبية ، وفى كازينو الأوبرا كانت تناقش بعض الأعمال الأدبية ، ويثور جدل ، أما الآن فالحوار حول الأسعار والمواصلات وأحيانا .. الثقافة !

قلت هذا صحيح ، وأذكر أن بعض المناقشات كان يستمر ويتصل لأكثر من ندوة ، قال هارفى المحامى - وهو من أصدقاء محفوظ القدامى - :إنه يذكر رجلا عجوزا جدا مشى بعد انتهاء الندوة ليلحق بنجيب محفوظ ورجاه أن يتوقف معه قليلا ليناقشه فى موضوع الواقعية وكافكا ، لأنه يخشى أن يموت قبل الأسبوع القادم ، وألا يلحق مناقشة هذه النقطة معه .

ويضحك نجيب محفوظ .

لا أدرى كيف انتقل الحديث إلى مجلة فصول التى تصدر عن الهيئة العامة للكتاب ، والمتخصصة فى النقد الأدبى ، انتقد بعض الحاضرين جمودها واقتصارها على مدرسة نقدية واحدة ، هى البنيوية ، وهذه المدرسة انتهت من أوربا .

قال نجيب محفوظ : إن الدراسات فى فصول تبدو وكأنها ترجمة زمان .. كان طه حسين وزكى مبارك يستوعبان التيارات الحديثة فى أوربا ثم يقربانها من الجمهور فى مصر ، كانا جسرين حقيقيين بين الغرب والشرق ، ولكن القائمين على فصول يقدمون البنيوية كماهى ، وأنا شخصيا قرأت فى أحد الأعداد دراسة عن رواية لى ، كانت حافلة بالرسوم البيانية ، والخطوط الصاعدة والنازلة .. ولم أفهم شيئا .

قلت :إن أفضل شرح للبنيوية قدمته الدكتورة سيزا قاسم بدون أن تذكر كلمة واحدة عنها في دراستها الممتازة عن ثلاثية نجيب محفوظ ، لقد طبقت المنهج ولم تردده ..

قال نجيب محفوظ : هذا حقيقي ..

قال أحد الحاضرين : لقد فرحنا بمجلة فصول ، ولكنها تجمدت الآن ..

مرة أخرى تداعى الحديث ، دار حوار حول الجدل القائم حول أحد البنوك وعدنا مرة أخرى إلى الأزمة الاقتصادية ، إلى الديون ، وخلال هذا كله لم يتوقف كاتبنا الكبير عن إطلاق قفشاته التى تنم عن سرعة خاطر مذهلة ، وروح مصرية ساخرة .

الثامنة والنصف تماما ..

قام نجيب محفوظ ، إنها الساعة الداخلية التى لاتخطئ أبدا ، انصرفنا بعد ذهابه ، انفرط عقد الجالسين ، وخرجت بصحبة صديقى بهجت إلى شوارع القاهرة الليلية ، وكل منا يشعر أنه بدد بعضا مما كان عنده من اكتئاب ، وإحساس بالوحدة . . وهذا بعض من تأثير النظام فينا !

الجمعة مساء

.. بائع الفاكهة يفترش الرصيف ، أقفاص العنب ، المانجو ، التين ، لم تكن هناك لافتات تعلن عن الأسعار ، اقتربت من البائع الملتحى .

- أثنين كيلو عنب من فضلك ..

تطلع الىّ ، قال ونبرة صوته فيها تحذير خفى :

- الكيلو بجنيه ونصف ..

سكت لحظة ، يبدو أن مظهرى لاينبئ أننى قادر على دفع المبلغ ، أو أننى سأفاصل ، وأسبب له وجع الدماغ ، وتذكرت وقفتى أمام فاكهى آخر ، كنت أنتظر دورى ، عندما اقترب منى رجل يمسك بيد طفلة صغيرة ، سألنى هامسا عن سعر الكيلو ، لم يكن هناك أسعار معلنة أيضا ، كان الرجل حذراً ، يريد أن يكتشف مواضع قدميه قبل أن يخطو ، واعتذرت له لأننى كنت أجهل السعر . فابتعد عنى وسأل زبونا آخر ، كان خجله يمنعه أن يتجه مباشرة بالسؤال الى البائع ، عندما أصغيت الى صوت البائع الذى يحذرنى، وعدم مبالاته بى ، انتابنى خجل خفى ، ولكن تغلبت علىّ روح العبث ، قلت له :

- مش كثير جنيه ونصف ؟.

فى هذه اللحظة وصل شاب ، يرتدى قميصا وبنطلونا بدون حزام ، وفى

يديه آثار عمل يدوى ، قال بلهجة أولاد البلد :

- ها .. ماأخبار المانجو ؟

ابتسم البائع الملتحى ، يبدو أنه يعرف زبائنه جيدا :

- أكسترا ..

- بكم ؟

- بخمسة جنيه .

أشار الشاب بيده ، اللامبالاة واضحة فى تصرفاته :

- إوزن ستة ..

بدأ البائع فى تنقية الثمار ، والشاب يقف ملامسا خصره بأصابع يديه ، وعندما استدرت منصرفا فى صمت ، كان يقول :

- لأ .. بلاش دى بأه ..

خـده مـعاه ..

سبتمبر ١٩٨٦

قابلته ..

فى أحد شوارع القاهرة ، كان يبدو متأففا ، كدرا ، ظهرت عليه أعراض المسئولية ، هذه الملامح التى تبدو على البعض بعد ممارسته المسئولية فترة طويلة . مع الشعور القوى بالموقع ، وعلى الرغم من أننى حاولت أن أمضى في طريقى ، إلاأنه لمحنى ، وأقبل على مصافحا ، وفى مثل هذه اللقاءات تكون العبارات تقليدية ، مكررة :

- فينك باراجل

- ليه مابتسألشى

- والله الدنيا مشاغل ..

- خلينا نشوفك

وقد يحدث تبادل للعناوين ، وأرقام الهاتف ، ثم يمضى كل فى طريق ، وقد لايقع لقاء آخر أبدا .

غير أننى بعد أن فارقته ، رحت أفكر فيه ، وأستعيد أيام أن عرفته ، بينما يتردد تعبير فى ذهنى ..

"خده معاه" ..

عرفته فى بداية الستينيات ، كان رئيسا لأحد الأقسام بتلك المؤسسة التى كانت جزءاً من القطاع العام فى ذلك الوقت . كان نشيطا وقتئذ ، ومما عرف عنه أنه على علاقة قوية برئيس المؤسسة ، وأنه يمكنه الدخول عليه بدون استئذان السكرتير ، كما يمكنه الاتصال به على التليفون المباشر ، وأحيانا يتوسط لحل بعض مشاكل العاملين .

ثم أصبح رئيس مجلس الإدارة وكيلا لإحدى الوزارات ولم يمض وقت طويل حتى ..

خده معاه ..

وأصبح الشاب النشيط ذامركز مرموق فى الوزارة وكلما ترقى الرجل في سلالم المسئولية .

خده معاه ..

وبدأت رحلة صعود الشاب الذى أصبح فى خريف العمر الآن ، وعندما قابلته كان يشغل منصب وكيل أول إحدى الوزارات منذ فترة ، ولاأدرى أين هو الآن ، فقد غابت أخباره عنى ..

ويبدو أن منطق " خده معاه " منطق تاريخى ، عالمى ينطبق على كل الفترات ، وكل المجتمعات ، وكل النظم السياسية .

فعندما كان سلاطين المماليك يتولون الحكم ، كان السلطان يعين (خشداشه) أى صديقه فى أقرب المناصب ، هذا إذا لم يكن ابنه أوأخاه طبعا ، أى باختصار ..

ياخده معاه ..

أيضا لايتولى المناصب إلامن يعرفه ، ولكم تحفل حوليات التاريخ

المصرى ، والعربى بمن كانوا مجهولين ، أو أقل كفاءة ، ثم أسعدهم الحظ بوجود من أخذهم معه . أى إلى أعلى ، إلى السلطة .

فى التاريخ القريب سنجد أيضا الحكام فى الشرق والغرب يسلكون نفس المسلك ، أحيانا أقرأ تعبيرات مثل مجموعة (كاليفورنيا) ، أى المقربين من ريجان ، لأنه قضى سنوات عديدة حاكما لولاية كاليفورنيا .

أوعبارة (مجموعة سيبيريا) أى الرجال الذين كانوا يعملون مع جورباتشوف عندما كان مسئولا فى سيبيريا .

إن تحليلا سريعا للأشخاص الذين يتولون المسئولية فى شتى دول العالم ، سيؤكد منطق " خده معاه "

أما بالنسبة لمن كان مثلنا ، لم يدن من صاحب سلطان يوما ، ولاذى نفوذ ، فلا يوجد أدنى احتمال لكى ياخذنا أحد معاه !

السبت :

شفى الله الحاج فتحى ..

عدت من السفر لأجد من يخبرنى أنه يرقد فى المستشفى وأنه فى حالة خطرة ، وأن خراطيم عديدة تتصل بجسده ، وأن عملية جراحية كبرى قد اجريت له .

سبحان الله وقد ودعنى قبل سفرى ، ولم يكن يبد عليه أي شئ .

الحاج فتحى أحد موظفى استعلامات الأخبار واحد من المصريين البسطاء الذين تراهم فيوجد انطباع لديك على الفور " طيب " بتكوينه الجسدى الممتلئ قليلا وعيناه الوديعتان ، وابتسامته الودودة ، كان يستقبلنى صباحا بابتسامة ، ويفارق مقعده لكى يصافحنى ، ونتبادل حديثا سريعا ،

موجزا ، ثم يسألنى عن القادمين اليوم لزيارتى ، وعندما أخبره باسم زائر يشعر أننى أهتم به اهتماما خاصا ، أفاجأ به فى الموعد يصحبه حتى مكتبى ، ويرفض بشدة دعوتى له للجلوس .

عند علمه بسفرى ، كان يحتفظ بيدى بين يديه ويردد وأرد هذين الشطرين :

- لا إله الا الله ..

- سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام رسول الله ..

لم ينقطع ذلك قط . وعندما علم أننى مسافر إلى الحجاز منذ عامين وأننى سوف أؤدى العمرة ، طلب منى أن أحضر له مصحفا شريفا .

كان يوقفنى أحيانا ويحنان لم أر مثله يطلعنى على صورة صغيريه ، ويخبرنى بما يفعلانه الآن ، بنطقهم لبعض الألفاظ ، بمشى الصغير بضع خطوات ..

كانت أبوته الفياضة تتجسد حتى تكاد تراها تسعى . فالحاج فتحى أنجب بعد سنوات طويلة من الانتظار ، بعد عشر سنوات إن صحت ذاكرتي .

وهو الآن أب لطفلين ..

ربى ..

اشفه من أجل صغاره الذين طال انتظاره لهما ، ومازالا بعد براعم خضراء فى حاجة إلى حنان الأب !

نوفمبر ١٩٨٦

العلم كثير .. والعمر قصير !

السبت:

.. بعد انصرافها تركت ظلا قويا لحضورها ، لا أدرى البواعث التى جعلتنى أفكر فيها ، وفى ظروفها ، ربما لأنها ليست وحيدة ، وأن مثلها المئات ، بل الآلاف في مجتمعنا الآن ، ربما لأنى رصدت حزنا غامقا فى عينيها ، حزنا مقيما ، وربما لأنى لاحظت بقوة آثارا تنبئ بتقدمها فى العمر .

تلك العلامات التى لايدرى الإنسان متى تتكون ، غير أنها تباغته فجأة ، فلاراد عندئذ ولامهرب ، هى ابنة ناس طيبين ، خاض والدها معركة بطولية فى خضم الحياة ، حتى تمكن من تعليم أبنائه الثلاثة تعليما جامعيا ، وما أن أتم رسالته حتى رحل ،منذ ثلاثين عاما ،كانت قيمة العلم هى السائدة ، وكان دعاء الأم لابنها " نفسى أشوفك واخد الشهادة الكبيرة " ، تعنى الدكتوراه ، كانت القيم أيضا هى الشرف ، تجنب الكذب ، الرشوة ، وبالنسبة للأسر رقيقة الحال أوالمتوسطة ، كان حصول البنت على شهادة جامعية يعنى تدعيم موقفها الاقتصادى ، والاجتماعى ،رحلة طويلة قطعتها صاحبتنا حتى تخرجت فى الجامعة بطبعها هى خجول ، تحمل قيم الأسرة المصرية ، لاأدرى المشاعر التى انتابتها أومرت بها خلال سنوات

مراهقتها ، ربما خفق قلبها بحب ما لكنها لم تعبر ، ربما طافت بها مشاعر مبهمة لكنها لم تترجم إلى علاقة ، لم تكن مثل هؤلاء الفتيات اللواتى يمكنهن إقامة علاقات ،أوخوض علاقة تنتهى بزواج ، وقد لاتنتهى .

كان مطلوبا منها أن تتفوق فى الدراسة ، وقد تفوقت ، منذ طفولتها رضعت قيم الأصالة والمحافظة والشرف ، والحق أنها التزمت ، حتى تخرجت فى الجامعة ، كلية التجارة ، مؤهل مرغوب ، ولكن السكك المؤدية إلى إحدى تلك الوظائف ذات المرتب المرتفع في شركة انفتاحية ، أوبنك انفتاحى، تجهلها هى ، ومامن قريب له دراية ، انتظرت القوى العاملة عامين ، والتحقت بأحد البنوك الحكومية ، فارق شاسع بين الواقع الذى بدأت فيه دراستها ، والواقع الذى بدأ يتغير بسرعة رهيبة عند تخرجها فى الجامعة ، المرتب الذى كان يفى بحاجة أسرة كاملة فى الستينيات لم يعد قادرا على سد الحاجات اليومية البسيطة ، فماذا عن تأسيس بيت ؟ ، ماذا لو تقدم عريس للزواج ؟ ، مامن دخل للأسرة إلامايتقاضونه من مرتبات ، مامن أرض زراعية ، أومنزل ملك ، أورصيد فى البنك ، لم يكن لديهم إلا الجد المشروع والاجتهاد ،الجد المشروع ، ضاقت به الظروف في زمان الفهلوة ، والثروات التى تتكون بطرق غامضة ، مضى العمر بطيئا ، ممتازة هى في عملها ، مثالية ، لكن المستقبل يزداد غموضا ، لكى تحصل على شقة ، أولكى يحصل أحد أشقائها على شقة ليتزوج ، كم سيدفع ؟ . معظم الشقق للتمليك ، ولو ادخروا هم الثلاثة مجتمعين مايتقاضونه بدون أن ينفقوا مليما واحداً لمدة عشرين سنة فلن يقدروا على دفع مقدم شقة ، إنها تزداد انطواء ، هى بحكم التربية والموروث غير قادرة حتى على الاستجابة لعلاقة قد تنتهى بزواج ، أحد من الأقارب لم يتقدم ، كانت تردد بينها وبين نفسها ، إنه سوء البخت ، زمان كانت الخاطبة تحل العديد من المشاكل ، لكن

لم يعد لها مكان فى الحياة المعاصرة ، أيضا فإن إيقاع الحياة سريع جدا ، والأسعار تتضاعف ، توفير الملابس أصبح مشكلة ، أصبحت أكثر عصبية تغلق الباب وتستسلم لنوبات بكاء مفاجئة ، إنها أيضا أشد انطواء ، كذلك بدأت المتاعب النفسية المصاحبة للقلق والتقدم فى العمر تتحول إلى اضطرابات مرضية ، بقع تظهر ثم تختفى ، نوبات مغص ، لقد انقضت السنوات بسرعة ، بسهولة مذهلة مرت الأوقات ، تدنو هى الآن من الخامسة والثلاثين ، بعد سنوات معدودات حتى لوتزوجت فى هذه السن لن يمكنها إنجاب طفل ، لو أن الظروف طاوعت فى حدها الأدنى لكانت ربة أسرة صغيرة الآن ، لكن قمعت رغباتها ، لكم حاصرت تفتح إنسانيتها ، مازلت أفكر فيها بعد انصرافها فى مثيلاتها ، فى اللواتى تخطين الثلاثين وهن بعد بلازواج ، وبلا أمل فى تكوين أسرة ، الشابات والشبان ، هؤلاء هم الضحايا الحقيقيون للعواصف التى اجتاحت مجتمعنا ، وكم هى قادرة تلك الظروف على تغييرالإنسان ..

* * *

الأحد :

.. أقضى اليوم في البيت ، بمفردى ، الأولاد فى المدارس ، والزوجة فى عملها ، البيت مسكون بالضوء الشتوى ، بالشتاء الذى نزل فجأة ، مع قدومه ينتابنى حماس وتتجدد طاقات داخلى ، وكان ربيعنا هو هذا ، أتامل رفوف المكتبة ، أرتب بعض الكتب ، أتوقف ، أتامل المجلدات المتجاورة ، عندى علاقة بكل منها ، وترتيبها يخضع لدرجة الحميمية التى تربطنى بها ، فوق رأسى مباشرة أربعة رفوف أصف فوقها تلك الأعمال التى تشكل حجر الزاوية في تكوينى الوجدانى ، القرآن الكريم ، الفتوحات المكية ، بدائع

الزهور ، حوليات التاريخ المصرى بدءا من فتوح مصر لابن عبد الحكم وحتى الجبرتى ، الأعمال الكاملة لدستوفيسكى ، لتولستوى ، لتشيكوف ، موبى ديك ، لهيرمان ميلفيل ، جسر على نهر درينا لاينواندريتش ، أعمال كافكا ، صحراء التتار لديفوبوتزانى ، العالم ١٩٨٤ لأورويل ، البحث عن الزمن الضائع لبروست ، تتجول عيناى في أرجاء المكتبة ، فى الأعوام العشرين الأخيرة ركزت على اقتناء المصادر الأساسية خاصة فى التراث العربى ، الكتب كثيرة جدا ، وفى مطلع النهار الشتوى الهادئ ينتابنى حزن شفيف ، وضيق أيضا ، ماأريد أن أقرأه كثير ، بلاحصر ، والعمر مهما طال قصير ، فهل سيكفي ماتبقى لاستيعاب هذا كله ؟ ، أذكر قول أحد المتصوفة الكبار : العلم كثير والعمر قصير ، ومامضى لايمكن استعادته ، وماسيأتى قدلايصل الإنسان إليه ، لهذا أنا فى صراع دائم ومرير كى أمتلك وقتى ، إنه الشئ الوحيد الذى لايستعيده المرء أبدا إذا بدده ،وهذا لب القضية .

* * *

الاثنين :

.. منذ سنوات يتردد داخلى سؤال ، لماذا لم تظهر أغنية وطنية تهز الأعماق منا ؟ الأغانى التى انبعثت خلال العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ ماتزال تهز النفس ، وتثير الحنين ، والشجن الرقيق بقدر ماتبعث فينا الأحاسيس الوطنية بدءا من نشيد " الله أكبر " و " الله زمان ياسلاحى " للعظيمة أم كلثوم التى تولد فى كل سنة من جديد خلال فنها الراقى الذى لم تطل قامته مايوازيه مرورا بأغنية شادية " أمانة عليك أمانة يامسافر بورسعيد " و " ياسايق الغليون " لمحمد عبد المطلب ، و"نعيش لمصر " لنجاح

سلام ، حتى أغانى مرحلة الأحلام الوطنية الرائعة التى أجهضت ووئدت عام ١٩٦٧ ، هذا تراث فنى خصب كلما استمعت إليه الآن يتفجر الحنين والأسى ،والرغبة فى عناق المجهول ، والحزن على مافات .

دائما كنت أتساءل : لماذا لم تنتج السنوات الأخيرة أغنية وطنية تلمس أوتار النفس ، مع العلم أن معظم الأغانى تردد اسم مصر بشكل يفرغه من مضمونه ، الإجابة وجدتها فيما كشف عنه الكاتب الكبير أحمد رجب ، ماأقدم عليه بعض العاملين في تقديم الأغانى ، بتركيب لحن وكلمات أغنية كانت معدة بمناسبة طهور ابنة أحد النفطيين ، على أغنية فى حب مصر ، ثم جاء تحقيق الأستاذ موسى صبرى الذى نشره في يومياته بآخر ساعة ،والذى أعده من أفضل التحقيقات الصحفية التى نشرت فى الصحافة العربية ، جاء ليحمل عددا من المفاجآت التى ذهلت لها ،ماأقدم عليه هؤلاء غش مهول ، فقد عشنا زمن الفراخ الفاسدة ، والأطعمة الخاصة بالكلاب تقدم إلى الآدميين وامتد ذلك إلى الفن ، فى أثناء عملى فى الجبهة ، كان رجال المدفعية يطلقون تعبير ، منطقة القتل ، على النطاق المؤكد للقذيفة عندما تنفجر ثمة دائرة معينة كل من يتواجد فيها محكوم عليه بالقتل ، إننى أعتبر الإبداع عندى مثل هذه الدائرة ، كل من يقترب منها معرض للقتل ، مال ، سلطة ، نفوذ ، امرأة .. إلخ ، وماجهدى كله إلا للحفاظ على هذه الدائرة .

رحم الله الراحل الكبير عبد الحليم حافظ ، فى أخريات حياته جرى معه حوار تليفزيونى أذكر منه عبارة واحدة ، " أنا حريص على تقديم فن مافيهوش غش للناس " ، ولم أتصور أن الغش يتسرب إلى مايتغنى باسم الوطن ، فأى ضمائر ماتت ، وأى رموز هوت ؟

الجمعة :

.. استيقظت وألم قبيح فى معدتى ، كأنى ابتعلت علبة دبابيس ، كنت أمشى منحنيا ،ومع ذلك تحاملت واتكأت على عصا أكره استخدامها ، اذ أنها مرتبطة عندى بفترة مرض ، لقد وعدت ابني برحلة إلى معرض القوات الجوية ، والجمعة القادم سوف يكون المعرض قد انتهى ، إنه ينتظره من العام إلى العام ، كما أننى أجد متعة فى زيارته ، أستعيد بعضا من ذكريات غالية تنتمى إلى ذروة عملى الصحفى عندما عملت مراسلا حربيا للأخبار ، مضينا إلى مطار ألماظة ، والغريب أننى فى الطريق رصدت نأى الألم ، إننى حريص أيضا على متابعة نموقواتنا الجوية وتقدمها ، المعرض في عمومه رائع ، رجال القوات الجوية يستقبلون المواطنين بترحيب حقيقى وود رائع ، وصبر جميل ، يردون على أسئلة الأطفال والكبار ، ضباط يحملون الصغار ليطلوا مبهورين على داخل الطائرات ، عروض سينمائية ، ودوائر تليفزيونية مغلقة ، قالت زوجتى : إن السيارات الواقفة أمام المطار ،كلها متواضعة الطراز ، سيارات أسر متوسطة أودون المتوسطة ، مامن عربات فاخرة كتلك التى نشاهدها أمام الفنادق ذات الخمس نجوم ، أوالمطاعم ذات السبعة ، وهذا يوضح نوعية المترددين على المعرض ، إضافة الى البسطاء الذين جاءوا سعيا على الأقدام ، لمحت أبا منهم يصحب أطفاله ، كان أصغرهم يرتدى حلة ضابط صفراء ، وعلى الكتفين نجوم صغيرة مذهبة ، علاقة نادرة وحميمية حقيقية بين الجيش والشعب الذى جاء منه هذا الجيش الوطنى العظيم ، الجديد بالنسبة لما فى المعرض هذا العام إلى جانب الميراج ألفين ، والأجهزة الحديثة ، الجديد والأهم هو الإنسان ، شاب في العشرينات عندما اقترينا منه فى جناح الإشارة ، قابلنا بابتسامة ، قدم إلينا نفسه :

- مساعد فنى ممدوح مصطفى بدوى .

كان يقف أمام منضدة فوقها ثلاثة أجهزة من اختراعه هو ، جهاز الكترونى للتحكم فى الإضاءة ، وبالتالى ترشيدها ، أى يطفأ المصابيح تلقائيا مع مجئ ضوء النهار ، هذا الجهاز كان يستورد من الخارج ، صنعه كاملا بإمكانيات مصرية ومحلية ، جهاز آخر للإنذار الإلكترونى ضد السطو والتسلل يستخدم فى حراسة المطارات والمنشآت ، اختراع مصرى مائة فى المائة .

الجهاز الثالث الأكثر تعقيدا ، جهاز لتشخيص أمراض القلب عن طريق الترددات الصوتية الخاصة بالقلب ، وتحويل دقات القلب إلى إشارات لاسلكية ، وبالتالى يمكن إبلاغ المركز الطبى بحالة المريض قبل الوصول إليه وهذا يوفر وقتا ، ممدوح مقيم فى طنطا ، يعاونه صديقان له ، الدكتور مجدى يوسف يعقوب والدكتور إبراهيم حته ، ولديه من الأفكار الكثير ، قائد القوات الجوية شجعه وسمح له بعرض ماأنجزه في المعرض ، وعن قريب سيصدر قرار بإنتاج هذه المخترعات على نطاق واسع ، فى قلب الدلتا يقيم ممدوح ، يجهد ذهنه ،ويتابع مايصدر في العالم على قدر إمكانياته ، ويطلب المساعدة من هذا ومن ذاك ، ثم يقدم الجديد، وأمثال ممدوح هذا كثيرون فى ربوع مصر ، وبأمثاله أيضا ، ومن حيويتهم ، ونقائهم ، يستمر بلدنا متماسكا ، ومعطاء برغم وعورة الظروف ، في المعرض التقيت بوجوه أعرف أصحابها ، كان اللقاء وديا وحارا ، وعندما خرجت مع أسرتى إلى الطريق ، كان الألم الذى صحوت به متواريا ، لم يكن قد تلاشى ، ولكننى قادر على قمعه .. وتجاوزه .

أين زمان الحميمية ؟

نوفمبر ١٩٨٦

الاثنين :

.. فجأة تداخلت خطوط الهاتف ، أزيز أصوات بعيدة تتحدث ، علامة مشغول ، في انتظار الحرارة أصغيت ، فجأة طفا من خلال الضجيج صوت طفل صغير ، صوت مازال في مقتبل العمر ، لم أتبين ملامحه تماما ، كان يسألني : حضرتك مين ؟

استفسرت منه ، إلى من يريد أن يتحدث هو ؟ جاءني صوته الغض :

- أنا قاعد لوحدى ، وعاوز أتكلم مع أي حد ..

تأهبت لمواصلة الحوار ، غير أن الصوت ضاع فى تداخل الخطوط ، ضاع فى الزحام ، فى الخضم الإليكترونى ، وخلف عندى حزنا رقيقا ، وتساؤلات شتى ، أين يقيم هذا الطفل الصغير الوحيد فى أى منطقة من المدينة ؟ ماهو اسمه ، ولماذا تركه اهله وحيدا تماما بمفرده ؟ هذه المكالمة التى ساقتها إلي الصدفة ألقت عندى ظلا رماديا ، ابتعدت عن الهاتف ، تذكرت هذه السيدة المصرية التى كانت تتكلم من مكان ما فى العالم ، بعيد ، ناء ، مكان محاصر بالثلوج ، كانت تشكو الوحدة أيضا ، الوحدة الإنسانية أصعب مايعانيه الإنسان ، وأشدها ماكان فى قلب الزحام،أحيانا أجوب الشوارع وحيدا ، حولى خلق كثيرون ولكن مامن صلة ، مامن جسريؤدي

إلى أى منهم ، يتضاعف الشعور بالوحدة ، أتساءل أحيانا ، ماذا طرأ على العلاقات الإنسانية ، حتى عام ١٩٧٠ كنا نجتمع فى مقهى الفيشاوى ، عشرات من الأصدقاء ، نسهر حتى الفجر ،وعندما يفتح مسجد الحبيب الشهيد أبوابه ، ندخل إلى صحنه المغطى ، كانت الحميمية في أوجها ، وكانت الليالى تمتد بنا وبالسهر ، كنا برغم الإرهاق نفيض حيوية ونبدع أكثر، الآن يعتصم معظم الأصدقاء بجزر متباعدة ، وصار ترتيب لقاء من الأمور الصعبة ومعظم العلاقات أصبحت هاتفية ، بمعنى أننا نلتقى فى المكالمات ، نتحدث ، نتحاور لعدة أسابيع ، أولعدة شهور ، وقد نلتقى أو لانلتقى ، إننى أتحدث عن علاقات حميمية وليس عن علاقات عابرة ، لماذا؟ هل هى صعوبة الانتقال من مكان إلى آخر ؟ هل هو تقدمنا فى العمر؟ هل تعاظم المشاغل ، ربما هذا كله ، وربما بعضه ، لكن الغريب أننى أصبحت أميل إلى قضاء أوقات أطول بمفردى فى البيت ، فى ترددي على القاهرة القديمة وكأننى عبدت الوحدة واعتصمت بها ، أحيانا تقوم بينى وبين من لا أعرف صلات عابرة ، حديث علي المقهى ، أصغى إلى هموم الآخرين، أحيانا إذ ينوء بى الإحساس بالقفر أمضى إلى مقهى الندوة الثقافية ، حيث الصحب الذين لايلتقون وفقا لميعاد سابق أوترتيب ، لا أدرى ، هل التغير عندى ، أم أن ثمة خللا في الواقع نفسه ، ولكن ماأدركه تماما ، أن زمن الحميمية عندى قد ولى ، وأننى حقا افتقده وأحن اليه .

***

الثلاثاء:

الصديق المخرج المسرحى أحمد هانى عاد من الصعيد ، كان فى قنا يعد عملا فنيا ، حدثنى عن عالم الصعيد الذى مازال محتفظا بخصائصه ،

وأصـالتـه ، تداعى الحـديث لنتناول قـضـيـة الأصـالة والمعـاصـرة ، القـديم والجديد، أوالسابق واللاحق ، مامن مثقف مصرى أوعربى ألتقى به إلاوهذه القضية أحد همومه الرئيسية ، خاصة أن الغزو الغربى لحياتنا يتم الآن على أوسع نطاق ، بدون بوارج ، بدون طائرات ، بدون الاحتلال العسكرى القديم، كم من العناصر الأصيلة التى كانت تشكل جزءا من موروثنا اليومى تتوارى الآن ، تضمر ، تتراجع لتفسح الطريق أمام ماهو قادم من بعيد ، حدثنى أحمد هانى عن العديد من الصناعات اليدوية التى تمضى الآن إلى انقراض حتى فى الصـعـيـد ، صناعـة الخـوص ، صناعـة الفـخـار ، تذكـرت الأوانى الفخارية أو " البرام " الذى يضفى على مايطهى فيه مذاقا خاصا ، وطيبا ، والغريب أنهم فى أوربا الآن يعودون إلى مثل هذه الأدوات الطبيعية ، فى الوقت الذى تتوارى فيه عندنا أمام زحف الألمونيوم وغيره ، لماذا لم تطور صناعة كصناعة الفخار هذه ؟ لماذا لم تصبح تلك الأوانى جزءا من حياتنا اليومية ؟ صحيا هى الأفضل ، جماليا هى الأحسن ، ولكن مانتخلى عنه في حياتنا هو نتاج طبيعى لتغير القيم وأنماط الحياة اليومية، بدءا من تخطيط المدن ، وأسلوب العمارة ، وأدوات الطعام ، وعناصر المعيشة ، وبالتالى يتخلى الإنسان هنا عن موروثه الخاص ليتبع مورثهم هم، ونتاجاتهم هم ، ويتدرج الأمر حتى يصل إلى أقصى أشكال التبعية ، فكريا ، وعقليا ، ويتعمق الإحساس بالدونية تجاه مايخصنا نحن .هذه قضية أتصور أنها التحدى الأول الذى يواجه الفكر العربى الآن ، والثقافة العربية بمفهومها الواسع ، وسوف أطرقها مرارا ، إذ أنها من الهموم الرئيسية التى تشغلنى .

* * *

الثلاثاء ظهراً :

زارني الصديق الروائي عبد الحكيم قاسم ، والصديق كمال رمزي الناقد السينمائي ، قضايا شتى تشعب إليها الحوار ، لا أدرى التداعي الذى قادنا إلى الحديث عن الموسيقى ، قال عبد الحكيم : إنه كتب دراسة عن الأشكال الموسيقية الشعبية في الريف المصري ، قال : إن الموسيقى الكلاسيكية العالمية تطورت بدءا من ترانيم الكنائس ، ونحن يوجد لدينا تراث موسيقي غنى ، موسيقى الأذكار ، والموالد ، والترانيم ، والسؤال هو : ألا يمكن أن يتوافر لدينا الموسيقى العبقري ، الذى يمكن أن يلتقط من هذا التراث الهائل مايمكن أن يتطور به وأن يخلق منه أشكالا جديدة متفردة ، قلت : إننى قضيت سنوات عديدة أجاهد النفس لكى أتذوق الموسيقى الكلاسيك ، قرأت العديد من الكتب وأنفقت ساعات طوالا أصغى إلى نتاج عباقرة الموسيقى العالميين ،إلى هذا التراث الإنسانى العظيم ، لكن ماحيرنى لماذا لاندرج أشكالنا الموسيقية فيما نطلق عليه " الموسيقى العالميه " عندما نقرأ هذا المصطلح أونسمعه ينصرف الذهن مباشرة إلى السيمفونية والكونشيرتو والكانتاتا وعرض الباليه .. وهذا مجرد مثل لما تم زراعته فى أعماقنا ، وهى أن موسيقانا أقل مستوى وموسيقى الشعوب الأخرى التى لاتقع جغرافيا في إطار القارة الأوربية والأمريكتين ، موسيقى الهند ، موسيقى الصين ،ومن قبل ومن بعد الموسيقى العربية التى تطمس ملامحها الآن على أيدى ملحنين تجار قبل أن يكونوا فنانين ، باستثناء مواهب أصيلة أتمنى أن تتوافر لها ظروف التطور والانطلاق وعدم الخضوع لمتطلبات السوق ، وأغنياء النفط .

قلت إننى الآن لاأخشى ولا أخجل من القول بأن سماعى رصد لمحمد

القصبجى ، يثير عندى من الحنين المبهم والشجن مالاتثيره قطع موسيقية عديدة كلاسيكية أنفقت الساعات الطوال فى محاولة تذوقها .

قـال كـمـال رمـزى : أخـشـى أن يفـهـم أحـد رأيك هذا على أنه رفض للموسيقى الكلاسيك .

قلت أبداً ، ولكن مـالن أمل الدعـوة إليـه هوألا نكيل الأمـور بمكيـالين ، وألا نطبق معـيـارين ، واحد للأرقى ، وآخر لما صوروه لنا على أنه الآدنى، أن نتخلص من الدونيـة الثقافيـة وألا نردد مقولات تبدو كالمسلمات المفروغ منها ، فى تصورى أنه لابد من المراجعة لكل ماترسب في حياتنا خلال المائتى عام الأخيرة منذ مجئ الحملة الفرنسية إلى مصر ، هذه الحملة العسكرية التى استقر في أذهان الكثيرين وهذه احدى المسلمات أيضا ، أنها جاءت لتمدين مصر ، وكأن مصر لم تكن متمدينة ، وأن نابليون جاء إلى مصر بالمطبعة والحضارة مع أنه جاء بالمطبعة ليطبع عليها المنشورات التى تسهل احتلاله لمصر وليس لتمدين أهالى مصر ، ومصادر الحملة منشورة ومتاحة ولنرجع إليها لنقرأ مـايكتبه ضباط الحملة عن الشعب المصرى الهمجى المتوحش ، غير المتحضر، إن ما أدعو إليه هو النظر الآن إلى تراثنا بنفس المسـتـوى الذى ننظر به الى تراث الغـرب ، وهذا ليس ترفـا ، ولكن فنون الأداء، ووسائل الإبداع النابعة من تراثنا تعبر أكثر عن مشاعرنا ، وتتيح مقدارا أكبرمن حرية التعبير عما نريد أن نعبر عنه .

نوفمبر ١٩٨٦

صـداح المعجباني

الخميس:

.. منذ عدة سنوات صار التردد على المسرح هو الاستثناء ، بعد أن كان أمرا أساسيا في الستينات ، الأسباب عديدة ، متداخلة ، بدءا من قلة المسرحيات الجيدة التى يمكن أن تثير دافعا قويا للتوجه إلى المسرح وقضاء سهرة فيه ، حتى بعد المسافة ، من حلوان إلى القاهرة ، هذه الليلة أتجه إلى مسرح الطليعة ، (أصدقاء أثق برأيهم حدثونى عن العرض الحالي وضرورة، بل وأهمية أن أراه ، يقبع مسرح الطليعة قرب ميدان العتبة حيث أقدم أجزاء المدينة ، ألتقى عند المدخل بعدد من الأصدقاء ، بعضهم لم أره منذ سنوات ، تهب علي نسمات من بعيد ، هذا المناخ الاحتفالى الذى كان يمهد للمسرحيات الجميلة ، التى يشكل العديد منها الآن خلفية حية لذاكرتنا ، منذ اللحظات الأولى أصبحت مشدودا تماما إلى خشبة المسرح ، المدخل غير التقليدى ،الموسيقى الحية الجميلة ، المستوحاة من تراث شعبى عريق ، الموالد والأذكار ، والأفراح الشعبية ، الملحن على سعد ، مصرى الملامح يقود الفرقة الصغيرة عازفا محتضنا عوده ،شيئا فشيئا تتفجر طاقات هائلة فوق المسرح ، صوت سهير طه حسين الجميل ، ذو الشجن المصرى ، والثقافة العالية ، صوت ممدوح قاسم ، أعتبر اننى اكتشفت موهبة

رفيعة فى عالم الغناء ،صوت ممدوح قاسم عريض ، ضخم ، جبلى المنبع ، يغنى ببساطة ، لايبدو على ملامحه أنه يبذل أدنى جهد وهو يصعد مرتقيا أعلى الطبقات ، إضافة إلى قوته ، فإن فيه رقة عبق الليمون المصرى ، عجبت ، كيف توجد مثل هذه الأصوات ، والاذاعة تفسح طريقها لأصوات باهتة ، نحيلة ، ضعيفة ، تحيطها هالات دعائية ضخمة ، بل وتقدم هذه الأصوات الشاحبة ، النفطية ، التى تدرك جيدا أنه مامن ميلاد لفنان عربى إلامن خلال القاهرة ، فيحاولون فرش طريقهم بوسائل أخرى غير مواهبهم، وللأسف فلم يصلنا خلال السنوات الأخيرة إلا أصحاب المواهب المتواضعة .

أعود إلى العرض المسرحى الذى صاغه سمير العصفورى من مقامات وأشعار بيرم التونسى ، وقد بذل جهدا ، وقدم رؤية إبداعية حقيقية ، تجعل من سمير العصفورى ليس معدا فقط ولكن مبدعا للنص كمؤلف للنص وكمخرج ، يستوحى عرض " العسل عسل والبصل بصل " الأشكال التراثية فى المسرح الشعبى ، وفى القص العربى ، وفى الأفراح المصرية ، فيقدم شكلا جديدا وأصيلا بحق ، توقفت طويلا أمام مشهد " صداح المعجبانى " حيث يقدم الممثل الموهوب أحمد حلاوة مشهدا جميلا ، يقدمه بالرقص ، والغناء ، مستخدما حركات جسده فى تشكيل شخصية المغنى المختال ، الذى لايغنى إلا إذا صفق الجمهور له ، ويحرص على الإشارة إلى مايرتديه، فهذا القميص من أمريكا ، وهذا الحذاء من إيطاليا ، ذهلت وأنا أتابع أداء أحمد حلاوة والذى يرقى إلى مستوى المشاهد العالمية التى نعرفها ، أما الممثل يوسف رجائى فقد بلغ فى دور فشكع الضرير درجة من الإتقان تلاشى معها حضوره هو الأصلى ليحل مكانه الشخصية المتقمصة ، تمكن سمير العصفورى من صياغة العرض وإخراج أفضل مالدى كل فنان ، نايل فؤاد ، أحمد عطيه ، محمد شرشاوى ، عبد الله الشرقاوى وغيرهم .فى

الواحدة صباحا ، من قاعة المسرح إلى ليل القاهرة ، منذ سنوات طويلة لم أشعر بهذه البهجة والنشوة التى يشيعها عمل فنى جيد ، وبالنسبة للمبدع فإن العسل عسل تجعله متحفزا للإبداع ، وهذا ذروة النجاح .

* * *

عصر الجمعة :

ليلى مراد ..

أى صوت لألاء ، يقطر أضواء ، فضية ، مبللة بالندى ، يشير إلى زمن جميل رحب يوجد فى مكان مامن أعمارنا المنقضية ، زمن لم نعشه ، ولم نعرفه ،مبهم ، يخيل إلينا أنه مر بنا ، ومررنا به ، مع أننا لم نره ، غير واثقين حتى من وجوده ، ليلى مراد ، بدايات الإصباح المولية ، الخروج إلى النهارات المقبلة ، أسمعها فى المطالع فأمتلئ تفاؤلا ، صوت لن يتكرر ، فى أمسيات الخميس كنت أمضى بصحبة أخى إسماعيل من قصر الشوق ، إلى الضبابية حيث سينما الفتح ، نتابع مبهورين ليلى مراد وأنور وجدى ، ثم نعود إلى البيت وأحلام غضة شتى تراودنا ، الآن أصبحت سينما الفتح مخزنا للأخشاب ، أما صوت ليلى مراد فلم يظهر مايقاربه حتى ، وعندما يعرض التليفزيون أحد أفلامها القديمة ، فهذا هو الشئ الوحيد الذى يدفعنى الى التفرغ تماما لرؤيته ومتابعته ، واستعادة قبس من زمن جميل مر بى ولم أعشه !

* * *

الأحد : ليلا :

موقف سيارات الأجرة بباق اللوق ، حيث اعتدت ركوب الميكروباص إلى

حلوان ، دائما أتطلع عند وصولى إلى الرصيف المجاور لمبنى السنترال ، حيث مقعد يجلس فوقه عم محمد ممسكا بكوب من الشاى الثقيل ، يجلس فى انتظار قدوم العربات ، حتى إذا لمح سيارة آتية عند نهاية الشارع ، يقوم مسرعا إليها ، هو يعرف العربات التى تعمل على الخط ، يسرع اليها ، يقف أمام الباب بجسده العريض ، القوى ، يشير أولا إلى السيدات والآنسات ، خاصة إذا كانت الساعة متأخرة ليلا ثم إلى الذين اعتادوا الركوب كل ليلة أو يترددون كثيرا على الموقف ، وأنا منهم ، على مدى سنوات اعتدت أن أحييه عند وصولى ، ثم أقف على مقربة منه منتظرا قدوم سيارة مطمئنا الى إمكانية الحصول على مقعد شاغر ، وأن أحدا لن يتخطانى مادام عم محمد فى الموقف ، فى ليالى رمضان يشتد الزحام ، وتجئ بعض السيارات ، يوقفها سائقوها بعيدا ، ثم يجيئون ليساوموا الركاب ، أيضا فى لحظات الذروة ، وغالبا مايكون السائق من الغرباء عن الخط ، يطلب أجرة مضاعفة ، وإذ يعلم عم محمد يثور ، ويجلجل صوته القوى مطالبا الواقفين ألا يدفعوا أكثر من خمسين قرشا وهى الأجرة المقررة، تتردد عباراته " حرام والله " هو الموظف الغلبان يجيب منين " أو" بلاش الدبح فى الناس " كثيرا ماشهدته يخوض معارك عنيفة قد تصل إلى حد الاشتباك بالأيدى من أجل فرض عدالة تغيب قدرا من الزمن على الموقف ، لم يكن يعرف اسمي ، أومهنتي ولكن تكرار ترددي وتحيتي له بحرارة ، أقامت بيننا ودا ، أحيانا كنت أصل الموقف بعد منتصف الليل ، الثانية صباحا ، فى الشتاء ، أجده مرتديا معطفه ، قابعا فى مكانه ، أجده مرتديا ثيابه المميزة ، العربات قليلة ، يقوم ليقف معى ، يبدو قلقا ، يبحث بعينيه عن سيارة آتية ، كان عم محمد حسنين مندوب النقابة العامة للنقل يجسد أخلاقيات ابن البلد ، ومانسميه الجدعنة والشهامة .

الليلة ، اقتربت من الموقف ، لم أره ، وقفت منتظرا ، لمحت ابنه يروح ويجئ نشيطا ، كان يعمل معه ، لم يلفت غياب عم محمد نظرى ، أحيانا كنت لا أجده ، فوجئت بابنه يتوقف أمامى ، يكف عن رواحه ومجيئه ، يقول لى: " بابا .. تعيش أنت " الحق أننى روعت ، مازال الموت قادرا على إثارة روعى مع أننى ظننت أننى تعايشت معه ، واعتدت عليه ، اختطف عم محمد فجأة أثناء رقاده .. وخلا الموقف منه ، ومن قيم جميلة كانت حية تسعى !

علي الزيبق .. وقصرْ السلطان !

ديسمبر ١٩٨٦

.. تلقيت صباح اليوم العدد الجديد من النشرة الإخبارية التى تصدر عن المنظمة العربية لحقوق الإنسان والتى تتخذ مقرها فى القاهرة ، العاصمة العربية الوحيدة فى العالم العربى التى يمكن أن توجد فيها مثل هذه المنظمة حتى إذا وقعت حوادث انتهاك لحقوق الإنسان هنا فيمكن نشر أخبارها ، وارتفاع الصوت ضدها ، وقد يصدر القضاء المصرى العظيم حكما بإدانة من شاركوا فيها ، ولكن فى معظم العواصم المحيطة بنا ترتكب أفظع الحوادث فى تعتيم تام ، وأحيانا لايكون من حق أسرة الضحية أن تذرف الدمع حزنا عليه ، كما حدث فى قصة على الزيبق المشهور ، فعندما اقتحم على الزيبق وخاله قصر السلطان وسرقا خزانته ، قتل الحراس خال على الزيبق ، فأصدر السلطان أمرا بتعليق جثته فى ميدان الرميلة ، تحت قلعة الجبل ، وأصدر أمرا بمنع البكاء والعويل عليه ، وكانت المشكلة أمام شقيقته فاطمة أم على الزيبق هى كيف تتحايل على الأمر السلطانى لكى تبكى وتنوح على شقيقها ، إن المئات فى عالمنا العربى مثل فاطمة ، فى حاجة إلى التحايل كى يبكين ضحاياهن ، الصورة كما تبدو من النشرة كئيبة وقاتمة ، فى الخليج ينشب نزاع بين دولتين على جزيرة مجهولة فتتبادل كل منهما طرد رعايا الدويلة الأخرى فى قسوة ، وتطالب النشرة الحكومات العربية بأنه من الضرورى أن تفصل الحكومات العربية بين الخصومات التى قد تنشب بينها

وبين حقوق المواطنين من أبناء الدول العربية المقيمين على أرضها ، فى دولة أخرى يصاب معتقل بانهيار نتيجة التعذيب ، ويؤدى ذلك بالسلطات إلى نقله إلى مستشفى الأمراض العقلية ، وهذا المعتقل لم يأت جرما ، إنما هو زميل لطالب جامعى مطارد من شرطة هذه الدولة رفض الإدلاء بمعلومات عنه ، فكان أن نوعوا له العذاب تنويعا ، فى دولة أخرى يمنع سجين سياسى من مناقشة الرسالة العلمية التى أعدها لنيل درجة الدكتوراه ، فى دولة أخرى تقع مذبحة للمعتقلين السياسيين ، كل الدول العربية مذكورة فى النشرة ، من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، أما الأوضاع فى الضفة الغربية وقطاع غزة فتحظى بأهمية خاصة ، المهم فى هذه النشرة أنها لاتجامل أى نظام عربى ، ومن الواضح طبعا صعوبة الوصول إلى المصادر التى تفيد بوقوع الانتهاكات ، ولكن الأهم فى رأيى هو انتشار هذه النشرة على أوسع نطاق واتساع حركة التنديد ضد أى انتهاك يقع هنا أوهناك . فالملاحظ أنه فى السنوات الأخيرة يقع صمت على مايحدث هنا أوهناك نتيجة نفوذ هذه الدولة أوتلك وقدرتها على التأثير فى وسائل الإعلام ، إن المشكلة الرئيسية فى عالمنا العربى هى ذلك القهر الذى تمارسه الأنظمة ، وهذه المشكلة تبدو أكثر حدة فى مجالات الإبداع المختلفة ، حيث الأدباء والفنانون هم الهدف الرئيسى لأنظمة القمع ، إننى أرجو حقا أن تصل هذه النشرة إلى كل إنسان عربى.

* * *

.. أول أمس اتصلت بى الصديقة سامية محرز ، حفيدة الشاعر الكبير إبراهيم ناجى ، دعتنى إلى عشاء ، قالت إنه سيكون عائليا ، ومحدودا جدا ، بمناسبة عقد قرانها ، وقالت إن العنوان فى الطابق السابع والعشرين

بأحد فنادق الزمالك الحديثة ، فى المساء تأهبت مع زوجتى وابنتى الصغيرة للذهاب ، كان علينا أن نتحرك من حلوان قبل الموعد المحدد بساعة على الأقل ، فالمسافة طويلة ، فى الطريق رحنا نتناقش ، ماذا نصحب معنا ، باقة وردية ، أم بعض الحلوى ؟ اقترحت زوجتى باقة ورد ، فالمناسبة سعيدة وتستحق ، ورأيت أنا أن الحلوى مناسبة ، فنحن مدعوون إلى العشاء ، ودستة أودستتان من الجاتوه سيكون وقعهما لابأس به ، ثم .. هما بشكل غير مباشر مساهمة فى العشاء نفسه ، عند المعادى توقفت لأشترى الجاتوه أوالبسطة من حلوانى مشهور ، ثم تابعنا طريقنا إلى الزمالك ، اتجهنا إلى مدخل الفندق الحديث ، إنه عبارة عن شقق وليس غرفا ، ذكرنى ببعض فنادق بيروت المماثلة ، فى المدخل مكتب استقبال ، لمحت بعض الحسناوات يرتدين ملابس السهرة ، كنت أرتدى قميصا وبنطلونا ، وحذاء من الكاوتشوك ، يبدو المدخل فسيحا ، تساءلت : هل للحسناوات علاقة بالعشاء الذى دعينا إليه ، ضغطت زر الطابق السابع والعشرين ، ارتفاع كبير بالنسبة للقاهرة ، وبالنسبة للزمالك نفسها التى لم يكن مصرحا بالبناء فيها إلا لارتفاع محدد ، خرجنا من المصعد ،الأرض مفروشة بموكيت ، وثمة مقاعد أنيقة للراحة ، كأن المصعد أدى بنا إلى داخل شقة مباشرة ، وصلت إلى أنغام موسيقية ، تتبعتها على مهل ، باب مفتوح ، لم أر أى شخص أعرفه، لمحت رجالا ونساء يرتدين ملابس السهرة يقفن فى الداخل ، أين سامية ؟ وهل هذا هو العشاء المحدود ؟ ، تقدمت عبر المدخل ، حاملا علبة الجاتوه ، لمحت " بوفيه ممتد " الأوانى مغطاة ولكن الرائحة توحى بماتحويه ، أما القسم الخاص بالحلويات فكان مكشوفا ، وقد حوى أصنافا مختلفة ، وأنواعا شتى ، تجاوره الأوانى التى تطل منها الفاكهة ، وأدركت أنه مامن مكان لعلبة الجاتوه التى أحملها ، تبادلت النظر مع زوجتى ، كأنها تقول :

ألم يكن من الأفضل أن تحضر باقة ورد ؟ كانت المشكلة هى أن أتخلص الآن من العلبة ، أن أضعها فى أى مكان ، وأن ألقى من أعرفه ، لمحت أحد القائمين بالخدمة ، شابا يرتدى جاكتة زرقاء مزركشة ، اتجهت إليه مبديا الحماس ، مادا علبة الحلوى ..

- ألف مبروك .

صافحته بحرارة ، إنه أول من لمحته ، لا يهم أن يكون من أهل العروس أم لا ؟ ، المهم أنه أخذ علبة الحلوى ، ولم أدر مصيرها ، جاءت سامية مرحبة ، ووالدها ، والعريس ريشار جاكوم ،الفرنسى ، ومترجم رواية الصديق مجيد طوبيا ، " دوائر عدم الإمكان " ، قلت لسامية معاتبا :

- أهذا هو العشاء المحدود ؟

قالت : إنهم بعض الأقارب مجرد حفل بسيط ، قعدت فى الشرفة أطل على القاهرة التى كانت تبدو فى مشهد ساحر لانعرفه نحن الذين نسعى فى أحشائها ، فوجئت بابنتى الصغيرة تقول ضاحكة :

- أنت كان مالك يابابا ؟

- مالى إزاى ؟

- كنت عامل زى عادل إمام وإحنا داخلين ..

سلمت على راجل ماتعرفوش .. وابتسمت !

ديسمبر ١٩٨٦

مفتاح ١٧ لقمة !

.. طريق مصر - اسكندرية الصحراوى ، اليوم مشمس والصحراء أبدية ممتدة حتى خط السماء في مثل هذا الوقت من كل عام نمضى إلى الإسكندرية ، اعتاد الأصدقاء الاتجاه جنوبا فى الشتاء لتمضية الإجازات ، أما أنا فأسافر إلى المدينة اللؤلؤة ، إحدى أجمل مدن العالم ، أشتاق إلى هذا الصفاء النادر وتلك الشفافية الرهيفة التى تميز سماءها ، فيها يخف الزحام ، وتصبح المدينة مكتملة الألق ، إنها فرصة الإجازة لكى أقترب من أطفالى أيضا فالحياة قاسية ، والأوقات التى نمضيها معا شاحبة ، والإيقاع سريع ، تماما كهذه السيارة التى تقودها زوجتى ، بالأمس أخبرتنى أنها اطمأنت إلى أحوالها عند الميكانيكى ، الطريق طويل ، والعربة هرمة الآن ، عمرها سبع سنوات ، بعد أن قطعنا حوالى أربعين كيلو مترا فى الطريق الذى أصبح ذا اتجاهين ، وناعما ، خلوا من المطبات والحفر ، لاحظت أن زوجتى تمهلت فجأة ، تتجه إلى يمين الطريق ، مبتعدة عن الأسفلت ، تساءلت :

- فيه حاجة ؟

قالت بهدوء :

- أبدا ، سير المروحة انقطع ..

تمد يدها إلى الدرج الأمامى ، تتناول سيرا دائريا من الكاوتشوك أومادة

صناعية ، لا أدرى ، نزلت ، وبالطبع نزلت معها ، وجهها هادئ ، واثق تمسك السير ، فتحت غطاء المحرك ، ونظرت داخله ، ثم اعتدلت واقفة ، طبعا نزلت لأقف معها ، متأهبًا لتقديم أى مساعدة تطلبها منى أوتشيربها على، أنا أجهل تماما أى شئ متعلق بالسيارات ، وقد فشلت محاولات زملائى من السائقين بأخبار اليوم لتعليمى القيادة ، أقول لهم دائما : إننى لا أركز ، والمرة الوحيدة التى استجبت فيها كانت منذ حوالى عشر سنوات عندما أصر زميلى الصحفى محمود عبد العزيز ، على أن يعلمنى القيادة وصحبنى فى سيارته الفيات إلى مدينة المهندسين ، وفى أحد الشوارع الخلفية الخالية، بدأ يلقننى دروسا ، وعندما حان الوقت ، وجلست وراء عجلة القيادة ، ورحت أنفذ نصائحه وتحركت السيارة ، شعرت بالانبهار ، هذه هى السيارة تمضى وأنا أتحكم فيها ، صاح محمود يومها :

- أنت طلعت علي الأول ، انقل بقى على الثانى ..

ونقلت على الثانى ، مع ضغطه هائلة على البنزين بدلا من الدبرياج وكادت تحدث كارثة ، وكاد الرجل يفقد سيارته ، نزلت مقسما ألا أجلس وراء عجلة قيادة ، على أن هذا لايمنعنى من ممارسة القيادة النظرية عند الجلوس بجوار أصدقائى أوزوجتى .

أعود إلى الصحراء ، العربات تمرق بسرعة ، فجأة ترفع زوجتى رأسها ، وبدلا من أن يتم تركيب السير ، أفاجأ بأنها تشير إلى العربات المارقة ، وبدون تفكير ، طلبت منها أن أشير أنا ، وهذا ميراث الرجل الشرقى ! أدركت أن الموضوع ليس بالبساطة ، وأن تركيب السير فى حاجة إلى مفاتيح يبدو أنها ليست معنا ، العربات الملاكى تمرق بسرعة والبعض يرفع يده ملوحا لنا وكأنه يرد التحية ، مع أننا نطلب النجدة .

أخيرا ، رفعت يدى لعربة نقل ضخمة بمقطورة ، وإذا به يهدئ من سرعته ويميل إلى جانب الطريق ، ينزل السائق وتابعه ، يتجهان ناحيتنا ..

***

.. طلب السائق مفتاحا ، ناولناه أحد المفاتيح من عدة العربة ، طلب مفتاحا آخر ، نظر فيه ، قال :

- داماينفعش .. عاوز مفتاح ١٧ لقمة ..

أحضرت الحقيبة المستطيلة بأكملها ، وضعتها أمامه ، قال إنه لايوجد مفتاح ١٧ ، لكنه سيحاول ، انحنى الرجل ، مديده بالمفتاح متخللا أحشاء الموتور الذى بدا لى كالطلاسم ، قال إن ثمة صامولة بارزة لابد من حلها لتركيب السير ، ولكى يتم زحزحة الصامولة لابد من مفتاح ١٧ لقمة ، نزل تابع السائق تحت العربة ، تمدد الرجل تحت السيارة وراح يحاول تركيب السير، ولكن لافائدة ، لابد من مفتاح ١٧ لقمة !! ولم أدر من أين آتى بهذا المفتاح ، ولم أدر لماذا سمى بلقمة ، ولم أدر شكله أوهيئته ؟ ، رحنا نشير مرة أخرى إلى العربات ، لكن الملاكى يمرق ، عربة بيجو أجرة استجابت، ولكن السائق اعتذر ، ليس معه مفتاح ١٧ لقمة ، مرة أخرى تتوقف عربة نقل بمقطورة ، استقرت أمام العربة الأولى ، نزل منها أربعة رجال ، أقبلوا ناحيتنا ..

***

التقى الرجال حول الموتور المكشوف ، مضى من الوقت حوالى ساعة ، تجاوزت الساعة الثانية والنصف ، حدة الشمس بدأت تنكسر ، نهار الشتاء يشيخ بسرعة ، بدأت أشعر بالقلق ، أرسل السائق الأول تابعه الى العربة ،

أحضر شومة حديدية من الصلب الصب ، تذكرت كلمة " المرزبة " ، حاول أن يسند بها غطاء السيارة المرفوع ، كان أحد الرجال الأربعة يعمل فى محطة للبنزين ، قال صاحبه : إنه تعامل كثيرا مع هذا النوع من العربات ، تفرغ هو لمحاولة تركيب السير ، اقترح أحدهم جر العربة ، لكن المشكلة كيف يمكن ضبط توازنها خاصة أن هناك مقطورة ؟ سألت السائق الأول عن الجهة القادم منها اتضح لى أنه صعيدى من سوهاج ، أما الأربعة الآخرون فمن مركز طما ، وجهة الكل ميناء الإسكندرية ، ذكرت لهم أسماء أقاربى فى الميناء ، أشارالسائق الأول إلى عربته مبتسما ، قال إنها عربة أحدهم ، سرى بيننا نوع من الود ، فهم صعايدة وأنا صعيدى ، إذن هناك صلة ، هل هو الخوف الغامض الذى جعلنى أتلمس هذه الصلة ، غير أن ملامحهم جعلتنى أشعر بالذنب فى أى لحظة شك أو حذر مرت بى ، كان يبدو عليهم الشعور الحاد بالمسئولية ، المسئولية فى أن يركب السير ، أن تدور العربة ، وبرغم مضى أكثر من ساعة ، إلا أن الرغبة فى الانصراف لم تبد على أى منهم ، كأن المشكلة صارت مشكلتهم أكثر مماهى تخصنى ، لم أكن أدر ماذا أقدمه إليهم ، كان معنا بعض البرتقال ، نزلت ابنتى الصغيرة ، قدمته إليهم ، ست برتقالات ، لكن أحدهم أشاح بيده :

- ياراجل خليه علشان العيال ، الطريق لسه طويل ..

فى هذا القفر ، فى هذه الوحدة الصحراوية ، كنت أواجه أحد ملامح الشهامة المصرية التى ماتزال حية فى بسطاء قومى ، كنت أردد بينى وبين نفسى ، مازال الجوهر سليما برغم كل التشوهات العارضة التى لحقت حياتنا فى السنوات الأخيرة .

أدركهم اليأس من العثور على مفتاح ١٧ لقمة ، رقد أحدهم تحت

السيارة ، أصبحت أيدى الرجال ملوثة بالزيت والشحم ، طلب أحدهم إدارة المارش ، مرة واحدة خاطفة ، دار مرة ، مرة أخرى ، تراجع أحدهم أخيرا ، قال :

- خلاص السير ركب ..

صافحتهم ، كنت متأثرا جدا ، قال لى أحدهم :

- امشوا قدامنا ، عشان لوحصل عطل تانى نبقى احنا وراكم ..

دارت العربة ، عدنا إلى الطريق الصحراوى الممتد ، غير أن زوجتى قالت :

- درجة الحرارة ماتزال مرتفعة .

وصلنا الاستراحة التى تتوسط الطريق " الرست هاوس " ، اتجهنا إلى محطة الخدمة ، كنت قد اكتشفت أننى نسيت أن أسال الرجال عن أسمائهم !

***

مرة أخرى رفع الاخصائى غطاء السيارة ، اسمه " أحمد " ، فى هذه المرة كان المحرك يرفض أن يدور ، بعد كشف على هذا الجزء وذاك ، قال أحمد :

- العربة شرقت ..

قلت له :

- يعنى إيه شرقت ؟

قال :

- يعنى البنزين طلع فى الفلتر ، لابد من سحبه ..

دفعنا السيارة إلى داخل الورشة ، بدأ أحمد يستعين بمفاتيح مختلفة الأحجام ، بعضها صغير ، أوملتوى العنق ، وآخر يشبه الماسورة لكنه مفتوح من نهايته ، سألت عن مفتاح ١٧ لقمة ، فقال لى إنه هذا ، ورحت أتامل المفتاح الذى أعيانا العثور عليه ، لماذا سمى لقمة ؟ لا أدرى ،حمدت الله أننا لم نستمر فى السير ، وأننا عرجنا على محطة الخدمة ، لكن ماذا كان يمكن أن يحدث ؟ ، قال أحمد :

- كانت عملت جوان ..

- يعنى إيه جوان ؟

- يعنى وش السلندر كان راح ..

لم أفهم إلا أن هذا يعنى عطلا فادحا ، أشارت لى زوجتى بما يعنى الكف عن أسئلتى التى تكشف جهلي بأمور الميكانيكا ، فلابد أن أوحى لمن يقوم بالإصلاح أننى أفهم ، غير أن انزعاجا حقيقيا تملكنى عندما رأيته ماضيا في فك أجزاء الموتور ، أجزاء كانت تبدو لى ثابتة ، رحت أسأل كلما انتزع جزءا عن اسمه وتجيئنى إجاباته :

- دا الفلتر ..

- دا الاسبراتير ..

- أصلى بشوف الابلاتين ..

وكل هذه الأسماء كانت ماثلة فى ذهنى ، سمعتها من الأصدقاء ، أو فى المقهى ، لكننى لم أكن أدرى ماذا تعنى ، وليت وجهى بعيدا ، هل من المعقول أن الإصلاح سيتم ، تبادلت الحديث مع (أحمد) الذى كان يؤدى عمله بمهارة ، قال لى إنه يسكن بالقرب من المحطة ، وأن زوجته وأولاده

هنا ، ومع ذلك صدر قرار بنقله إلى جهة أخرى ، ومايريده أن يبقى هنا فى مقر عمله الصحراوى .

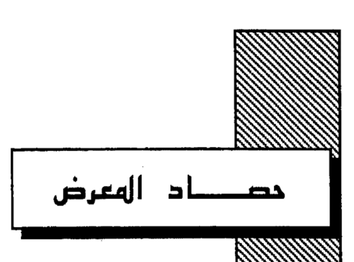
أخيرا والشمس تميل إلى الغروب ، دار المحرك ،كان كل جزء قد عاد إلى مكانه ، قال أحمد :

- يمكنكم السفر الآن ..

سألته عن إمكانية شراء مفتاح ١٧ لقمة ، قال إننا سنجده فى الإسكندرية ، عندما اتخذت مكانا بجوار زوجتى قلت :

- أرجوكى ألا تنسى مفتاح ١٧ لقمة !

يناير ١٩٨٧



.. استيقظت مبتهجا ، اليوم موعدى السنوى مع الكتب فى المعرض ، أيضا لأننى سوف أكسر العادة ، منذ إشرافى على صفحة الأدب ، والساعات التى أقضيها فى المكتب طويلة ، يوميا ، وكثيرا مايندغم الوقت بين وصولى وانصرافى ، أفارق العربة التى تقلنا من حلوان ، وأنتبه فى الثالثة وأنا منصرف ، فى نفس المقعد ، الأيام مشحونة بلقاءات عديدة ، وأصدقاء ، وضيوف من هنا وهناك ، كنت سعيدا جدا وأنا أفارق العربة فى ميدان سوارس بالمعادى ، لم أكمل الرحلة اليومية ، كنت قد اتفقت مع صديقى الأديب يحيى مختار وزميلى فى توزيع الأخبار على انتظارى ، ثم نتوجه بالسيارة إلى المعرض ، النهار بارد ، والطريق ممتد ، سلكنا الطريق السريع ، وصلنا مبكرين ، ماتزال أقسام المعرض مغلقة ، الثامنة والنصف ، والأبواب تفتح رسميا العاشرة ، لمحت الصديق حسن أحد معاونى الحاج محمد مدبولى ، يتمتع بذاكرة مدهشة تضم عناوين كتب لاحصر لها ، بدأنا بجناح الحاج مدبولى ، الصباح باكر ، وترتيل قرآنى جميل يهيمن على المكان ، أكثر من سبع ساعات قضيناها ،وعندما خرجت مع يحيى من المعرض كانت الحقيبة الكبيرة قد فاضت ، وأصبح إلى جانبها عدة حقائب صغيرة من البلاستيك الشفاف ، فماذا أضفت ؟ .

المراجع الأساسية للتراث العربى هدف ثابت بالنسبة لى ، وقد علمتنى السنوات أن كتب التراث كالذهب ، تتضاعف قيمتها مع مر الأيام ، من يصدق أننى فى الستينيات اشتريت النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى (١٢ جزءا) بمائتين وأربعين قرشا ، وصبح الأعشى للقلقشندى ، بمائتين وثمانين قرشا (١٤ جزءا) ، الآن يبلغ سعر الأول حوالى مائة وخمسين جنيها إن وجد ، أما الثانى فيتجاوز المائتين . كنت استهدف شراء كتاب تراجم هذا العام ، " الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة " لابن بسام ، يترجم لأهالى الأندلس ، بعد أن اشتريته شعرت براحة ، أحيانا لاأهدأ إلا إذا كان الكتاب على مقربة منى ، بل بعض الكتب التى قرأتها وارتبطت بها وجدانيا أنظر إلى موضعها من حين إلى آخر ، أنفض الغبار عنها ، وأعدل وضعها ، من المعرض اشتريت فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ، وهو كتاب تراجم أيضا يكمل مابدأه ابن خلكان فى وفيات الأعيان أحد أروع كتب التراجم فى التراث العربى ، اشتريت أيضا موسوعة من ثمانية مجلدات " عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمى والأدبى " للدكتور محمود رزق سليم ، وكتاب " الحيل فى حروب دولة المماليك " تأليف الدكتور عبد العزيز محمود عبد الدايم ، وكتاب " الرق فى مصر فى العصور الوسطى " ، و" آخر أيام غرناطة " لمؤلف مجهول من القرن التاسع الهجرى شهد ضياع الأندلس ، وكتاب " التراث النقدى والبلاغى للمعتزلة حتى القرن ٦ هجرى " للدكتور وليد قصاب ، ودراسة عن " قرية بنى هلال فى سوهاج وصلتها بالسيرة الشعبية " للدكتور السيد حنفى عوض والدكتور محمد المهدى صديق ، إصدار دار المعارف ، وكتاب جديد من التراث العربى ينشر لأول مرة " المصون فى سر الهوى المكنون " للقيروانى ، تحقيق الدكتور محمد عارف حسين ، ودراسة عن " الحسبة فى مصر الإسلامية " للدكتورة

سهام مصطفى أبوزيد ، ودراسة عن " الوثنية ، مفاهيم ودراسات " للدكتور فاروق إسماعيل ، ودراسة عن " الصيارون والشطار البغاددة فى العصر العباسى " للدكتور محمد عبد المولى ونشر مؤسسة شباب الجامعة بالاسكندرية ، ورواية البانية مترجمة الى العربية لاسماعيل قدرى " الحصن"، والجزء الأول من مختارات الجواهرى الشعرية ، وتاريخ الأدب العربى ، كتاب قديم كان مقررا على طلبة الثانوى فى الثلاثينيات وضعه عمالقة كبار ، أحمد أمين ، عبد العزيز البشرى ، على الجارم ، أحمد ضيف، أحمد اسكندرى ، وكتاب أهداه لى الصديق الدكتور طاهر عبد الحكيم مدير دارالفكر للنشر والدراسات .

عدت إلى البيت والحمل ثقيل ، إلا أننى فى مثل هذه الحالات تواتينى قوة لاأدرى مصدرها ، فأصعد الطوابق الأربعة ، أخرج مااشتريت ، أصف الكتب ، أتأملها ، وقد أقلب بعض صفحاتها ، أكتب اسمى وتاريخ دخول كل كتاب إلى المكتبة ، وما أطلبه من العلى القدير عمر يكفى لقراءة ماعندى فقط ، ماتقع عليه عينى كل يوم .

يونيو ١٩٨٧

بتلـــــو ١٤

.. يحكى أن أحد أصحاب شركات توظيف الأموال ، ذهب يوما ليشترى لحما من جزار مشهور بالدقى ، وقف فى طابور المنتظرين ، فالجزار عليه إقبال ، وهو أول من أعلن عن بيع اللحوم فى التليفزيون فى عصرنا هذا ، ويبدو أن الانتظار طال ، أو أن الملل أدرك صاحبنا ، فارتفع صوته يطلب سرعة الحركة ، وعندئذ نظر إليه الجزار المشهور وأسمعه من الكلام مالايسر، أو ما اعتبره صاحبنا إهانة له ، وربما كان الكلام عاديا ، ولكن صاحبنا رأى فيه مسا بشخصه ، وهذا حال الإنسان إذا جرت الأموال بين يديه فجأة ، يصبح إحساسه بالتفوق على بقية البشر ساحقا ، خاصة إذا كانت الثروة مفاجئة ، والاستعداد الإنسانى واهنا ، المهم أن صاحبنا هز رأسه متوعدا الجزار :

- طيب .. أنا هوريك ..

مضى صاحبنا إلى الشركة التى يملكها مع شقيقه ، وبدأ وضع خطوط مشروع جزارة ضخم ، يشمل المزارع التى يتم فيها التسمين ، والمجزر الآلى الخاص ، ومصنع لإعداد اللحوم ، ثم معرض لبيع اللحم فى أرقى الأماكن ، واحد على مقربة من الجزار الذى أهانه ، والثانى فى مصر الجديدة ، الطريف أنه لم يبع بسعر أقل ، بل بدأ البيع بسعر لم يعرفه سوق اللحم فى

مصر من قبل ، أربعة عشر جنيها لكيلو " البتلو " . والطريف أيضا أن الإقبال عليه تزايد بسرعة ، حتى أنه بتعبير السوق " مش ملاحق " ، كما أن مزارعه لم تعد تكفى بمافيها من مواشى ، فبدأ يشترى من المذبح ، بذلك ارتفع سعر اللحم .

.. الحكاية سمعتها فى السوق ، وبالتحديد من صديق عزيز عنده دكان جزارة فى باب اللوق ، رواها لى عندما سألته عن أسباب ارتفاع أسعار اللحوم الذى فاق كل التوقعات ، وإذا صحت الحكاية عن أسباب دخول هذه الشركة عالم اللحوم ، فإن ذلك يعكس القوة المالية التى أصبحت هذه الشركات تتمتع بها ، والتى سوف تؤدى إلى آثار تتعدى النواحى الاقتصادية مستقبلا ، وإذا لم يكن للحكاية أساس واقعى ، إنما تنتمى إلى مايروى فى السوق عن تصرفات أصحاب الأموال ، أى تنتمى إلى فولكلور خاص بحقبة الانفتاح ، فإن الخيال الشعبى هنا يعكس تصوره لأصحاب هذه القوى المالية الجبارة أيضا ، وأن باستطاعتهم أن يفعلوا أى شئ !

المثير بالنسبة لى ، أن هذه الشركات تعمل تحت غطاء دعائى يستغل الإسلام ، فهل من الإسلام فى شئ أن تدخل إحدى هذه الشركات مجال الاستثمار فى اللحوم ، لتتسبب فى رفع كيلو البتلو إلى أربعة عشر جنيها ؟ أنا أفهم إذا كانت هذه الشركات تعمل وفقا لمبادئ دينية ، وإذا كان أصحابها حريصين على الظهور بالجلباب الأبيض ، واللحى الكثة والطواقى، أن يدخلوا مشاريع تؤدى إلى توفير اللحوم بسعر أرخص ، أوتوفير الغذاء بسعر أقل لفقراء المسلمين ، ولكن هذه اللحوم التى يتم الإعلان - عنها تليفزيونيا - ولاحظ استغلال الأسلوب القرآنى فى الإعلان عندما نسمع من يقول :"حتى إذا استوت الماشية وسيقت إلى الذبح !! "- إلى من تباع ؟

من هو القادر على شراء البتلو بأربعة عشر جنيها ؟ ، لقد حدقت طويلا فى صاحبى وهو يقول لى :

- الكيلو بأربعتاشر ومش ملاحق ..

أراهن أن عدداً كبيرا من الذين وضعوا أموالهم فى هذه الشركة للاستثمار لايستطيعون شراء كيلو البتلو بأربعة عشر جنيها ، إن اللحم وسعره مقياس حساس لبقية الأسعار ، فعندما يرفع الكواء سعر كوى القميص يقول لك إذا ناقشته :

- دا كيلو اللحم بكذا ..

وعندما تصل شركة توظيف الأموال بسعر البتلو فى معرضها الفاخر بالدقى إلى أربعة عشر جنيها ، فإن ذلك يكون مقدمة لبيعه بعد قليل فى محلات الجزارة بالحسين والسيدة زينب بنفس السعر ، أما فى الدقي والزمالك فسيتحرك بالطبع إلى أعلى جاذبا معه أسعار الخضار ، والجبن الأبيض ، والفجل والجرجير .

لا أريد أن أتطرق إلى الظروف الغريبة التى نشأت فيها مثل هذه الشركات ، ولكننى أناقش فرعا صغيرا من فروع نشاطاتها العلنية ، والتى تؤدى فى رأيى إلى الإضرار بجموع المسلمين الذين لايمكنهم شراء كيلو البتلو بأربعة عشر جنيها كاملة ، وأنا فى مقدمتهم !

يوليو ١٩٨٧

بتلو ١٤.. يثير أزمة!

.. بصراحة ، لم أتصور أن ماكتبته عن البتلو فى يوميات سابقة ستثير هذه الضجة وسوف يسبب لى أيضا بعض المشاكل الشخصية ، ردود الفعل تفاوتت خاصة فى الخطابات التى وصلتنى ، زميلة محترمة قالت: " وفيها إيه لما الشركة تبيع البتلو بأربعتاشر جنيه مادمت بأخذ منها اللحمة اللى أنا عاوزاها .. "

وأحاول أن أجادلها ، فليس كل شخص قادرا على دفع المبلغ ، كما أن وصول سعر كيلو اللحمة إلى هذا المستوى سوف يرفع أسعار السلع الأخرى .

صديق يعمل فى المهنة ، اتهمنى أننى أضر بمصالح الصحف ، فشركات توظيف الأموال - التى تتستر باسم الدين - تدفع لدور الصحف مبالغ ضخمة فى مقابل الإعلانات .

والهجوم على هذه الشركات هكذا قد يؤدى إلى أن يصدر الحاج فلان توجيها إلى شركاته بحرماننا من الإعلانات .

ومرة أخرى أجادل المنطق المعوج ، فأنا لاأتصور أن صحافتنا رغم أزماتها المالية التى تمربها ، تخضع لمثل هذه الشركات ، أوأى مصدر إعلانى آخر ، وإذا كانت هناك دول عظمى عجزت عن تطويع صحافتنا ، أوأقلامنا ، فهل

سينجح هذا الحاج أوغيره ، أولئك القادمون من المجهول ليمسكوا بزمام الاقتصاد المصرى ، ولاندرى إلى الآن إلى أين ؟ المهم أن عددا كبيرا من الخطابات وصلنى تعليقا على البتلو ، وإننى لمورد ثلاث رسائل ، كعينة لما وصلنى ، مبديا بعض الملاحظات فى أضيق الحدود .

الرسالة الأولى

.. قرأت مقالك عن شركة توظيف الأموال بالدقى التى تبيع اللحم بـ ١٤ جنيها ، وكان المفروض أن تكون أكثر صراحة وتقول ما الذى جعل هذا يحدث ،أن الذى جعل هذا يحدث ، هو التموين . أين أجهزة الرقابة على الأسعار ؟ هل أصبح السوق سداحا مداحا لكل من شاء ، فلماذا لاتكون شجاعا وتكتب هذا ؟ تكتب عن تخاذل هذه الأجهزة الحكومية التى تقاعست عن أداء دورها ، فأصبح كل من هب ودب يفرض السعر الذى يشاء ، لماذا لاتكون شجاعا وتكتب عن التخاذل المخزى وعن المصائب التى ستحدث مستقبلا من جراء طغيان الأغنياء ؟

على أحمد مصطفى

مصر الجديدة

ملحوظة:

إننى متفق معك ياأخى فيما يتعلق بتخاذل أجهزة وزارة التموين وضبط الأسعار ، أما عن الشجاعة .. فها نحن نحاول !

الرسالة الثانية

.. لقد أعجبنى مقالكم بالأخبار أمس بعنوان " بتلو " والذى تنتقدون فيه تصرفات بعض شركات توظيف الأموال ، والتى ساعدت على رفع أسعار

اللحوم ، وخاصة البتلو بحيث وصل سعر الكيلو إلى ١٤ جنيها ، وهناك وقائع أخرى كثيرة تدين هذه الشركات وتثبت أنها ساهمت فى زيادة معاناة الجماهير بما تقدم عليه من مشروعات غريبة تدر أرباحا كبيرة على حساب رفع الأسعار لكثير من المواد والمنتجات والبضائع ووسائل المواصلات ، ومن ذلك أن إحدى هذه الشركات قامت بشراء جميع السيارات الملاكى وخاصة الصغير منها من ماركة فيات وبيجو وغيرها بأسعار عالية حتى أفرغت السوق كله من هذه السيارات مما تسبب فى رفع أسعارها بطريقة خرافية ، وأصبح الكثير من المواطنين لايستطيعون شراء سيارات مستعملة بسعر متهاود حتى أصبحنا نسمع عن أسعار مبالغ فيها ، فالبيجو موديل ٧٩ ، وصل سعرها فى السوق إلى عشرين ألف جنيه ، ماذا فعلت هذه الشركات بعد ذلك ؟ إنها أعلنت عن معرض سيارات من جميع الماركات وجميع الموديلات بعد أن قامت بإصلاح وتجديد معظمها وصارت تبيعها بالنقد والتقسيط بأسعار خيالية .

الدكتور محمد أحمد ضرغام

مدير المركز الطبى العام بحلوان

الرسالة الثالثة

أما الرسالة الثالثة فلم تحمل توقيعا ، وإن كنت أترك لفطنة القارئ معرفة من كتبها ، ومن أرسلها ؟

" .. أنا لا أعرفك ، ولا أعرف إن كنت طويلا أوقصير أومتينا أونحيلا أوعظيما أوحقيرا ..

ولكنى بمجرد أن قرأت يومياتك فى الأخبار عرفت أنك ضلالى ومنافق

وجبان وعضو بارز فى هيئة المنتفعين .

صحيح أنه ليس من الإسلام فى شئ أن تتسبب إحدى الشركات التى تعمل (كما تدعى) تحت غطاء دعائى يستغل الإسلام فى رفع سعر كيلو لحم البتلو (كما تدعى) إلى أربعة عشر جنيها ، لو أنك ذهبت قبل أن تكتب ماكتبت إلى أى جزار فى مصر وعرضت عليه عشرين جنيها ثمنا لكيلو اللحم البتلو المشفى (خط بالأحمر تحت الكلمة) لزوم البوفتيك لترى ماذا سيكون رده عليك وهل هو بالقبول أو الرفض البات القاطع الأكيد ، ماكان يمكن أن تكتب حرفا واحدا فيه ضلال ونفاق وجبن فى هذا الموضوع لو أنك كلفت خاطرك المسلم الغيور على مصلحة المسلمين والحريص على أموالهم بزيارة لأحد مركزى توزيع اللحوم والأسماك والطيور قبل أن تكتب ماكتبت لترى مايراه أى زائر لأحدهما أوكليهما من نظافة متميزة ونظام وخدمة متميزة وأمانة متميزة وأجهزة متميزة للتوضيب والعرض والتغليف والوزن والحساب ولتلمس بنفسك الأمارة بالسوء أن اللحوم تتراوح هناك حسب النوعية والقطعية ، فالضأن المشفى من الفخذة الخلفية (سكالوب) لزوم البوفتيك يبلغ سعره ٩٫٢٥٠ جنيه وهو سعر الكيلو ، أما السعر الوحيد الذى يتجاوز الإطار كما أسلفت هو سعر الكيلو اللحم البتلو المشفى (خط بالأحمر) من الفخذة الخلفية (سكالوب) لزوم البوفتيك والذى يرفض (كما أسلفت أيضا) أى جزار أن يبيعه لك هكذا بأي ثمن (خط أحمر) ..

ثم تمضى الرسالة بعد وصلة من الشتائم لتقول :

إنها المرة الأولى التى يقتحم فيها باقة من الشباب المصرى المسلم المتعلم هذا المجال (الذى كان حكرا إلى حد قريب على الجهلة) متزودين بأسلحة

جديدة وغريبة على سوق اللحم هى العلم (هكذا) والله العلم والنظافة واللياقة وحسن المظهر والمعاملة .

ثم يختتم كاتب الرسالة خطابه بقوله :

والله الذى لا إله إلا هو ولارب سواه أنا إذ أخفى اسمى وعنوانى عن ذيل هذا الخطاب لا أخشاك وإنما أخشى الله رب العالمين والسبب بسيط وهو أني لا أستهدف من ورائه النشر وإن كنت لاأمانع منه وإنما أستهدف ضميرك، ووالله الذى لا إله إلا هو ولارب سواه ، أنا لا أنتمى للسيد الحاج (ذكر اسم أحد أصحاب شركات الأموال رباعيا وشقيقه) بأية صلة وإنما أنا مواطن مدين لهم بأنهم أتاحوا لى فرصة الحصول على كيلو اللحم البتلو المشفى (خط أحمر تحت المشفى) لزوم البوفتيك ، وأنا راض وممتن مع أنى بكل المقاييس وأى المقاييس مواطن غير قادر وإنما ذواقة وصاحب تجارب قاسية مع جزارينك .

هكذا انتهت الرسالة فجأة وبدون توقيع ، وإن كنت أترك للقارئ كما ذكرت ولفطنته معرفة المرسل .

وبداية ، فإننى أتجاوز عن الشتائم بل وأشكر كاتب الرسالة على الثقافة اللحمية التى تفضل بها ، عن اللحم من الفخدة الخلفية لزوم البوفتيك ، واللحم من الفخدة الأمامية ، والبتلو المشفى ، ولأنه محدود الدخل ولكنه ذواقة لحوم ، فهو يشكر الحاج (...) الذى أتاح له فرصة الحصول على كيلو البتلو المشفى لزوم البوفتيك بأربعة عشر جنيها فقط ، أقول لكاتب الرسالة إننى مثل الغالبية العظمى من أبناء هذا الشعب ، من محدودى الدخل الذين ولدت بينهم ونشأت وسأظل حاملا لهمومهم وقضاياهم ياسيدى ، أنا مثلهم لاأعرف ولايهمنى الفرق بين الفخدة الأمامية أوالخلفية ، أو الريش ،

أوالبوفتيك ، فهذه أمور لم يصل إليها مستوى تذوقنا بعد ، ولكننى مثل ملايين محدودى الدخل ، الذين يشترون كيلو اللحم ليطبخوا عليه طعاما يكفى أسرة من عدة أفراد ، واللحم له عندى وعند هؤلاء الذين لايقدرون على شراء الكيلو بأربعة عشر جنيها مقام وخصوصية ، حتى أنه فى صعيد بلادنا يؤكل فى نهاية الوجبة أي فى مقام الحلوى ، نحلى به ، وهو النوع الوحيد من الطعام الذى كان يتولى الوالد تقسيمه علينا ، وعندما تقدم بنا الزمن وأصبحنا من أكلة اللحوم بانتظام لم يتغير الأمر إلى الحد الذى نفرق فيه بين الفخدة الأمامية ، والأخرى الخلفية ، والضلوع ، والريش ، والتلبيانكو ، والعرق ،وما أعرفه أن اللحمة تنقسم إلى نوعين ، حمراء وسمينة ، ولهذا أشكرك على هذه المعلومات القيمة التى لايعرفها إلاجزار متخصص ، ماأود قوله أيضا ، أننى لم أغب قط عن فقراء هذا البلد ، وخلال جولاتى فى مشروع ليلة القدر الذى يشرف عليه الأستاذ مصطفى أمين ، والذى يستهدف الفقراء والمرضى حقا ، رأيت أسرا كل حلمها أن تأكل اللحمة ، وارجع ياأخى إلى الأخبار لتقرأ عن هذه السيدة فى أعماق الصعيد التى أرسلت إلى ليلة القدر أمنيتها المتواضعة أن تأكل كيلو لحم ، ولو أننى أعرف هذه الثقافة لنصحتها وأنا أشترى لها الكيلو أن تطلبه تلبيانكو أو من الفخدة الخلفية (أقسم بشرفى أننى لاأعرف معنى تلبيانكو) ، وهناك أسر تعيش على اللحم المقرر لها على البطاقة التموينية، أو مايسمى بلحم الجمعية ، والجمعية قطاع عام كافر ، وسعره ثلاثة جنيهات ، ولولا هذا القطاع الكافر ، والبطاقة ، لما عرفوا طعم اللحم بل أعرف أسرا تشترى سيقان الدجاج لكى تكسب الشوربة مسا من الزفر ، وبالطبع هذه الأسر ، هؤلاء الملايين لاعلاقة لهم بمعرضكم الذى يوجد به أحدث وسائل التوضيب والتغليف والذى يديره شاب مسلم متعلم .

حمام السباحة فى نادى المعادى ، سيدة فى الخامسة والثلاثين تجلس فوق أحد المقاعد ، ترقب ابنها وابنتها اللذين يسبحان فى الحمام تتابعهما بين الحين والحين تنادى ابنها - حوالى عشر سنوات - يبدو في صوتها خوف أمومى عليه من إيغاله فى الحمام وطول مدة غطسه تحت الماء ، منذ لحظات أغمضت عينيها ، وبدا كأنها تلتمس بعض الراحة ، خرج الابن والابنة من الحمام ، أسرعا إليها ، ناداها ولدها ، ظلت مغمضة العينين ، مد الولد يده يربت خدها بحنان ،

- ماما .. ماما .. اصحى ..

لكنها لم تجبه ، بدا نومها غيرعادى ، نوم ثقيل لم يعهده الابن من قبل، وعندما مد يده مرة أخرى إلى رأسها ، مالت على عنقها ، شعر الابن بخوف غامض :

- الحقنى ياعم ماما نايمة ومش راضيه ترد ..

أحد أعضاء النادى طبيب ، خرج من حمام السباحة أصغى إلى نبض العروق فى معصم اليد ، هز رأسه أسفا :

- دى ميتة من حوالى عشر دقائق على الأقل ..

بدا الابن وأخته مذهولين ، لايدركان ، التف الحاضرون ، غطوا الأم ، قال الابن إن والده فى أمريكا ، يعمل هناك ، ومامن أقارب فى المعادى ، بعد رحلة بحث طويلة توصل عدد من الحاضرين إلى أحد أقارب الأم المتوفاة، يقيم فى كوبرى القبة ..

كنت أفكر فى موت الفجأة ، وصمتها الأبدى ، غيرا أننى كنت أفكر أكثر فى الولد وأخته الصغيرة ، وما ينتظرهما فى هذه الحياة الدنيا !

الجمعة

.. فى كل يوم يدخل إلى لغتنا العامية تعبيرات جديدة ، وجمل ذات إيحاءات ، فى موقف سيارات باب اللوق حدثت مشادة خفيفة بين سائقين ، سائق عربة بيجو ، وسائق ميكروباس ، ركبت البيجو ، وقرب حلوان التفت السائق إلى أحد الركاب ، يبدو أنه زميله ، قال له :

- مش صورت فيلم دلوقتى أنا وسعيد .. وسرعان ماقال له صاحبه :

- ليه داسعيد طيب .

وقال سائق البيجو :

- أعمل ايه بقى ؟ أهودا اللى حصل !

واستوقفنا تعبير " صورنا فيلم " ، أى خناقة ، وماتزال الحياة تحمل فى حركتها كل جديد وغريب .

يــوليــو ١٩٨٧

بيت السحيمى ..

.. تهل ليالى رمضان مثقلة بالذكريات ، من لحظات قرب ولت بعد أن اكتملت فى أمسياته العبقة بالماضى الجميل ، ومن جلسات تغيرت ، وغاب حضورها ، روائح شتى ، ونداء باعة تميز وتفرد ، أذكر منهم ذلك البائع الضرير الذى كان يسعى ليعبر حارتنا وقت الإفطار ، عندما ينزل الصمت بعد صعود الصغار إلى بيوتهم ، كان صوته شجيا ، منغما ، يثير وقتئذ فى النفس أحاسيس غامضة ، أما الآن فيبعث تذكره شجى وألما خفيفا ..

فى عام ١٩٥٦ انتقلنا للسكنى فى حارة الدرب الأصفر ، بعد أن عشنا زمنا فى حارة درب الطبلاوى ، وفيما بعد رجعنا إليها مرة أخرى ، الدرب الأصفر أكبر من حارة ، حقا إنه درب ، يصل بين شارعى المعز لدين الله ، والجمالية ، درب عتيق ، عمره من عمر القاهرة القديمة ، فعندما وضع أساسها القائد جوهر الصقلى ، وبنى القصرين العظيمين ، الشرقى الكبير ، والغربى الصغير ، ليكونا مقرا لسكنى الخلفاء الفاطميين ، كان مذبح القصرين حيث تنحر الذبائح فى موقع هذا الدرب ، إنه درب مدجج بالتاريخ والآثار ، فى مواجهة عمارة عليش التى سكناها ، تقوم زاوية أوتكية بيبرس ،كتلة مهيبة من العمارة الإسلامية والفن الدقيق ، بدأها الأمير بيبرس الجاشنكير لتكون مقرا لأحباب الله من الصوفية ، هو نفسه الأمير

الذى أضاف الجزء العلوى إلى متذنتى مسجد الحاكم ، ومسجد ابن طولون ، بعد أن هدمهما الزلزال الشهير الذى أزال فنار الاسكندرية القديم ، وموقعه الآن قلعة قايتباى ، زاوية بيبرس هذه كما تعرف بين أهالى المنطقة لكم مررت عليها ، وأشرفت من النافذة على نقوشها ، ولكم دثرتنى ظلالها، كنت جاهلا بتاريخها فى هذا العمر البعيد ، وفيما بعد سعيت إلى المصادر والمراجع ، فنطقت الحجارة وجاوبتنى نقوش الباب الضخم الجميل المطعم بالنحاس ، الزاوية تقع فى الجهة الشرقية من الدرب ، وعند الطرف الغربى ، حيث شارع المعز ، أرشيف العمارة الإسلامية الحى ، الشارع الذى كان يسمى قصبة القاهرة ، حيث تتعاقب فيه المنشآت الإسلامية بدءا من العصر الفاطمى وحتى العصر العثمانى ، وكلها منشآت من الطبقة الأولى ، شيدها خلفاء ، وسلاطين ، هذه الآثار التى عانت هوانا لسنوات طويلة ، حتى بدأ الأثرى القدير أحمد قدرى ينفض عنها غبار الإهمال والقذارة ، بحيث يحق لنا القول إن تلك الآثار تعيش عصرها الذهبى الآن ، وليت جهود أحمد قدرى تتكاتف مع جهود الأجهزة الأخرى فى المنطقة ، عندئذٍ .. يمكننا استرداد منطقة تموج بالتاريخ ، بالروح الإسلامية والقاهرية الصميمة ، لكن لهذا حديث آخر ... فى مواجهة مدخل الدرب بوابة حارة برجوان ، حيث ولد المقريزى ، ومابين البوابة وزاوية بيبرس يمتد الدرب الأصفر ، وفى القلب منه .. بيت السحيمى ..

***

.. مع توالى الزمن تتغير الوجوه ، أهالى الحى الذين كنت أعرفهم كثير منهم رحلوا ، ويوما بعد يوم تزداد الملامح المجهولة عندى ، لقد انتقلنا من الحى عام ١٩٧١ ،الأطفال الذين ولدوا فى هذه الأيام يتأهبون الآن لدخول

الجامعة ، ما أسرع مرور الأيام ، وعندى هنا مواقع أتردد عليها ، وأقيم الود مع أصحابها ، فلكم أكره أن تتحول زياراتى إلى المنطقة العزيزة على إلى زيارات سياحية ، من هذه المواقع ، مقهى الفيشاوى ، وأصدقائى فى خان الخليلى ، ومقهى لانضى فى قصر الشوق ، وسبيل أوده باشا حيث يتخذ الصديق عدلى باعيسى من الطابق العلوى فيه مقرا لجمعية فقراء الجمالية ، أما الموقع الذى أسعى إليه عندما ينوء الضيق أويشتد الحنين ، فهو بيت السحيمى ، البيت مفتوح للزائرين ، لكننى أدخله كصديق للمشرف عليه ، المقيم فيه ، والذى يرجع إليه الفضل فى الحفاظ على روحه الخفية ، ونظافته التى تشعر بها للوهلة الأولى وعند أى مقارنة بالبيوت الأخرى ، كذلك الحفاظ على حديقته خضراء ، مورقة بالأشجار الجميلة ، سواء الحديقة التى تتوسط فناء البيت ، أو الحديقة التى تقع فى الفناء الخلفى ، إنه الصديق محمد مجاهد الذى ارتبط بالبيت منذ أيام عمره الأولى ، ومنذ طفولته تعلم فن النجارة العربية ، أى أنه متخصص فى خرط الخشب ، وتصميم الأرابيسك ، والحق أننى مدين له فى فهم هذا النوع من الفن الإسلامى ، فهو أنواع ، ولكل جزء منه اسم ، ومنه مابطل عمله ، ومنه ما زال ممكنا إنتاجه ، فى عام ١٩٥٦ كنت أمر بباب البيت ، وأختلس النظر إلى الحديقة ويتأجج الخيال ثم أمضى ، عند الاقتراب منه نرى جدرانه الرمادية ، ومشربياته ،المطلة على الطريق ، أما الباب فيؤدى إلى باب آخر يشكل معه زاوية قائمة ، كشأن كل بيوت القاهرة القديمة ، حتى لايمكن للمار فى الطريق أن يرى الفناء الداخلى ، بمجرد عبور الممر القصير يبدأ تأثير المنزل فى النفاذ إلى الروح ، منذ أسابيع طلب منى السفير الفرنسى بيير هانت أن يرى الجمالية من خلال عينى ، صحبته إلى بيت السحيمى وبمجرد دخوله إلى الحديقة ، قال كلمة واحدة : " السلام " .. قلت له : لقد

عبرت بهذه الكلمة عن الكثير ، فالبيت العربى القديم شديد الخصوصية ، إنه مصمت من الخارج ، مفتوح على الداخل يحجب الإنسان عن ضجيج العالم الخارجى ، إنه كون صغير ، مستقل ، يحتفظ بصلته مع السماء عن طريق الفناء المكشوف ، لاتصل إليه أصوات الخارج ، وإن تمكنت من النفاذ فهى شاحبة ، ضعيفة ، تضفى إحساسا بالبعد أكثرمما تضفى إحساسا بالقرب ، أما المعمارى القديم فقد راعى المناخ ودرجات الحرارة ، فصمم البيت بحيث يكون صيفا أبرد عشر درجات على الأقل عن درجة الحرارة فى الخارج، وذلك بواسطة ملاقف الهواء القائمة فى أعلى البيت ، تفتح صيفا فيتدفق الهواء البارد ، وتغلق شتاء فيسرى الدفء ، أين ذلك من مبانى الزجاج والألمونيوم التى شوهت وجه عاصمتنا ، والتى خرجت تصميماتها من ملفات الأجانب ، بدون مراعاة المناخ والبيئة ، وكأن قاهرتنا مدينة من مدن الثلج والضباب ،

* * *

أحب فى بيت السحيمى القعدة فوق الدكة فى الفناء أوبتعبير الزمن القديم ، التختبوش ، أجلس إلى محمد مجاهد ، نتحدث وأكاد أصغى إلى سعى الأسر التى تعاقبت على سكنى هذا البيت ، بناه الشيخ عبد الوهاب الطبلاوى سنة ١٠٥٨ هـ ١٦٤٨ م ، وفى سنة ١٧٩٧ م - ١٢١١ هـ اشتراه الشيخ إسماعيل شلبى ، أضاف إليه الجزء البحرى من البيت ، ويضم القاعة الكبيرة ، والقاعة الأرضية ذات الفسقية الرخامية النادرة ، والحجرة العلوية الجميلة المكسوة بالقيشانى ، أما الحجرة التى تطل على الحديقة الخلفية فى الطابق الأرضى ، فإنها تهدهد روحى ، ويخفف المكوث فيها من كآباتى ، فى هذه الحجرة مشربية عريضة أعتبرها من أجمل وأرق ماوصل إلينا من

هذا الفن ، تتوزع فيها أشكال جميلة ، لايتشابه إحداهما مع الآخر ، تفتت الضوء ، تحيله إلى همسات ضوئية ، وفى النهار يكون التأثير عميقا خاصة أن أشجار الحديقة الخلفية تشكل إيقاعا لونيا جميلا إذ يمتزج بالضوء ، أما القاعة التى كانت مخصصة لتلاوة القرآن ، فلا يسعك فيها إلا الخشوع والإصغاء بعمق إلى آثار لم تبل بعد لترتيل تم يوما هنا ، فى الطابق العلوى حيث الحرملك ،قاعة جميلة ، كسيت جدرانها ببلاطات الخزف التركى، أما الحمام فتتأمل فيه صنابير المياه الساخنة ، والأخرى الباردة ، تمضى غرفه وردهاته فى سلاسة ، تتعدد المستويات ، إن المهندس القديم راعى الظروف الاجتماعية السائدة ، وليس ظروف المناخ فحسب ، حيث كانت المرأة تتحرك بحرية بدون أن تنال منها العيون أو النظرات المتلصصة ..

* * *

فى بيت السحيمى نلتقى بفنان تشكيلى كبير ،سامى محمد على ، خلال الأعوام الثلاثة الأخيرة ألتقى به كلما ترددت ، لقد تفرغ لعملية فنية دقيقة ، إذ أنه يرسم قاعات البيت ،وزواياه ، وحدائقه فى لوحات ضخمة الحجم ، يمكن القول إنه يعيد خلق البيت من جديد ، يسجل النقوش ، أبيات الشعر المكتوبة على الجدران ، بردة البوصيرى ، يرسم من خلال منظور مستحدث يعبر عن الرؤية الإسلامية للكون ، رؤية شاملة ،يبدو فيها الكلى والجزئى ، يعمل الرجل فى صبر وأناة ، تذكرنا بأولئك الفنانين العظام المجهولين الذين أبدعوا هذه الحشوات الخشبية ، ونقوش الجدران ، والرخام ، ثم مضوا في صمت بدون أن يخلفوا حتى توقيعهم !

* * *

لبيت السحيمى متاعبه فى عصرنا ، فالطريق المؤدى إليه قذر ، ولاأدرى

العبقرى الذى استبدل الأسفلت بالحجارة القديمة فى رصف الحوارى هنا ، وعواصم أوربا تحافظ على شوارعها المبلطة بالحجارة ، حتى أن شارع الشانزليزيه مازال مرصوفا بها ، أيضا يواجه البيت متاعبه من الجيران فثمة مبنى مجاور يضم ورش المونيوم والمخارط التى تسبب ذبذبتها شروخا فى البيت ، أما الجيران القاطنون فى الناحية البحرية فسامحهم الله ، إذ يقذفون بمخلفاتهم فى الحديقة الخلفية ، وأحيانا بعض الأحجار .

* * *

لكل زيارة نهاية ، وإذ أنتزع نفسى من البيت ، فإنما أخلع ذاتى من زمن قديم ، رائق ، ولىّ ، أشد على يد محمد مجاهد ابن الجمالية ، ابن البلد الذى لم يفقد سماته بعد ، أخرج إلى الدرب الذى كنت ألعب فيه وأنا ابن عشرة أعوام ، أمضى بخطى بطيئة بحثا عن زمن مفقود !!

يوليو ١٩٨٧

رسالة من بعيد ..

مظروف أصفر متوسط الحجم ..

تأملته كعادتى قبل أن أفتحه لأعرف مصدره ، من الطوابع ، أومن الأختام ، يحمل اسمى وعنوان دارالنشر " لوسوى " الفرنسية التى أصدرت روايتى " الزينى بركات " ، عنوان الدار مشطوب وبدلا منه كتب بحروف أخرى عنوان بيتى فى حلوان ، فتحته ، وجدت خطابا من صفحتين مكتوب بالفرنسية ، وخريطة سياحية لبلد فى هذا العالم اسمه "بورتريكو " ، ومجموعة صور لأشخاص لا أعرفهم ، وصورة حديث صحفى أجرى معى فى فرنسا ونشر فى جريدة ليبراسيون ، الحديث هو الوحيد الذى أعرفه ، عنوانه " القاهرة فى قلب الغيطانى " ، أجرته معى الصحفية الفرنسية جوزيه جارسون منذ ثلاثة أعوام ..

قلبت الأوراق ، ماعلاقتى أنا بجزيرة بورتريكو ؟ ومن أعرف هناك ؟ ، طلبت من زوجتى التى تتقن الفرنسية أن تقرأ لى الخطاب ، رحت أصغى ..

* * *

عزيزى السيد غيطانى ..

سررت بمعرفة وجودك ، واسمك عن طريق جريدة ليبراسيون بتاريخ السبت ٢٢ ابريل ١٩٨٥ ، أرسلها إلى أخى بول الذى يعيش فى جزيرة " فرانسوا دى جواد يلوب " ، أنا أيضا ولدت فى جزيرة جواد يلوب بالبحر الكاريبى .

قرأت روايتك " الزينى بركات " التى أرسلتها إلى ابنة أختى السيدة راشيل بشارة ، وهى تعيش فى باريس ، ومولودة من أختى الكبيرة راشيل سركيس جيتانى (الاسم بالحروف اللاتينية هكذا Gitany ، واسم عائلتى يكتب عند ترجمته بنفس الحروف) .

أنا أنحدر من أب وأم لبنانيين ، ولدا فى شمال لبنان ، فى بلدة زغرتا ، عرفت اسمك الذى يشبه اسمى ، هل يمكن أن نكون من أسرة واحدة ؟ وحتى أسهل عليك سوف أقدم إليك أسماء أجدادى .

جدى ، بيار جيتانى .

أبى ،إيلى جيتانى ، مولود فى زغرتا عام ١٨٦٥ ، وهاجر الى بورتريكو فى ١٨٦٥ ، حيث ولد أخي بيار ١٨٩٦ ، والذى هاجر فيما بعد إلى الجزيرة الفرنسية جواد يلوب حيث ولدت شقيقتى جرمين في ١٩٠٠ ، وقد دفنت هناك في ١٦ ديسمبر عام ١٩٤٣ .

أمى هي دورا فرنجية تشيكري المولودة فى ١٨٧٥ ، وهى قريبة الرئيس السابق للبنان سليمان فرنجية ، وقد توفيت ودفنت فى لبنان فى ٢٥ مايو ١٩٥٤ .

أرجو أن تخبرني باسم جدك وأبيك ومكان مولدك ، وهكذا يمكننى أن أعرف إذا كنا ننحدر من نفس العائلة ، وقد عرفت أن اسم جيتانى يوجد فى

المكسيك ، وفى الأرجنتين وفى استراليا ، وأيضا فى جنوب فرنسا .

مع كل احترامى لك وللسيدة زوجتك .

جوزيه جيتانى فرنجية ، المولود في ١٣ فبراير ١٩٠٥ .

* * *

انتهى الخطاب ، بدأت أقلب محتويات المظروف ، نصوص الرسائل المتبادلة بينه وبين دار النشر الفرنسية ، خريطة بورتريكو وعلى موضع منها دائرة تشير إلى مكان مزرعة المسيو جوزيه جيتانى ، وبطاقته التى تحمل عنوان المنزل الصيفى والمنزل الشتوى ، ومقر شركته ، ثم عدة صور للرجل فى مزرعته ، ومع بعض أقاربه ، الصور حديثة جدا وعلى ظهر كل منها توقيعه وتاريخ اليوم الذى التقطت فيه ،نوفمبر ١٩٨٨ .

طبعا واضح أن المسيو جيتانى رجل أعمال ، وأنه ثرى جدا ، رحت أتأمل ملامحه ، إنه نحيل ، متقدم في العمر ، لكنه يبدو فى صحة جيدة ، ملامحه شرقية ، أسمر ، كأنى ألمح بعضا من الشبه بينه وبين بعض أقاربى !

* * *

ولم أستطع أن أمنع أفكارى من التداعى ، هذا رجل ثرى يعيش في آخر الدنيا ، وقعت عيناه على اسمى ، ربما كانت ثروته تقلقه ، ربما يبحث عن وريث ! ، هل ستنزل على ثروة من بورتريكو ، هذه الجزيرة التى تقع فى آخر الدنيا ولا أعرف موضعها بالضبط ، قرب أمريكا ، كل ما أعرفه أنه يوجد حى فى نيويورك يسكنه البورتريكيون ، وأنه من الأحياء المخيفة ، غير الآمنة ، من قال لى ذلك ؟ لا أدرى .

هل يحدث تحول فى حياتى أصبح صاحب مزرعة فى بورتريكو ؟

لكن أنا لا أستطيع العيش بعيدا عن مصر ، بسيطة .. إذا ورثتها أبيعها وأعود إلى القاهرة لأضع ثمنها فى البنك ، وأطلب إحالتى إلى التقاعد ، أمتلك وقتى كله ، وأتفرغ تماما للأدب ، أنجز مشاريعى الروائية وأنا خلى البال ، مطمئن ، لايعنينى التضخم أورفع الأسعار ، وربما حاولت امتلاك شقة قريبة من القاهرة ، بدلا من السكن البعيد فى حلوان ، وربما أسست دارا للنشر ، أطبع فيها كتبى ، وأحل أزمة النشر بالنسبة لأبناء جيلى الذين مازالوا يعانون فى نشر مؤلفاتهم ، وكذلك الأدباء الجدد الموهوبون ..

ولماذا دار نشر فقط ؟ لماذا لا أصدر مجلة أدبية شهرية ،الواقع الثقافي في حاجة إليها ، هل أتردد أوأحجم ؟ لاطبعا .. ولكن .. هل نسيت المسابقات ؟ ، لابأس من تخصيص جزء ولو بسيطا ، أقدم من خلاله جائزة لأحسن رواية ، وأفضل مجموعة قصص ، وأفضل ديوان شعرى ..

وأعود لأتأمل صورة الرجل ..

لكننى نسيت أمرا هاما ، الرجل مسيحى مارونى وأنا مسلم . هذا لايمنع، فأنا أعرف أسرا عربية فيها الديانات الثلاث ، خاصة فى لبنان ، وهذا نتيجة تعدد الطوائف هناك والزيجات المختلفة .

غير أن أحلام اليقظة لم تستمر حتى النهاية ، وكان على أن أرد على مسيو جيتانى بخطاب حتى أريحه على البعد ..

* * *

طبعا شكرته على اهتمامه ورجوت له أن يجمع الله شمله على أقاربه ، ولكننى للأسف لا أمت إليه بصلة قرابة ، فأنا أنتمى إلى قبيلة عربية قديمة،

حاربت تحت لواء الرسول الكريم سيدنا محمد ، واشتركت فى فتح مصر ، وهى قبيلة جهينة ، وقد استقر جزء منها فى فاقوس بالشرقية ومن هذا الجزء ينحدر صديقى الكبير محمد عودة ، ثم أوغلت القبيلة فى صعيد مصر ، واستقر جزء كبير منها فى سوهاج ، ومن هذا جئت أنا ، وواصلت التقدم جنوبا حتى دخلت السودان ، وشاركت فى فتحه .

أما عن عائلتى ، فاسمها عائلة سلامة ، وهى إحدى عائلات ربع حسام الدين ، بجهينة الغربية ،والغيطانى هواسم جدى فقط وليس اسم عائلتى ، ولايوجد أى شخص يحمل اسمه فى جهينة ، وذكرت له أن هناك عائلة كبيرة فى دمياط تحمل اسم (الغيطانى) ولكننى لا أمت إليها ..

وأخيرا فإن اسمى هو الغيطانى ، وإذا كانوا ترجموه أوكتبوه فى الفرنسية مسيو (جيتانى) فهذا لعدم وجود حرف الطاء فى اللاتينية .

طبعا انتهت خيالات اليقظة ، وحلت محلها صور وأفكار أخرى حول هذه الصلة ذات البعد الإنسانى ، محورها هذا المغترب العجوز الذى يبحث عن جذوره ،وفروعه ، حتى مايخيل إليه أنه ينتمى إليه ولو من بعيد .

كذا فكرت فى أجدادى البعيدين جدا ، الذين انحدرت منهم، والذين لاأعرفهم ، لم التق بهم قط ، لأن بينى وبينهم أزمنة سحيقة ، ولن ألتقى ! .

* * *

الجمعة:

القاهرة فى يوم عطلة شتوى ، وسط المدينة شبه خال ، مارة قلائل ، ورياح تثير دوامات صغيرة من التراب وقشعريرة تسرى فى الجسد ،

والسماء رمادية ، مثقلة بالغيوم ، أمشى فوق الرصيف المتآكل فى شارع هدى شعراوى متجها إلى مقهاى " الندوة الثقافية " معللا النفس بلقاء أحد الأصدقاء ، وشرب كوب ساخن من القرفة ، وتدخين النرجيلة بهدوء ..

سمعت صوت امرأة ، كانت قادمة ورائى ، تمشى بخطى سريعة :

- ربنا كريم .. ربنا مايسيبش حد أبدا ..

عندما حاذتنى اكتشفت أنها بمفردها ، وأنها تتحدث بصوت مرتفع ، قصيرة ، ترتدى جلبابا أسود خفيفا ، وتلف رأسها بطرحة سوداء ، فكرت فى البرد ونفاذه إلى جسدها التى تجاوز الستين ، كانت تمسك بكيس من البلاستيك فى يدها اليسرى التى تدلت إلى جوارها ، لمحت داخله أرغفة خبز ، ولفافة قدرت أنها تحتوى (غموسا) ، أمايدها اليمنى فراحت تلوح بها فى الفراغ ، وكأنها تخاطب قوما لاوجود لهم ، أوتشهد نفرا لاتراهم إلافى مخيلتها ..

- العبد فى تفكير والرب فى تدبير ..

تضع يدها مبسوطة الأصابع فوق رأسها :

- ياسلام ياناس .. ياسلام ..

تشير إلى السماء :

- إنت فاكر عبادك يارب .. انت اللي فاكرهم .. مش ممكن تنساهم أبدا .

ثم تبسط يدها إلي الأمام :

- وأنت يابنى آدم تفضل تفكر وتفكر ومانتش عارف إيه اللى مستنيك ..

تصيح :

- أحمدك يارب .. أحمدك ..

ترفع أصبعها السبابة :

- يعنى لوكنت تأخرت شوية .. خمس دقائق ماكنتش حلاقيه .. ماكنتش حقابله .. لكن الحمد لله .. الحمد لك والشكر ..

ترفع صوتها أكثر :

- يعنى لوكان مشى قبل ماأوصل أنا كنت حعمل إيه دلوقتى .. كنت حروح البيت إزاى ؟

تغير لهجتها :

- لكن أنت يارب بتدبر كل شئ .. أحمدك .. أحمدك . ياسلام يابنى آدم لو تتعظ ..

كانت خطواتها أسرع وأنشط منى ،ولأن سمعى ثقيل بعض الشئ ، فقد تضاءل صوتها أمامى وهى تبتعد عنى ، لم تكن هى المرة الوحيدة التى ألتقى أوأقابل فيها أحد أبناء مدينتى وهو يكلم نفسه فى الشارع ، هذه ظاهرة تزايدت فى الأعوام الأخيرة ، لكن هذه المرأة العجوز تركت فى نفسى حزنا بحضورها الأمومى ، ونبرة صوتها ، والطعام القليل الذى تمسك به ، قبل أن أعرج عند الناصية المؤدية إلى المقهى وقفت أتابعها فى ابتعادها ، لم أسمعها ولكنها كانت ماتزال تشير بيدها ، تلوح بأصبعها ، مرة إلى الأرض، ومرة إلى السماء الرمادية ، الشتوية ، النائية ..

* * *

الأحد:

.. مع الغروب كنت أقترب من مبنى كلية النصر بالمعادى ، أمضى إلى اجتماع الجمعية العمومية للآباء ، دار الزمن دورته ، وأصبحت أبا ، تذكرت

فى خلاء شوارع الضاحية أبى ، ترحمت عليه ، وقرأت له الفاتحة ، من ذاكرتى انبعثت لحظة معينة ، لحظة حضوره اجتماعا لمجلس آباء مدرسة محمد على الإعدادية ، لحظة دخوله إلى الفناء وإمساكه المقعد قبل جلوسه، لماذا هذه اللحظة بالذات هى التى علقت بذهنى ؟ ، لاأدرى ، فلست عليما بقانون الذاكرة الإنسانية .

استعدت أيضا شطرا من أغنية لوديع الصافي ..

" والله صرت بَىْ ياأبى وعرفت عطفك علىّ .. "

دائما أعيش الماضى فى لب الحاضر ، ينطبق علىّ قول شيخى الأكبر محيى الدين بن عربى " الإنسان مفقود بين لحظتين ، لحظة مضت لن تعود أبدا ، ولحظة آتية ربما لن يبلغها .. "

ينتزعنى صوت السيدة عفاف فؤاد مديرة الكلية من تأملاتى ، هى مربية كبيرة ، أعرف مؤلفات والدها المرحوم محمد فؤاد عبد الباقى الذى ألجز عملا باهرا هو (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) وهذا عمل علمى خالد يعجز الكومبيوتر الحديث عن الجاز مثله ، بذل فيه ثلاثين عاما من عمره ..

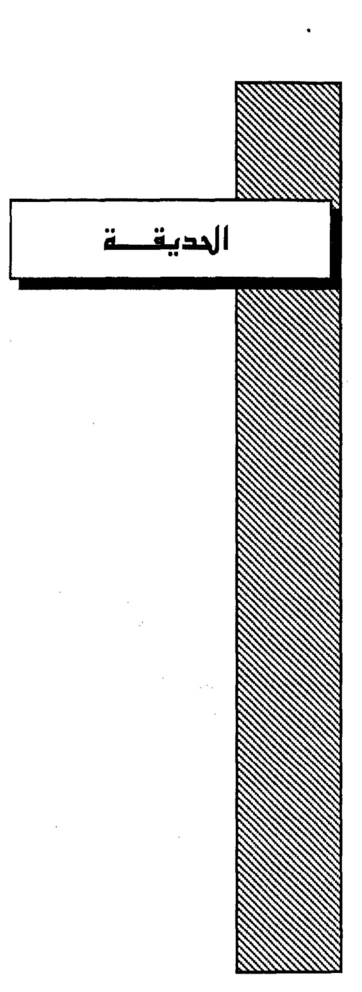
تلقى السيدة عفاف تقريرا مفصلا يعكس فهما دقيقا للعملية التربوية والظروف التى تحيط بالتعليم ، الظروف التى تتصل اتصالا مباشرا بالمجتمع ومايجرى فيه من تطورات ، وأتمنى أن تتاح الفرصة لأعرضه في يوميات قادمة لمضمونه الهام .

يتحدث بعض أولياء الأمور .

ومرة أخرى تلح علىّ صورة أبى الراحل فى هذه اللحظة بالذات ، عندما

كنت ابنا لايعول هما ، ولاينوء بالأثقال ، الآن أصبحت في موقع الأب ، ولم يكن بوسعى إزاء ضغط الماضى البعيد إلا أن أطلب له الرحمة ، كما ربانى صغيرا .

اغسطس ١٩٨٧



الحديقـــة

إذن .. حانت اللحظة التى توقعتها طوال السنوات الماضية ! عندما نزلت ضاحية حلوان للسكنى منذ أربع عشرة سنة ، حببنى إلى المكان هدوء شارع حيدر الذى يقوم به المبنى ، فى مواجهتنا مساحتان كبيرتان تمتان إلي حلوان الزمن القديم ، الجميل ، الأولى فسيحة ، خالية ،قيل لى إنها ضمن حديقة كبيرة ، كانت كثيفة الأشجار ، زاهية الخضرة ، يتوسطها مبنى ينتمى إلى نهاية القرن الماضى ، به فندق شهير ، كان اسمه (جلانز) ، يجئ إليه الباحثون عن الاستشفاء بمياه حلوان المعدنية وجفاف مناخها الشتوى ، وصفاء جوها قبل أن تشيد فى المنطقة مصانع تجاوزت الستين عددا ، منها أربعة مصانع أسمنت تصب غبارها الكثيف في صدورنا الآن ! فى الفندق كانت تقام أمسيات موسيقية ، وحفلات سجلت آلة التصوير بعض لحظاتها ، وطبعت الصور فى كتاب صدر فى باريس منذ عامين بعنوان " فنادق الشرق " .

جئت إلي حلوان بعد هدم مبنى الفندق ، واجتثاث أشجار الحديقة ، رأيت بقاياه ، نوافذ كبيرة ، وأحواض استحمام من الطراز القديم وصنابير نحاسية ، وأعمدة رخامية ، وألواح زجاجية .

بيع هذا كله ، ثم أصبحت الأرض الفراغ تابعة لأحد البنوك ، اتخذ منها

مخزنا لصناديق ضخمة متشابهة لم أدر محتوياتها ، ثم أخلى المخزن ، وقسمت الأرض ، وبدأت تظهر مبان حديثة، والآن يشيد فوق جزء منها بناء هائل سوف يضم قاعتى عرض للسينما ، واحدة صيفية ، وأخرى شتوية ، فأى ضجيج مقبل ؟ وأى زحام سيملأ الطريق الذى كان أشد مايجذبنى إليه الهدوء ، كانت مساكن حلوان القديمة مشيدة فوق مساحات شاسعة من الأرض ، ويكفى لتصور ذلك ، أن أحدها هدم وتقام مكانه الآن مدينة سكنية متكاملة تضم ألف وحدة وأكثر .

معظم مبانى حلوان هدمت ، عدا واحد ، لحسن حظنا أن شرفة مسكنى تطل على حديقته الجميلة .. ولكن !!

***

غابة صغيرة ، متنوعة ، تنبثق وسطها شجرة صنوبر مخروطية ، يندر رؤية مثلها فى القاهرة ، أو المناطق الحارة ، ونخيل ، وأشجار مختلفة الأنواع ، كافور ، سنط ، جازورينا ، صفصاف ، وأشجار توت .

حدثنى أهالى حلوان القدامى عن صاحب البيت ، كان رجلا لطيفا ، محبًا للنبات ، حتى أنه جمع النادر منه فى تلك الحديقة التى تعد بحق متحفا حيا ، أدركته زوجتى عندما كانت طفلة ، تمضى إلى مدرستها الابتدائية ، يقعد أمام البيت فوق مقعد خشبى ، يبتسم للأطفال ، ويوزع عليهم زهور الياسمين ، كان أمره مشهورا ، معروفا ، كان طيب السيرة ، ولابد أنه كان على درجة عالية من الذوق ، ورقة الإحساس ، وحب النبات ، الذى أمضى عمره فى جمع النادر منه .

تحيط البيت حديقة يؤطرها سور من الحجر ، مرتفع ، تبدو منه غصون أشجار التمر حنة والسوسن ، فى الربيع تفيض رائحتهما على المكان ،

فيعبق الهواء ، أما أهم معالم هذه الحديقة فكان مجموعة الصبار النادرة ، تقع أمام الشرفة مباشرة ، شجيرات لا أظن وجود مثيل لها فى مكان واحد، لا أعرف أنواعها ، فلست خبيرا ، ولكننى كثيرا ماجلست ساعات العصارى قبل تأهبى الجلوس إلى المكتب ، أطيل النظر إليها ، صبار طويل نحيل من أسفل ، غليظ من أعلى ، أشم الوقفة ، راسخ الطلة ، صبار مستدير فى حجم ثمر البطيخ ، شجيرات منه ورقها رقيق ، صغير ، كآذان الدجاج ، شجيرات أخرى متجاورة ، متماسكة ، وأخرى متباعدة ، أنواع عديدة ، معرض حى للنبات النادر ، الذى ينمو فى صحارى الدنيا ، ولديه قدرة عجيبة على البقاء بدون ماء ، ومقاومة أشق ظروف المناخ ، مر المذاق ، عرفه الكثيرون منا فى طفولتنا عندما ذقناه فبدأ الفطام ، ومفارقة ثدى الأم ، والانتقال من طور إلى طور .

ساعات طوال سرحت الطرف فى هذا الجزء من الحديقة ، تطلعت إلى الشجيرات النادرة ، وكثيرا ماخفف ذلك همى ، وبدد كربتى ، وساعدنى على الرحيل من فكرة إلى فكرة وبعث عندى لحيظات قدامى ظننت اندثارها وبيدها .

وكنت أسال نفسى دائما : ليت ذلك يدوم .. لكن إلى متى ؟

* * *

كل المباني العتيقة أزيلت ، أسعار الأراضى في ارتفاع كبير ، وهذه الأرض تقدر بالملايين ، ولكننى سمعت ولا أدرى الآن ممن ؟ أن أبناء الرجل الطيب الراحل يقيمون بعيدا ، ربما فى الإسكندرية ، ربما في أوروبا ، وأنهم يحتفظون بالمكان ذكرى طيبة وعبير أسنى لوالدهم الراحل .

كنت فى الصيف ألمح بعض الوطاويط تطير بين الأشجار الكثيفة ،

ولكن إذ يشرف النهار لاأرى الا زهو الخضرة ، ولا ألمح إلا شجيرات الصبار النادرة ، وإذا كان النخيل يوحى لى بالزمن العتيق وديمومته ، فإن الصبار يوحى لى بالأزل ، بالأبد الذى لن أدركه ، والحياة التى تستمر رغم تقلب الأحوال ، وتواتر الظروف .

* * *

فى الأسبوع الماضى ظهر بعض اليابانيين فى الحديقة ، تجولوا وجاسوا خلال النبات ، وانحنوا ، عاينوا ، وفحصوا ، لما عرفت ذلك ، أوجست خيفة، قضوا وقتا يتطلعون إلى شجيرات الصبار .

واليوم ، عند عودتى ، قالت زوجتى بأسى :

- تصور .. نزعوا الصبار ..

هرعت إلى الشرفة ،لم أرإلا خطوطا من الطين الجاف ، وقنوات ضيقة ، أيد خبيرة قلعت النباتات النادرة التى أمضى الراحل عمرا في جمعها ،هكذا تلاشت مجموعة أؤكد مرة أخرى أنه يندر اجتماعها أونموها فى حديقة ما فى وادينا ذى الزرع ، كان المشهد مؤلما ، كمد قلبى ، هذا نذير ، صحيح أن البيت مازال قائما ، وأشجار الحديقة الباسقة ... لكن ... إلى متى ؟

* * *

باريس:

شهدت زيارة عرفات لباريس ، رأيت وسمعت وقرأت أصداء الضجة التى أحدثتها ، لفت نظرى التغطية الإعلامية الواسعة لها ، خاصة فى التليفزيون بدءا من لحظة إقلاعه من تونس فى الطائرة الصغيرة التى تحمل اسم الخطوط الجوية العراقية ، بدا عرفات فى الطائرة عند تأهبه للوصول ،

يلف الحطة الفلسطينية على رأسه ، ثم تركيز على يديه الممسكتين بالمسدس وبعض الطلقات التى راح يحشوه بها ، فى المقعد الخلفى يجلس الشاعر محمود درويش والذى رافق عرفات .

عقب نشرة الأخبار ، حوار معه فى معهد العالم العربى ، كان يجلس فى قاعة عرض الكتب ، يسأله أهم مذيع فرنسى باتريك بوافرد ارفور ، وهو شقيق القنصل الفرنسى فى الإسكندرية ، عرفات يبدو هادئا مبتسما ، يتحدث بالعربية ، عندما سأله المذيع عمايقال حول القضاء على إسرائيل ، قاطعه عرفات معترضا ، قال إنه انتخب فى المجلس الوطنى الأخير على أساس أن هناك دولتين ، والتفت إلى شخص لم يكن باديا على الشاشة ، قال إن هناك تعبيراً بالفرنسية ، ثم نظرإلى المشاهدين ، ونطق هذه الكلمة الفرنسية التى ماتزال حديث وسائل الإعلام الى الآن ، والتى تعنى التجاوز، قال إن الأحداث تجاوزت الميثاق الوطنى الفلسطينى ،وعندما سأله المذيع عن المذابح التى تعرض لها اليهود ، قال عرفات :إنه حزين على ضحايا النازية الهتلرية وقال : حرام مواجهة مذابح جديدة للفلسطينيين على أيدى الذين عانوا من مذابح النازية .

كان عرفات هادئا ، مبتسما ، بعكس معظم اليهود الذين ظهروا بعده وبدوا عصبيين ، غاضبين .

ثم عرض التليفزيون مشاهد من المظاهرة المؤيدة لياسر عرفات والتى شارك فيها أكثر من خمسة عشر ألف شخص من الفرنسيين والعرب ، وسارت مسافة ثلاث كيلو مترات ولمدة تزيد على ساعتين وكانت شعارات السلام مكتوبة ، منطوقة .

ثم عرض اجتماعا ضخما لليهود فى شارع قريب من الشانزليزيه ، وكان

الخطباء يتعاقبون متوعدين ، مهددين ، مرددين : " ميتران خائنا " ثم عرضت القناة الأولى فيلما لمظاهرة ضخمة من اليهود أمام فندق الكريون الذى أقام به عرفات ، كان بعضهم يهتف : " الموت لعرفات الإرهابى " ، ثم ظهر فلسطينيان لوحا بالعلم الفلسطينى ردا على العلم الصهيونى ، ثم ألقيا بباقات الزهور على المتظاهرين اليهود الذين يهددون ، ويسبون ، ويتوعدون .

فى القناة الأولى عرض فيلم عن المعتقلات النازية التى يقال إن عدة ملايين من اليهود أبيدوا فيها .

على أية حال .. اختلفت الصورة ، فعرفات يتحدث عن السلام ، واثقًا ، مبتسمًا ، هادئًا ، الفلسطينيون يوزعون الزهور على من يسبونهم ، الصورة تتغير فى العالم الغربى .. الصدى الإعلامى كبير وإيجابى ، لكنه بالتأكيد ، ليس الطريق الرئيسى والوحيد إلى .. دولة فلسطين المستقلة !

الفارس ..

هوى نجم ساطع في سماء العسكرية العربية .

نزل النبأ كصاعقة ، ورغم اعتيادى سماع فراق الصحب ، لكن الموت مازال قادرا على المباغتة ، وإثارة الدهشة والروع ، أذكره فلا ألقى إلا كلمة واحدة تلخصه " فارس " ، نعم .. كان الفريق ركن عدنان خير الله فارسا بحق ، فى السياسة ، فى الحرب ، فى الخلق النبيل ، أمضى من عمره ثلاثين عاما متصلة فى المعسكرات ، فى مواقع القتال المتقدمة ، لم يعرف الحياة المدنية إلا من بعيد ، وعندما التقيت به زمن الحرب ، إما فى بيته فى ضواحى بغداد ، وإما فى الجبهة ، كنا نتحدث فى الأدب ، فى الفن ، فى تفاصيل الحياة الصغرى العادية التى كان نائيا عنها ، كان هو المسئول

الأول عن إدارة الحرب التى دامت ثمانى سنوات ، وكان موقعه فى أقصى النقاط الأمامية ، كان شجاعا بحق ، يفيض بالحيوية ، وفى معارك العراق الكبرى كان يمضى أياما متواصلة بدون نوم ، بالحد الأدنى من الزاد .

عرفته قبل أن يصبح وزيرا للدفاع ، في عام ١٩٧٥ ، فوق مرتفعات شمال العراق ، عندما كنت أعد سلسلة تحقيقات صحفية عن دور الجيش العراقى في حرب أكتوبر ، كان برتبة عميد وقتئذ وكان رئيسا للمكتب العسكرى لحزب البعث ، لم أعرف شخصه إلابعد أن فارقته ، ثم قرأ بعض ماكتبت ، وفى كل مرة ازور فيها بغداد أقابله ، كان زاهدا تماما فى الإعلام، لايدلى بأحاديث صحفية إلا نادرا ، وطوال السنوات الثمانى للحرب لم يدل إلا بأربعة أوخمسة أحاديث فقط كان نصيب الأخبار منها ثلاثة ، ومنذ ثلاثة أعوام اقترحت عليه أن يلتقى ببعض الكتاب المصريين الذين حضروا مهرجان المربد ، وقضينا يوما كاملا فى بيته الريفى الهادئ ، والذى بناه على هيئة بيوت الأهواز المصنوعة من القصب ، وتحدث الأصدقاء معه فى السياسة ، فى الأدب ، فى الفن ، وكان نهارا جميلا ، رقيقا ،مازال الأصدقاء الكبار فتحى غانم ، سليمان فياض ، يوسف القعيد ، فاروق شوشة ، سامى خشبة ، فريد الشوباشى ، يذكرونه ، أتطلع الآن إلى الصور التى سجلت بعض لحظات هذا اليوم ، صورته وهو يحنو على ابنته رانيا الصغرى ، ولا أصدق أن هذا الإنسان الفارس النبيل قد اختفى ، لكم مربأخطار ، لكم اكتوى بلهيب معارك مهولة ، ونفذ منها ، ويشاء القدر أن يمضى إلى الأبد بسبب عاصفة أطاحت بطائرته ، هو الطيار القديم .

منذ خمس سنوات أصابت ساقى جلطة ألزمتنى الفراش عدة أسابيع ، كانت الحرب مشتعلة ، ولكنه اتصل بى من بغداد ، يستفسر ويسأل عن

تفاصيل العلاج ، وعند ماجاء فى زيارته الوحيدة إلى القاهرة ، كنت مسافرا ، سأل السفير سمير النجم سفير العراق وقتئذ عنى ، وعن جلطة ساقى ، وطلب إبلاغ السلام ، وبلغنى سلامه ، فهل يبلغه سلامى الآن ، وحزنى على فارس وهب عمره لشعبه وأمته ؟

* * *

حـــوار :

(١)

عندما فتح الباب ، وبدا الأب ، قالت ابنته الصغرى باكية :

- أنت ماجبتليش تفاح ؟

قال الأب :

- مافيش تفاح فى البلد ياحبيبتى .

قالت ملوحة :

- لا .. شيماء كان معاها تفاح فى المدرسة النهاردة !

* * *

(٢)

قالت الطفلة لشقيقها الذى بدا فرحا لأنه اصطاد سمكة :

- ممكن ترجعها لأمها .

نظر إليها حائرا ، تقدمت منه أخته التى تبلغ من العمر أربع سنوات ، لونت صوتها ..

- دلوقتى أختك لوحد لقيها لوحدها يعمل إيه ؟ مش يرجعها لأمها ؟

قال شقيقها :

- طبعا .

قالت :

- طيب ليه تخلى السمكة دى بعيدة عن أمها ؟

* * *

(٣)

قالت الطفلة :

- ماما .. هو ربنا فين ؟

قالت الأم :

- فى كل مكان .

قالت الطفلة :

- أمال لما بنقول يارب .. بنرفع رأسنا ليه ؟

* * *

(٤)

قال الأب للأم :

- اسألى عن خالك ، إنه مريض ..

قالت الأم :

- أبدأ أنت بالسؤال عنه .. سيكون هذا لطيفا منك .

قالت الطفلة متدخلة في الحديث :

- واسألوا عن جدو كمان ..

ساد صمت ..

تابعت الابنة الصغيرة :

- مش لازم نسأل عن جدو برضه ؟

ثم قالت :

- أصله غاب قوى .

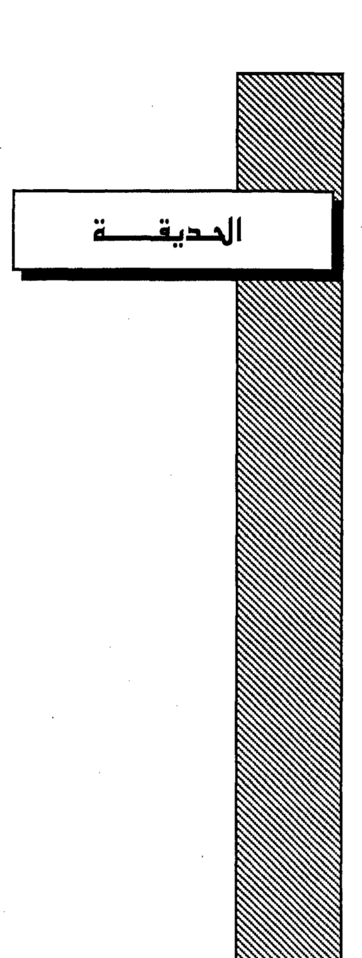
ثم قالت :

- هو راح عند ربنا صحيح ؟

ثم سألت مترددة إزاء وجوم الوالدين ..

- أمال حنشوفه إمتى ؟

اغسطس ١٩٨٧



الحديقة

.. يسكن صديقى أحد البيوت فى منطقة منشية البكرى ، إنه فى الطابق الأول ، وخلف البيت حديقة صغيرة ، لايذكر متى رأى هذه القطة ، كانت قطة جميلة ، رشيقة ، اتخذت من سلم البيت مقرا ، أصبح عالمها ، رأى أطوار حياتها ، ولادتها عدة مرات ، حنوها على صغارها وحملها لهم بأسنانها لتقيهم عن مواقع الخطر ، حتى إذا كبروا وأصبحوا قادرين على إطعام أنفسهم ، أقصتهم عنها ، وعندئذ ينتشرون في المنطقة ، أما هى ، القطة الأم ، فلم تفارق البيت ، اختارت أوارتبطت بأسرة صديقى هذا ، كانت إذا رأته أوشاهدت ابنته أوزوجته تموء ، وتصاحبهم حتى باب المسكن ، ثم ترتد إلى مكانها عند أسفل السلم ، وعند خروجهم تهرع لمصاحبتهم حتى باب البيت ، ثم تعود إلى مكانها أيضا ، استمر الأمر هكذا عدة سنوات ، وفى لحظة معينة بدأ المرض يظهر على القطة التى يبدو أنها أوغلت فى الشيخوخة ، كانت هزيلة ، وأصبح صوتها يحمل قدرا كبيرا من الألم والشكوى ، اتخذت لها موقعا مرتفعا من السلم يشرف على مدخل شقة صاحبى ، لم تكن قادرة على الحركة ، ولم تتخلف ابنة صديقى عن تقديم الطعام إليها ، ووضعه أمامها ، وبقيت القطة فى مكانها ، ولمدة يومين امتنعت تماما عن تناول أى طعام ، كان يصدر منها أنين خافت ، إلا أنها لم تحد بنظرها قط عن مدخل شقة صاحبى حتى وافتها المنية ، وسكنت إلى الأبد ، وعندما نظروا إلى جثمانها الهامد ، بدت وكأنها تتطلع إليهم !

الاثنين

.. دعانا المهندس الحسينى عبد السلام لزيارة مترو الأنفاق ، كان الزميل محمد عرفه متحمسا ، دائب الحركة منذ أن خرجنا من مبنى أخبار اليوم قاصدين المترو ، الأستاذ سعيد سنبل والزملاء الصحفيون ، والصحفيات ، إنها المرة الأولى التى أرى فيها هذا الإنجاز العظيم ، عندما نزلنا المحطة الرئيسية بميدان التحرير ، بدا الأمر وكأننا انتقلنا إلى عالم مختلف ، مغاير لما نعيشه يوميا فوق الأرض . قاهرة أخرى تلك ، المحطة فسيحة جدا ، وفى البداية انتابنى إحساس أننى فى مكان شبيه بمترو باريس ، ولذلك كنت مشغولا بالبحث عن الخصوصية ، الخصوصية وفرها الفنانون الذين صمموا المحطات .

محطة الزعيم جمال عبد الناصر ، أقرب المحطات إلى أخبار اليوم ، تلك التى سيصبح وصولى إليها أوذهابى منها جزءا من حياتى اليومية ، فأنا من سكان حلوان البعيدة ، صورة جمال عبد الناصر التى صممت بالكومبيوتر ، والتى تبرز ملامحه من خلال النقاط المنفصلة المتصلة ، فكأنه ذلك الماضى القريب البعيد الذى عشناه وتفتح وعينا عليه ، بالضبط كان شعورى وأنا أتطلع إليها كشعورى عندما أستمع إلى صوته الآن يؤمم القناة ، أويتحدث عن الثورة ، أشعر بفارق زمنى رهيب ، طويل ، فكأنه آت من بعد سحيق ، مع أن المسافة الزمنية لاتتجاوز السبعة عشر عاما ، ولكنه الواقع الذى شهد زخما من الأحداث جعلتنا نشعر أن هذه السنوات كالقرون الطوال .

اغسطس ١٩٨٧

القلب صياد وحيد ..

.. بعدما يقرب من ثلاثين عاما من قراءة الإبداع ، مئات الروايات خاصة، نشأت علاقة حميمة بيني وبين عدد محدود منها ، تماما كالعلاقة مع البشر ، عدد محدود قريب مني دائما ، أشعر بوحشة لوافتقدت موضع إحداها في المكتبة يوما ، وأحيانا بعد طول انقطاع أحن إليها كما يحن الصديق أوالإلف ، فأسعى إلى استعادتها مرة أخرى ، منها ثلاثية نجيب محفوظ ، وموبي ديك لهيرمان ميليفيل ، وجسر على نهر درينا لايفو اندريتش ، والروايتان الأخيرتان أقدم على قراءتهما قبل شروعي في كتابة عمل روائي طويل تيمنا وبشرى ، منها أيضا بعض أعمال تشيكوف خاصة رواياته القصيرة ، والعالم سنة ١٩٨٤ لجورج أورويل ، والبحث عن الزمن الضائع لبروست ، وألف ليلة وليلة ، أعمال عديدة أصبح الارتباط بها حميمًا .

وفي الأعوام الأخيرة أضيفت رواية أخرى ، إنها " القلب صياد وحيد " لمؤلف أمريكي لا أعرف عنه إلا اسمه ، كارسون ماكلرز ، منذ حوالي ست أوسبع سنوات عرض التليفزيون فيلما مأخوذا عن هذه الرواية ، أثر في تأثيرا عميقا ، وللأسف لم يتكرر عرضه ، ومر عام وأثناء إحدى جولاتي بسور الأزبكية ، عثرت على الرواية ، ترجمها في الستينيات رجا جورج

ومــتــرى شــمــاس ، وصــدرت عن دار الفكر العــربى ، ســارعت بقــراءتهــا ، وانضمت إلى الروايات الحميمة رواية أخرى ، تدور أحداثها فى إحدى مدن الجنوب الأمريكى ، أما بطلها ومحورها ، فهو السيد " سينجر " الأخرس ، كــان فى البلدة أخرسـان لايفـتـرقـان ، سـينجـر وصـاحـبـه اليـونانى البـدين أنتـونابوليس ، يخرجان من مسكنهـما كل فجر ويمضيان مـتشابكى الأيدى إلى عـملهـمـا ، وإذ يصـلان إلى دكـان الفـاكـهـة حيث يعـمل أنتـونابوليس يفترقان ، يمضى سينجر إلى دكان المجوهرات حيث يعمل فى حفر النقوش على الأوانى الفضية ، بعد العصر يلتقيان ، يمضيان فى الغسق معا إلى البيت على مهل ، وفى المنزل كان سينجر يتحدث إلى صاحبه مستخدما يديه فى رسم الكلمات ، يروى لصاحبه كل مايجرى فى النهار ، وفى بعض الأمسيات كان الأخرسان يلعبان الشطرنج ، غير أن أنتونابوليس يضيق بها ، عندئذ يكمل سينجر اللعب بمفرده ، ولم يكن لهما صديق آخر ، وفى عزلتهـما تلك لم يزعجهـما شئ ، مضى عليهـما فى البلدة عشر سنوات ، وذات يوم يمرض اليونانى ، اعتنى به صاحبه غير أنه أصبح كثير الشكوى ، ضجرا ، شفى من مرضه ، وعاد إلى عمله عند ابن عمه ، غير أن عاداته ازدادت سوءاً ، وذات يوم قضى حاجته أمام أعين الناس فى الشارع ، وبدأ يأتى أعمالا تعكس اضطراب عقله ، وكان سينجر يتدخل ليضمن صديقه فى البوليس ، حتى نفدت أمواله ، ولأن الحياة لاتمضي كما يعتاد الانسان ، فقد تلقى سينجر المصيبة النهائية ذات يوم ، إذ قرر ابن عم صاحبه إدخاله إلى مستشفى الأمراض العقلية الذى يقع على بعد مائتى ميل ، اتخذ كل الترتيبات ، وبرغم محاولات سينجر إلا أن اليوم الذى يجب أن يرحل فيه صاحبه قد حان بالفعل ، رحل أنتونابوليس ، وبدأت وحدة سينجر المرة ، القاسية ، راح يقضى أمسياته مشيا فى البلدة ، لم يعد يطيق الغرف التى

عاش فيها مع صاحبه ، فاستأجر مكانا فى منزل متداع ، كان لايمكنه الحديث إلى أحد ، وبعد فترة زال اضطرابه ، وظهر فى وجهه سلام مقيم من النوع الذى يلوح عادة فى الوجوه الحزينة أو الحكيمة ، كان وحيدا صامتا على الدوام ، ولكم هزنى مشهد جلوسه فى الرواية بجوار النافذة محملقا فى الصمت لساعات بعد أن يلعب الشطرنج مع نفسه ، إن السرد الهادئ البسيط ، غير المعقد جسد وحدته تجسيدا قاسيا ، حتى أننى أعتبره من أعمق الشخصيات التى قابلتها تعبيرا عن الوحدة الانسانية فى الأدب العالمى الذى أتيح لى أن أطلع عليه ، فى المدينة أصبحوا يعرفونه ، الجميع يتحدثون إليه ، البعض يزورونه فى البيت ، يتحدثون إليه مع أنهم يعلمون أنه لايسمع ، إنه أصم ، لكن أى إنسان فى حاجة إلى من يسمعه ، إلى من يفضى إليه ، والكل يتحدث إليه عن همومه ، وهو يقرأ الشفاه ، يفهم مايقولونه ، لكنه لايستطيع أن يحدثهم عن نفسه ، صديقه الوحيد فى العالم الذى كان يرسم له الكلمات بأصبعه أصبح نائيا ، بعيدا ، زاره مرتين فى المستشفى وفى كل مرة كان يعود متألما ، حزينا ، فقد أمعن أنتونابوليس فى غياهب الجنون ، لم يعد عنده منه سوى الذكريات ، للمرة الثانية يمضى سينجر لزيارة صاحبه، يصل إلى المستشفى بينما الليل ينشر ظلاله والشمس تختفى وراء شجرة عالية فى الأفق ، أما الأصيل فقد جثمت عليه أشباح من فتور وضنى ، لا يجد سينجر صاحبه فى المعبد ، يجد مكانه شخصا آخر ، يكتب استفساره عنه فى بطاقة يقدمها لكل من يقابله، وأخيرا جاوبه أحدهم بسطر كتبه ، وعندما قرأه أمحى كل لون على وجنتيه، تأمل طويلا العبارة ، لقد مات أنتونابوليس ! .

عاد سينجر إلى مدينته يحمل الفاكهة التى كان قد اشتراها لصاحبه ، هام على وجهه فى الشارع ، غير أن حرارة الشمس سطعت عليه بثقلها

فـأسرع الى غرفتـه وجيع الرأس ، دامع العـينين ، وبعد أن استـراح رشف فنجان قـهوة مثلجة ، وأشعل لفافـة من التبغ ، وبعـد أن غـسل الفنجان والمنفضة أخرج مسدسا من جيبه ، وأطلق منه رصاصة الى صدره !

بعد انتحاره تعيد المدينة كلها اكتشافه من جديد ، كيف لم يحاول أحد الذين تحدثوا اليه أن يعرف عنه شيئا ؟ ، كيف حملوه كل همومهم ، ولم يحاول أحدهم أن يعرف همه ، ويأخذهم الندم ، لكن بعد فوات الأوان ، ويبكى البعض عليه ، ويحمل أحد مجانين المدينة لوحة كبيرة كتب فوقها بالطباشير الأحمر ، مات كى يخلصنا !

* * *

السبت

.. الساعة الواحدة ظهرا ، اتصل بى الصديق يوسف القعيد ، اقترح على أن ندعو الى الغداء صاحبنا الأديب السعودى المعروف حسين على حسين ، بعد أن طلبت منه انتظارى حتى أصل الى دار الهلال ، رحت أفكر كيف أصل ؟ الطقس حار جدا ، ولاتوجد مواصلة مباشرة من أخبار اليوم الى دار الهلال فى شارع المبتديان ، فكرت ، اننى محرر أدبى للأخبار ، وأنا فى الطريق للقاء أديب ضيف ، كذلك مصطفى نبيل رئيس تحرير الهلال، اذن ، فمن المبرر أمام ضميرى أن أنتقل باحدى سيارات الأخبار ، قلت للصديق والزميل على حسنين أننى فى حاجة الى سيارة توصلنى الى دار الهلال ، ضحك قائلا ، أنها المرة الأولى منذ عدة سنوات التى تطلب فيها سيارة ، نعم .. بالضبط منذ أن كنت أعمل محرراً عسكريا ، وعلى حسنين من الأسماء التى لايتاح لها الظهور كثيرا على صفحات الجريدة ، أنه سكرتير التحرير ، الذى يبدأ عمله بعد أن ينتهى عملنا نحن ، الكتاب

والمحررين ، عصب الجريدة أومطبخها ، وعلى المستوى الشخصى فهو من أكثر المتفانين فى عملهم ، كانت الظهيرة قيظا حادا ، خرجنا من دار الهلال قاصدين أحد المطاعم القريبة فى ميدان السيدة زينب ، يجئ حسين على حسين مرتين فى العام ، مرة مع أسرته فى الصيف ، ومرة فى معرض الكتاب الدولى ، وبرغم تباعد المسافات التى نلتقى فيها إلا أنها علاقة قوية تربطنى به ، وتربطه بعدد من الأدباء المصريين ، إنه أحد أبناء الجالية العربية فى عالمنا العربى ، دخلنا مطعما يضيف كلمة السياحى إلى اسمه ، المطعم على مرمى البصر من ضريح السيدة زينب ، إلا أنه يضع فى الواجهة الرئيسية صورة ضخمة ملونة لإحدى القلاع الأوربية الضخمة فى العصور الوسطى ، أما الجرسونات فيرتدون القمصان البيضاء والبنطلونات السوداء وبابيونات سوداء أيضا بدوا كممثلين ثانويين ، غير مقتنعين بما يرتدونه ، لاملامحهم ، ولاحضورهم أفرنجى ، ماذا لو ارتدوا جلبابا بلديا ، والجلباب زى وطنى يتيح حرية الحركة والراحة ، لكن البابيون أوربى ، والمطعم يصف نفسه بالسياحى ، وكأنه لن يكون سياحيا إلا بالبابيون ، القشرة الأوربية الخارجية أحد مظاهر التغريب ، خرجنا إلى الميدان قاصدين شارع السد ، في الميدان كنفانى مشهور يعلن بلافتات عريضة عن تقديمه للبيتسا ، الفطائر الإيطالية ولكن بطريقة شرقية ، أما واجهات المحل فقد صنعت كلها من الألمونيوم ، وتذكرت فطاطرى آخر فى الحسين يسمى محله ، " أجيبشان بانكيك " ، لقد اختفت الأسماء المصرية للدكاكين والمتاجر ، بقالة الصدق ، تجارة الأمانة ، وحل البوتيك ، والبانكيك ، وهذه صورة للتشوه الثقافى ، وقد وصلت إلى تفاصيل فى مجتمعنا ، لماذا لايطبق القانون الصادر عام ١٩٤٨ ، والذى قضى بتسمية المتاجر والمحلات بأسماء عربية ، لقد ذكرته من قبل فى يوميات سابقة ، ولكن علمتنى التجربة فى السنوات الأخيرة أن

الكلمة تفقد قيمتها ، وأن مانكتبه لايواجه إلا أذنا من طين وأخرى من عجين ، على أى حال مازال شارع السد الطويل يحتفظ بملامحه الشعبية وحيويته ، هنا مشى توفيق الحكيم ، ويحيى حقى ، من هنا خرج أكبر أدبائنا ، ولو أن هذا الشارع يقع فى بلد من البلاد التى تعى تاريخها جيدا لجعلوا من الأماكن التى عاش فيها هؤلاء مزارات ، لكن يبدو أن تاريخنا الطويل ، وازدحامه بالآثار ، قد أورثنا استهانة ولامبالاة ، وأقرب دليل ، بيت أم كلثوم ، ألم يكن جديرا بأن يتحول إلى متحف ، أن يترك كما هو ، كما كان حاله يوم وفاتها ، لو أن الورثة حولوه الى متحف لقاء أجرزهيد لكسبوا منه أضعاف ما ربحوه من بيعه لمن حول مكانه إلى مشروع تجارى يحمل اسمها ، لكن ماذا نقول ؟

***

الاثنين:

وداعا .. دخيل الهلالى ..

عرفته عام ١٩٧٣ ، أثناء حرب أكتوبر ، كان قائدا للفرقة السادسة مشاة ميكانيكية العراقية التى حاربت فى مرتفعات الجولان ، إلى جانب وحدات الجيش السورى ، فى تلك الأيام البعيدة التى توحد فيها العرب ، ثم كان ماكان .

ثم زرته فى مقر قيادة فرقته فى محافظة ديالى عام ١٩٧٥ ، مازلت أذكر حديثه عن ذكريات الحرب ، وعن احترامه العميق لأبطال الجيش المصرى ، مازلت أذكر تلك الرحلة التى قمنا بها فى طائرة هيلوكبتر على امتداد الحدود العراقية - الإيرانية ، حدثنى عن التوتر ، وعن خطط الشاه العدوانية تجاه العراق ، وكان من مهام فرقته التصدى للعداون الإيرانى

المحتمل إذا ماحاول اختراق الحدود من هذه النقطة ، كان ذلك عام ١٩٧٥ ، مازلت أذكر جبال كردستان ، وجبل زمناكو ودير بندى خان ، وملامحه العربية الأصيلة فى الصباح الباكر المجلل بالثلوج .

مما تلا ذلك من سنوات كنت أتابع أخباره عن بعد ، أسال عنه الأصدقاء، عرفت أنه عمل ملحقا فى الهند فترة ، ثم أحيل إلى التقاعد ، ثم التحق بصفوف الجيش الشعبى العراقى ، وأصبح ضابطا كبيرا فيه برتبة لواء وفى إحدى المعارك التى دارت عام ١٩٨٢ قرب البصرة تم أسره ، أصبح أسيرا فى ايران ، وهذا الأسبوع أخبرنى صديق عراقى أنه قتل فى الأسر ، ضمن مجموعة أخرى من الأسرى العراقيين ، واستعدت أمامى علاقتى بالرجل ، لقاءاتى القصيرة معه ، والأثر العميق الذى تركه فى ، ورحت أحاول تخيل الأيام الكئيبة القاسية التى مرت عليه فى الأسر .

رحمه الله .. فقد عاش مقاتلا مجهولا من أجل هذه الأمة المنكوبة ومات مقتولا فى الغربة والأسر .. وما أمر ذلك !

* * *

الاربعاء

.. فى السابعة والنصف تماما يقترب عم شرف من ميدان حلوان ، على امتداد أيام السنة ، فى القيظ ، فى أيام الشتاء الصعبة ، فى الأيام المطرة، يظهر خلف عجلة قيادة أوتوبيس " أخبار اليوم " الخاص الذى ينقلنا من حلوان إلى الجريدة ، حتى فى يوم أحداث الأمن المركزى خرج عم شرف بالأوتوبيس ليوصل الزملاء إلى بيوتهم ، وصل إلى حلوان ومايو، وفى طريق العودة توقف عند حلوان ، كان الخطر عند طرة ، أدركه حظر التجول، فقاد العربة الضخمة إلى أحد الشوارع الجانبية ، وقضى ليلته عند

أحد معارفه ، في كل مكان له معارف ، ومنذ تحركه من أمام دار أخبار اليوم وحتى مفارقتى السيارة فى حلوان لايكف عن رد تحية عدد كبير من السائقين فى الطريق ، ينادونه باسمه ، وعلى وجوههم ود وترحاب ، هادئ جدا ، لم أره يلتفت إلى الخلف قط ، لأنه دائما ينظر إلى الأمام ، إلى الطريق ، وحتى عندما يشترك فى مناقشة فإن عينيه تتجهان إلى الأمام ، ويبدو صوته كأنه قادم من بعيد ، أصحابه يسمونه العصفور ، إنه لايستقر أبدا ، يبدأ يومه فى الخامسة صباحا ، وتنتهى دورة الأوتوبيس فى السادسة مساء ، ثم يبدأ جلوسه على مقهى مواجه للأخبار ، ويقال إنه لاتفوته مناسبة ، خاصة الأفراح ، ويقال أيضا إنه لاينام فى اليوم كله إلاساعتين فقط ، أحيانا يطل بعض السائقين الشبان فى الطريق ويوجهون إليه سبابا مقذعًا ، وفى الأغلب الأعم يكونون هم المخطئين ، إلا أنه لايلتفت ، ولايهتم ، يقول لى بهدوء :" ياه .. يامابنشوف " ، لصوته إيقاع واحد لايتغير ، ربما لأنه مضطر دائما إلى التركيز ، أتأمله طويلا أثناء جلوسه فوق مقعد القيادة ، منطلقا على طريق حلوان ، يبدو راسخا متمكنا ، لذلك أسميه " شرف الملك " !

اغسطس ١٩٨٧

أمريكانــــى

.. مكتب إحدى شركات الطيران الأجنبية .

كنت أستفسر من إحدى العاملات عن ظروف سفر ، كانت السيدة ذات الملامح المصرية تجيب على المكالمات التليفونية المتوالية ، تتحدث تارة بالعربية ، وتارة أخرى بالإنجليزية ، طلبت منى أن أنتظر بعض الوقت حتى يأتى أحد العاملين بالشركة الذى يمكنه الإجابة عما أريد ، بعد لحظات أدارت هى قرص الهاتف ، وبدا واضحا أنها تتحدث إلى أطفالها ، كانت توصيهم ألايطلوا من الشرفة ، وأن يلعبوا داخل الشقة ، واستنتجت أن الأولاد بمفردهم فى البيت ، وأنها قلقة عليهم ، بعد لحظات من مكوثى صعد السلم الضيق الذى يصل الطابق الأول بالثانى حيث نجلس ، رجل يرتدى قميصا أزرق ، ونظارة غامقة ، وزرار قميصه العلوى مفتوح ، تلوح سلسلة ذهبية حول عنقه ، كان بصحبته ثلاث سيدات ، من تصرفاتهن ، وحركتهن وطريقة جلوس إحداهن ، بدت لى ملامح ذات أصول فجة ، سوقية ، نظر إلى السكرتيرة ، وقال بلهجة آمرة :

- المديرموجود ؟

تطلعت إليه ، قالت :

- هو فى المطار يافندم !

مضى إلى الأريكة العريضة حيث جلست السيدات الثلاث ، توسطهن وفرد ذراعيه على آخرهما ، راحوا يتبادلون الحديث ، ولاحظت أنه ينطق بعض العبارات بالإنجليزية أمريكية اللكنة ،

- لا .. دا أنا حوريهم ..

ثم قال مخاطبا السيدات اللواتى جئن معه :

- هما يظهر مايعرفوش إنى أمريكانى ..

وفهمت أنه مصرى متجنس بالجنسية الأمريكية ، وأنه جاء إلى وطنه الأول فى زيارة ، وأنه يشعر على من حوله بالتفوق لأنه أصبح " أمريكانى"، كانت ملامحى جامدة تماما ، لكننى كنت أصغى ، فالحجرة ضيقة ، وهم يتكلمون بصوت مرتفع ، وكان واضحا أنه يقصد إبلاغ بعض المعانى إلى السكرتيرة ، وربما إلى أنا أيضا :

- أنا حروح السفارة فى مصر وأخليها تتدخل ..

ثم أشار إلى صدره :

- دا أنا أمريكانى ..

ثم اتجه إلى السكرتيرة مباشرة :

- يعنى أقدر أفهم المدير حييجى أمتى ..

- ياأفندم النهاردة ميعاد الطيارة .

- آه .. هو يروح المطار ويسيب شنط الناس .

فهمت ! ، أن حقيبته تخلفت ، موقف سخيف طبعا ، لقد جاء من نيويورك عن طريق هذه الشركة ، ولكن ماضرورة تلويح أنه أمريكانى ،

- أنا حفوت دلوقتى على السفارة وأكتب مذكرة للسفير ، دا أنا حرفع قضية وأدفعهم الجلد والسقط ..

الجلد والسقط ؟ ، حقا .. أمريكانى بصحيح ، راح يتحدث بالإنجليزية ذات اللكنة الأمريكية وكأنه يثبت أمريكيته ، بينما راحت إحدى السيدات تجيبه بكلمة نعم فقط ، احتفظت السكرتيرة بهدوء ملامحها ، ورحت أفكر فى هذا النمط الذى يلوح فى موطنه الأول بحماية سفارة موطنه الثانى ، ويؤكد فى كل لحظة أنه أمريكانى ، ويبدو أن عدم قدرته على إثارة السكرتيرة ، أولفت نظرى استفزه أكثر ، ازدادت لهجته حدة :

- هما فكرين الأمريكانى زى أى حد ، دا السفارة حتخرب بيتهم !

فى الحقيقة شعرت بالغيظ ، وليت وجهى صوب الجدار ، أما العاملة المصرية فكانت منهمكة فى الرد على الهاتف ، إلا أن نظرة جانبية حانت منها تجاه الرجل الذى كان مازال فاردا ذراعيه ، غير أنها احتفظت بهدوئها على مهل شديد أمسكت ورقة مربعة صغيرة من فوق المكتب ، كتبت عليها - هجاص - بحروف كبيرة ، قدمتها إلى العاملة ، وأنا أقول :

- ممكن ..

أخفت ابتسامة ، أوظل ابتسامة ، قالت :

- لحظة واحدة ..

ثم كتبت فوق ورقة بيضاء مماثلة مدتها الىّ ..

- تفضل ..

وقرأت كلماتها " بنشوف من ده كتير " !

سبتمبر ١٩٨٧

قبلـــــى

هذا رصيف القطار !

أقف فوق المكان ذاته ، غير أن الزمن ليس الزمن ، زمن طفولتى وصباى اندثر ، هيهات أن يرجع ، وفيهما وقفت فوق هذا الرصيف ، لكننى لم أجئ إليه إلا بصحبة أبى ، وأمى ، وأشقائى ، عندما كنا شملا واحدا ،وكلا متحدا ،وكنت أظن أن هذه الأيام لن تبيد أبدا ، ولكنها ولت ، وطوت معها ، أبى ، وأمى .. وهأنذا أقف فوق الرصيف أنتظر القطار لأتجه جنوبا ، فغدا يوافق أربعين خالى ، توفى وأنا فى سفر ، وهكذا رحل آخر الأقربين، وبعد رحيل العمة لم يعد لنا أحد من أقارب الدرجة الأولى كما يسمونهم .

أقف منتظرا قطار السابعة والنصف ، أوالفاخر كما هو مكتوب على كل عربة منه ، أوالمجرى كما شاع عنه ، مع أن الوحدات المستخدمة فيه الآن فرنسية الصنع .

أقف منتظرا الرحيل جنوبا ، الزحام شديد ،وعندما شرعت فى الحجز قبل موعدى بأيام عشرة لم تكن هناك تذاكر إلى سوهاج ، كان لابدأن أدفع قيمة التذكرة إلى قنا ، الزحام شديد ، ولكن فى الزمان الأول لم يكن الأمر كذلك .

متى كان هذا ؟

منذ عشرين عاما ؟ منذ ثلاثين ؟

فى شهور الصيف كنا نتأهب للمضى جنوبا ، حيث نقضى شهور الصيف فى جهينة ، مسقط رأسى ، حيث أول أرض لامستها رأسى ، وأول هواء عرف طريقه إلى صدرى ، كنت أنتظر أيام السفر بلهفة ، بشوق ، بحنين ، هناك سنقضى شهور الصيف كاملة فى بيت خالى ، سنكون موضع الحفاوة ، فى الأيام التى تسبق السفر يبدو الوالد جادا ، يعود من الخارج بالهدايا التى سنحملها معنا فى قفة أواثنتين ، صابون ، سكر ، قماش ، شاى ، وفى نفس القفة سنعود بالأوز المذبوح ، والحمام ، والملوخية المجففة ، والخبز الشمسى ، والبلح ، كنا نستيقظ مبكرين يوم السفر ، عند الفجر ، تطوف أمى بأركان البيت ، تقرأ الفاتحة ، تيمنا بعودتنا سالمين ، تودع الجدران ، والأثاث ، وتطمئن على إغلاق النافذة ، والباب .

مازلت أذكر لحظات خروجنا والنهار حليبى ، طازج ، كله بشر .

مازلت أذكر ملامح أمى ، والوشم الأخضر الجميل ، أرى هذا الآن كأنه أمامى ، لكنه ليس فى المتناول أبدا ، فاللحظات ولت ، والحضور طواه العدم .

كان لى شقيق اسمه محمد ، كان ابن عامين عندما خرجنا من الجمالية ذات صباح قاصدين السفر ، فى ميدان بيت القاضى راح يتوقف ويشد أمى إلى الوراء ، عند ركوبنا القطار بكى لسبب ما ، بدا الضيق على وجه أمى، قالت إن الولد كاره للسفر ، تشاءمت ، بعد عودتنا من جهينة ، ارتفعت حرارته ، راح يذبل ، مضينا إلى الأطباء ، ثم نصحنا الجيران بالذهاب إلى رجل صالح فى حارة الميضة ليكتب له حجابا يشفيه ، كان الرجل اسمه الشيخ عطيه ، لم يكن معمما ، إنما يرتدى جلبابا ، هادئ الملامح ، مازلت

أذكر وجهه وهو يحدق فى شقيقى ثم قال :

- إذا طلعت عليه شمس الجمعة القادم فإنه سينجو !

فجر الجمعة أغمض عينيه إلى الأبد ، وقالت أمى إنه كان يشعر ، كان يشدها إلى الوراء ،لم يكن يريد ركوب القطار .

فوق هذا الرصيف وقفنا ، ركبنا ، هل من أثر لنا ؟ هل من أثر يستعصى على الحواس البشرية إدراكه ؟

فوق هذا الرصيف كان أبى يجئ لينتظر مجئ خالى ، وعند توقف القطار القادم من قبلى ، يتدفق المسافرون ، كان زحاما شحيحا ، نسبيا بالقياس إلى زحام زماننا هذا ، يصيح أبى:

- يامحمد على باشا ..

محمد على باشا هو اسم خالى ، وباشا اسم وليس لقبا ، كان والدى - رحمه الله رحمة واسعة - يضحك عندما يقص تفاصيل بحثه وصياحه ، يتطلع الناس ليروا هذا الباشا الذى جاء فى عربات الدرجة الثالثة ، وعندما يظهر خالى بجلبابه الصوفى ، وعمامته ، والشال البنى الملفوف حول رقبته يهرع إليه أبى ، مرة قال أحد الواقفين :

- أهذا هو الباشا الذى تنتظره ؟

فوق هذا الرصيف ودعت خالي منذ عدة سنوات ، كان قد جاء إلى القاهرة فى بداية انسحاب النور من عينيه ، وقفت أنا وأمى ، كان أبى قد غاب عن العالم ،وكانت المرة الأخيرة التى جاء فيها خالى ، بعد سفره بدأ مرضه الطويل ، ومنذ خمس سنوات مررت بجهينة ، وقلت له إن أمى مشغولة عليه ، قال بحزن : إنه لايقدر على المجئ إلى القاهرة وهى لاتقدر

على المجئ إلى جهينة لمرضها ، إذن .. اللقيا هناك ! وفى البداية لم يصلنى المعنى .

وعندما أدركت ارتج داخلى ، كان الشقيقان فى عالم واحد ، هو فى جهينة وهى فى القاهرة ، وكان ينتظر أن يلقاها فيما وراء الوجود ، لم تمض شهور إلا وغربت شمس أمى ، هوى نجمها ، وبعد أربع سنوات رحل خالى .

كنا نسافر إليه ، وكان قطار الثامنة صباحا هو وسيلتنا ، من فوق هذا الرصيف الذى أنتظر عليه الآن المجرى الفاخر !

* * *

كان الرحيل إلى قبلى يعنى البهجة ، الإجازة ، الانطلاق ، ثمة خيوط وثيقة تربط الإنسان ، بمسقط رأسه ،وكلما اقترب العمر من الأفول ، توشك الدائرة على الانغلاق ، ويحن الإنسان إلى البداية ، إلى الأصل .

كنا نحفظ أسماء المراكز التى سيقف عليها القطار ،كان والدى يرددها واحدة تلو الأخرى ، كان مشدودا دائما إلى جهينة ، عاش نصف قرن فى القاهرة لم تتغير لهجته الصعيدية ولا لهجتنا ،كنت أخجل أن أتحدث أمامه باللهجة القاهرية ، كان يسعى لمقابلة من يجئ ، يسأله عن البيوت ، عن النخلات ، عن الناس ، من تزوج ، من رحل ؟ وكان يجئ بالأخبار إلى أمى، ويطول الحديث فى ليالى الصفاء .

قطار الثامنة يقف بالمراكز ، مازلت أذكر صعودنا إلى العربة ، كان الزحام خفيفا ، نجلس إلى المقاعد الخشبية ، أرى حقول الصعيد ونخيله يتتابع أمام عينى ، تنتهى الرحلة فى طهطا ، فوق الرصيف ، يقف خالى فى

انتظارنا ، وعدد من الأقارب ، نركب عربة أجرة توغل فى الطرق المتربة ، يثور الغبار ، الآن كل الطرق مرصوفة ،من طهطا إلى جهينة ، من سوهاج إلى جهينة ، كل الطرق ممهدة ، عدا الطريق إلى أيام طفولتى وصباى ، فقد انقطع ، ومهما حاولت أن أسلكه فعبثا أجاهد ، إلا بالذكرى ، وكان خالى آخر من تبقى من جميل علاماته ، وصفى ملامحه ، وهأنذا أنتظر القطار ، لأسعى لزيارته فى مثواه !

* * *

فى طفولتى النائية ، كنت أقف فوق نفس الرصيف ، أتامل القطارات المتجهة إلى الجهة الأخرى ، إلى بحرى ، أتمنى لو يتحرك القطار بنا إلى بحرى ، أتساءل : ماذا يوجد فى هذه الجهة ؟ ، لماذا يقوم القطار إلى نفس الجهة ؟

وقد مرت السنوات ،وانطوت الأيام والليالى ، وسافرت إلى بحرى ، وحملتنى القطارات ، والطائرات ،وصلت أراضى لم أكن لأبلغها إلابشق الأنفس ، غير أن بهجة السفر ، والإحساس بالرحيل الأول لم تتكرر قط .

كنا نسافر فى عربات الدرجة الثالثة ، كانت فسيحة ، كان القطار بطيئا.

هأنذا أقف فوق الرصيف ، مقعدى محجوز فى عربة فاخرة ، لن يقف القطار إلا على المحافظات فقط ، سأنزل سوهاج ، سأتجه إلى جهينة فى عربة أجرة مخصوص ..

نفس الطريق الذى سلكته ، لكنه ليس هو ..

أمضى وحيدا الآن ، أبى وأمى لن ألقاهما إلاهناك ، إسماعيل أخى أراه

فى إجازاته التى يجئ فيها إلى القاهرة بسرعة ،شقيقاى أراهما فى الأسبوع مرة ، الأقارب زاد النأى بهم بعدا على بعد ، سأنزل سوهاج ، لن يكون أحد فى انتظارى أجهد ذاكرتى فى الانثناء إلى الماضى البعيد ، مازلت أذكر حضور خالى ،مجيئه الحميم ، رائحته ، رائحة جلبابه الصوفى ، رائحة البيت الذى ولدت فيه ،الفرن ، الخبيز ، طعم اللبن، والاستيقاظ مبكرا ، ومخزن الغلال الذى كان يتاجر فيها ، وخزانة كتب جدى ، كان شيخ القرية ،وعندما قلبت فيماتركه دهشت ، فى هذا البيت البعيد وجدت مخطوطات عتيقة للقاضى عياض ، ومخطوطة للفتوحات المكية لشيخى ابن عربى ، ودواوين شعر ، وطبعة نادرة من ملحمة الظاهر بيبرس .

مازال المعمرون يذكرون جدى في جهينة ، الشيخ على ، كان شاعرا ، ويقولون إن صوته كان جميلا عميقا ، كان ينشد المدائح النبوية ، يؤم المصلين ، ويعالج المرضى بالأحجبة ويقرأ ابن عربى ، والغزالى ، هل انحدرت إلى موهبة القص من عنده ؟ ربما ..

* * *

جهينة ياصندوق غرارة قلبى ، توزع أيام طفولتى وصباى ، أعى الآن جمال الطبيعة فيها ، حولها ، أجمل شجر فى العالم النخيل ، حضوره الراسخ ، يمنح الإحساس بالأبدية ، بالسموق ، بالبسوق ، رائحة التين عند المنحنى جزء من رصيدى ، دقات وابور الطحين النابضة فى الفضاء الرهيب للأسف أزيل وابور الطحين ، وحلت مطاحن كهربائية ، وعرفت جهينة أفران الخبز ، والدقيق المستورد المعبأ فى أجولة من البلاستيك ! الخضرة كثيفة ، والذرة (الجيض) ، إلى الأقارب أسعى ، كل من أحبهم أبى ، وكأنى أنوب عن أبى ، إلى أعمامى ، إلى بيت الضبع ، أقارب والدى من جهة الأم

رحم الله الحاج إبراهيم أبو الفضل ، كانت زيارته لنا تثير البهجة ، وأطال الله عمر الحاج جمال شقيقه ، مازال بيتهم محافظا على التقاليد القديمة ، الدوار المفتوح لأى غريب عابر ، إليهم سعيت ، إلى أعمامى ، إلى الأقارب، وكنت أصغى إلى قولهم عن والدى ..

- السيرة الطيبة أطول من العمر ..

أو :

- اللى خلف ماماتشى ..

وعندما جاء عبد الرؤوف المالكى ، وراح يحكى عن أمى ، رآها طفلة ، تزاحمت فى عينه ذوارف سخية ، هذه الطفلة الصغيرة التى يحكى عنها ، هى أمى أنا كيف كانت تبدو ؟ ما الصلة بين تلك الأيام النائية والأيام التى أشهدتها بعينى ، وبين أمى التى قدر لى أن أقف أمام جثمانها ، بعد رحلة شاقة وعرة فى الحياة ، يومها أطلت النظر ، وانبثق فى ذهنى الخاطر :

- الحياة ليست عبثا أبدا ..

لكنها قصيرة ، جد قصيرة ولاتدوم أبدا !

* * *

جبّانة جهينة ، شاسعة ، مترامية الأطراف ، لانهائية كالأبدية ،

مجرد كومة من الرمال ، تحيطها دائرة من الأحجار ، أقف صامتا ، مروعا بتكرار الفقد ، إلى جوارى خليفة ابن خالى ، وسُلّمِى أحد أقاربى ، والصمت ، ونزيف الذكريات يدمى قلبى .. إلى هذا الصمت آل جزء من كينونتى ، قرأت الفاتحة على روح أمى التى ترقد فى القاهرة ، هما الآن معا ، هناك ، هنا أيضا ترقد عمتى ظريفة التى سبقت خالى بشهور ستة .

الصمت رهيب ، ولكن داخلى يمور ضجيج هائل ، لاتبديه ملامحى ، ولاتفصح عنه عبراتى .

فى طريق العودة أمر بالبيت الذى ولدت فيه ، وولدت فيه أمى ، منذ سنوات شيد أخوالى عمارة ، وانتقل خالى وأسرته إلى شقة ، وظل البيت مغلقا ، رجوتهم ألا يهدموه ، فعندى أمل أن أقضى نهاية العمر فيه ، ولجت الباب ، كان فى طفولتى يبدو فسيحا ، ماله ضيق الآن ، ماله ضيق ، السلم المؤدى الى السطح تصدع ، لكم سهرت هنا أقرأ فى مخطوطات جدى الذى لم أره ، أسامر جدتى التى كانت وفاتها عام ١٩٥٥ أول وهن يصدع علاقتنا بجهينة ، الغروب ثقيل ،هذه صومعة القمح ، وفوق كنت آكل الدوم، وألعب بالبوص ، الغروب ثقيل ، وهذه الحيوات الطويلة لم يتبق منها إلا الصمت ،فأى الأمور تخفى الجدران ، وعلام يشهد الجماد ، الغروب ثقيل .. فجأة يمرق شئ بسرعة ويرتد ، أنتبه .

تعاود الأجسام الغريبة المروق ، يحذرنى خليفة ابن خالى ..وطاويط .. ياضيعة أيامى الآمنة !

* * *

فجرا ، أفارق جهينتى ، أصر خليفة ، وعبد اللطيف قريبى ، إنه صحفى أيضا مازال فى البداية على مرافقتى حتى سوهاج ، العربة تتجاوز المكان والزمان ، طيور غريبة لانعرفها فى مصر ، السرعة عالية ، فجأة تصدم السيارة طائر جميل ، ربما كان قمريا ، أونوعا من الحمام جاء من

أقصى العالم البارد إلى صعيدنا ، إلى جهينة يلتمس الدفء ، فصدمته العربة المسرعة ، ولم يكن المصدوم إلا .. قلبى !

ديسمبر ١٩٨٧

الســـابعة !

فى السابعة صباحا :

يوميا ..

نستيقظ فى السادسة إلا الربع صباحا ، أضبط ساعة الراديو ، توقظنى الموسيقى التركية الشجية ، والموشحات التى تتغنى بأشعار مولانا جلال الدين الرومى ، فى هذا الصباح الباكر تكون الإذاعة البعيدة واضحة ، نقية، أوقظ زوجتى ، تنهض هى ، لتوقظ ولدينا ، محمد وماجدة ، نسكن فى حلوان ومدرستهما فى المعادى ، البرد شديد ، لكن لامفر ، مابين نومى وصحوى ثلاث ساعات فقط ، وأحيانا ساعتان ، أستمر ساهرا فى مكتبى ، أعمل حتى الثانية أوالثالثة ، هذا صراعى الدائم مع الوقت ، والذى سأهزم فيه يوما !

توقظ زوجتى ابنينا ، ومابين السادسة والسابعة ، إما أن أغفو ، فيوميا أفارق البيت فى الثامنة كى أصل إلى مقر عملى فى الأخبار ، عند التاسعة، أتمنى لوغمت هذه الساعة ،ولكننى في الأغلب أقلق ، أصغى إلى بدء حياتنا اليومية ، أحيانا يعلو صوت زوجتى تطالب محمد وماجدة أن يتناولا افطارهما ، خاصة ماجدة الصغيرة ، مع اقتراب السابعة ، تتزايد الحركة ، ينزلان إلى مدخل البيت لانتظار عربة المدرسة التى تصل فى

السابعة وخمس دقائق ، تتجه زوجتى إلى الشرفة ، لمتابعتهما حتى ركوبهما ، أصغى إليها ، تطلب من ماجدة أن تلزم الرصيف ، تسأل محمد إذا كان نسي شيئا ، تطلب منهما أن يدخلا قليلا فالبرد قارس ، والرياح شديدة ، وشارع حيدر الذى نسكنه تدهور فى السنة الأخيرة ، وأصبحت حركة السيارات فيه كثيفة مزعجة ، وهذا جزء من التدهور العام الذى يلحق بحلوان فى كل يوم ، إن تغيرا ملحوظا فى صوت زوجتى ..

مالها ؟

يبدو أن إرهاقا أدركها ، لكنى عندما سمعتها تقول :

مع السلامة يامحمد ، مع السلامة ياماجدة ..

أنهيت محاولاتى لاقتناص إغفاءة أخرى ولو قصيرة ، فارقت الفراش فى نفس الوقت الذى كانت ترتد فيه من الشرفة إلى الغرفة لترتمى فوق الفراش .

" مد كل الأغطية .. "

كانت ترتعد بقوة ، وعندما لمست جبهتها ، فوجئت ، كانت الحرارة مرتفعة جدا .

إذن .. بدأ الدور .. بدأت الحمى .

***

منذ عدة سنوات ، سبعة على وجه التحديد ، كانت زوجتى تعبر الطريق أمام البيت عندما جرحتها شظية زجاج ، بدا الأمر فى البداية عاديا ، ولكن بعد أيام ارتفعت حرارتها ، وتورمت قدمها اليسرى ، عولجت ، ذهبت الحرارة وخف الورم ، إلا أنه على امتداد السنوات الماضية كان يعاودها على فترات

متباعدة ، يبدأ الأمر برعشة حادة ، وارتفاع فى درجة الحرارة يستمر يومين أوثلاثة ، وتورم فى القدم ، ورقاد إجبارى ، تقلبنا بين الأطباء ، حتى انتهينا إلى طبيب كبير ، يعد من أكبر المتخصصين فى الأوعية الدموية ليس فى مصر ، وإنما فى العالم ، الدكتور عبد القادر قطب، كان ذلك فى بداية هذا العام ، وكان العلاج الذى بدأه طويل المدى ، فلابد أن يزول الالتهاب المزمن أولا ، وقد حذر من الإصابة بأى جرح ولو صغيراً ، ولكن يبدو أن زوجتى أصيبت بجرح فى يدها ، جرح صغير جدا ، أدى إلى اشتعال الألم ، ومما أقلقنى أن هذا تكرر بشكل متقارب فى العام الأخير ، ولكن يبدو أن هذه المرة أشد وأوعر .

اللهم سترك ، ولطفك !

***

الثلاثاء:

ماتزال زوجتى فى شبه غيبوبة ..

الحرارة مرتفعة جدا ، ترقد ، ليلة أمس اتصلت بالدكتور عبد القادر قطب ، إنه يعرف الحالة وهناك علاج لمثل هذه الحالة الطارئة ، كمية هائلة من المضادات الحيوية والأدوية الأخرى ، بدأناه بالفعل ، أسرتى الصغيرة وحيدة، والدا زوجتى فى البلدة منذ أكثر من أسبوعين ، إنهما يسكنان على مقربة ، حتى لو أنهما مقيمان ، فلم أكن سأزعجهما ، إن عمرهما المتقدم لايسمح بذلك ، ليس معنا إلا شقيق زوجتى الأصغر أيمن ، الصحفى بروز اليوسف ، قال لى إننى يجب ألا أعول هما ، وأنه سيقوم بكل شئ ، لكننى كنت قلقا ، فحياتنا الصغيرة اختلت بانسحاب زوجتى الإجبارى لفترة أرجو ألا تدوم .

فى نفس الموعد استيقظت ، فارقت الفراش فورا ، اتجهت إلى غرفة الأطفال حيث ينام محمد وماجده ومعهما أيمن ، بدأت بإيقاظ الصغيرة ، كانت مستغرقة فى النوم ، حرت ، كيف أوقظها ، أشفقت عليها ، إنها صغيرة جدا ، ضئيلة الحجم ، لكم يبدو انتزاعها من هذا السبات قاسيا جدا ، لكن ما العمل ، ولابد أن تذهب إلى المدرسة ، الوقت المتاح لاستيقاظهما ، وذهابها إلى الحمام ، وارتداء ملابسها ، وإفطارها ساعة واحدة لاغير ، رحت أمرر يدى على الفراش الذى يغطيها ، أزحت البطانية وبقى اللحاف الرقيق، كان باستطاعتى أن أتحسس ضلوعها الصغيرة ، ناديتها بصوت خافت ، لكن لم يفلح هذا ، رفعت صوتى ،تقلبت ، صاحت احتجاجا ، حرت، كيف أنتزعها من النوم ؟ ماذا كانت تفعل أمها ؟ ، خطر لى أن أذكر عربة المدرسة .. - يعنى عاوزه الأوتوبيس يفوتك ؟

قامت ، نزلت فورا من الفراش ، عيناها مفتوحتان ، فيهما آثار النوم ، اضطررت إلى أن أقول لها :

- على مهلك ..

أيقظت أيمن ، لقد نام فى ساعة متأخرة ، صاحت ماجدة الصغيرة (سبع سنوات إلاخمسة شهور) :

- اشمعنى محمد لسه نايم ؟

قلت لها :

- دلوقتى حيصحى ، وبعدين عشان أنت تروحى الحمام الأول .. ياالله .. شاطرة ..

صحبتها إلى الحمام ، الحوض مرتفع بالنسبة لقامتها ، فتحت الصنبور ،

وعندما أصبحت رغوة الصابونة كافية ، قربت وجهها من الحوض ، كانت أنفها تلامس حافته ، طلبت منها أن تشب قليلا ، رحت أغسل وجهها ، فجأة قالت :

- أنت مش عارف يابابا .. ماما أحسن ..

قلت لها :

- ماما تعبانة شوية .. بكره هى اللى حتغسل لك ..

عندما انتهينا ،كان أيمن قد اتجه إلى المطبخ ليعد الإفطار ، والسندويتشات ، أما محمد فيقوم بكل شئ بنفسه ، (عمره احدى عشرة سنة) ، إن عيد ميلاده غداً ، سبحان الله ، لقد رددت زوجتى طوال الأسبوعين الماضيين ، أنهاتود الاحتفال به ، أن تشعره بحفاوتنا ، رحت أبحث عن ملابس ماجدة ، لم أكن أدرى أين الجوارب ، أو القميص الذى ترتديه تحت المريلة ، رحت أبحث عنهما ، وبعد أن ارتدت المريلة قالت لى :

- بابا .. دى مقلوبة !

أعدنا الكرة من جديد ، وبين الحين والحين ، تسألنى :

- هى ماما مالها ؟ ..

فأقول :

- أبدا ، دى تعبانة شوية ..

كانت زوجتى التى ترقد فى الغرفة الأخرى غائبة عنا مع حضورها ، كنت أدرك مدى المرض الجاثم عليها ، فلكم تحرص على هذه الطقوس الصباحية ،

وبالأمس غالبت بداية المرض مع أنه كان فى عنفوانه ، لكم بذلت من جهد حتى يتم كل شئ كما هو ، حتى اذا ركب الطفلان العربة ، ارتدت منهارة .

أيمن أعد الإفطار ، وعندما نزلا وقفت فى الشرفة أرقبهما فى الطريق ، وعندما جاء الأوتوبيس ، وركبا ، عدت إلى زوجتى ، كانت الحرارة ماتزال مرتفعة ، وكانت تفاصيل الحياة اليومية ، العادية جدا ، التى يعيشها كل منا كواقع مفروغ منه ، قد اختلت ، هنا تبدو قيمة الأشياء الصغرى عندما تحيد عن انتظامها ،عندما تختل فكأن ناموس الكون نفسه هو الذى اختل .

***

الأربعاء:

اليوم عيد ميلاد ابننا محمد الحادى عشر .

ماتزال زوجتى فى ذروة المرض ، بالأمس بقى إلى جوارها أيمن وكذلك اليوم ، كان لايمكن أن أنقطع عن عملى ، فإعداد صفحة الأدب التى تصدر يوم الأربعاء يتم يوم الثلاثاء ، وحتى اللمسات الأخيرة أحرص على متابعتها بنفسى ، ولكم يلتهم من وقتى هذا ، ولكننى طوال عمرى تعلمت أواعتدت على أداء مايسند إلى من مهام بإخلاص تام ، وأبذل جل جهدى ، حتى وإن لم أكن متوائما تماما معه ، كانت ذروة عملى الصحفى فى الجبهة ، عندما كنت أعمل كمراسل حربى ، كان ذلك يضيف إلى تجربتى ككاتب ، ولكن العمل فى نطاق الواقع الأدبى يسحب من رصيدى الحى ولايضيف إليه إلا اليسير ، وقد وثق بى الأستاذ سعيد سنبل ، وأسند إلىّ الإشراف على هذه الصفحة ، ومن هنا لا أبخل عليها بأى جهد ، مع أن ذلك يكلفنى الكثير ولكننى أعتبر هذا قدراً ، ولهذا الحديث مقام آخر ، من مكتبى

اتصلت مرارا ، وكان صوت أيمن الهادئ يجيئنى منبئا إياى :

- ماتعولش هم .. هى لسه نايمه ..

عند الظهر عدت ومعى طعام جاهز ، كان أيمن أول أمس قد أحضر كعكة حلوى للاحتفال بعيد ميلاد محمد ، وأنا لم أحتفل يوما بعيد ميلادى، ولم أردد قط (هابى بيرث دى تويو) ، وإذا ماحضرت عيد ميلاد ، فإننى أحرك شفتىّ فقط ، أما عيد ميلاد محمد أوشقيقته ، فإننا نحضر كعكة ، ونشعل شمعة ، ونقف نحن الأربعة عادة وتقوم ابنتى الصغيرة بإطفائها ، يعجبها ذلك فتشعل الشمعة عدة مرات ، وتطفئها .

عند عودتى ، كانت الحرارة ماتزال مرتفعة ، ولكن زوجتى كان باستطاعتها أن تجيبنا ، وعندما رجوتها أن تأكل مجرد لقمة حتى تسند الأدوية العديدة التى تتناولها رفضت ، وعندئذ جئت بجريدة قديمة ، وفرشنا الورق فوق أرض الغرفة إلى جوار السرير ،وبسطنا الطعام الذى أتيت به ، قلت إنه لابد أن نأكل كما اعتدنا ، ولابد أن تشاركنا ، ثم لكى أحفزها قلت : عشان البنت الصغيرة حتى .. دى مش راضية تاكل خالص ..

كنت أحاول أن أبث المرح ، ولكن نظام البيت الذى اختل لايمكن تقبله بسهولة ، كانت هى تقول لمحمد شيئا ما ،تعتذر عن عدم قدرتها على أن تقوم والليلة عيد ميلاده ، لكن محمد قال منفعلا ..

- أنا مش حولع الشمعة إلا لما تخفى ..

وبالفعل ، رفض أى شكل من مظاهر الاحتفال به ، مادامت أمه مريضة .. وهكذا انقضى عيد ميلاده فى صمت .

* * *

الجمعة :

أمس ، مساء ، بدأت تتحرك ، كانت تسأل عن ترتيب الأشياء في المطبخ ، عن كراسات ماجدة ، إلا أننى أجبتها أن كل شئ على مايرام ، وأنها يجب أن تنال أكبر قسط من الراحة .

كان أيمن شقيقها يقوم بجل الجهد ، وكنت أسعى لأساعده ، لاحظت أن ماجدة الصغيرة تلملم الأشياء التى اعتادت أن تبعثرها ، محمد يعاملها برقة ، أما هى فبدت حائرة ، لاتدرى مستقرا لها ، كانت تروح وتجئ .. حائرة .

* * *

الاحد صباحا :

منذ ليلة أمس ، يمكن لزوجتى أن تقف ، تمشى بصعوبة .

أيقظنى المذياع ، كان للموسيقى الشجية صدى وترجيع عندى ، قمت متجها لأوقظ الصغار ، انحنيت على ماجدة الصغيرة مناديا إياها ، فوجئت بزوجتى تقف عند باب الغرفة ، تستند إلى عصا :

– ليه قمت .. أنت لازم تستريحى ..

قالت بحزم :

– أنا اللى حفطرهم .. روح أنت سهران لغاية الفجر .

تقدمت من سرير الصغيرة ، كان محمد قد استيقظ بمفرده ، بدون نداءات، كانت الحياة التى اختلت توشك أن تنتظم ، وبرغم بطء حركتها ، وتثاقلها ، إلا أن محمد قال :

- حمدا لله على السلامة ياماما ..

أسرع أيمن لإعداد الإفطار ، أما ماجدة الصغيرة فقد تهللت عندما رأت أمها هى التى توقظها ، فتحت عينيها بدلال ، ثم نظرت إلىّ قائلة :

- شوف بقى ماما حتلبسنى إزاى !

مفاجـــأة

يناير ١٩٨٨

الأربعاء :

.. لم أجد الأستاذ سعيد سنبل ..

كان فى المبنى الآخر مجتمعا برئيس مجلس الإدارة ، كنت أريد مقابلته لأمور تتعلق بصفحة أخبار الأدب .

خرجت من المكتب ، لحقنى حسن الأسمر أحد العاملين به ، قدم إلى مظروفا أصفر كبير الحجم ، عليه اسمى وبخط اليد كتب أيضا سفارة فرنسا ورقم ما ، قال لى : إنه جاء فى البريد الذى يسلم باليد ، عدت إلى مكتبى، وضعت المظروف أمامى مع رسائل أخرى ، كنت الملم حاجياتى متعجلا ، فزميلى وصديقى مكرم جاد الكريم ينتظرنى ، سنذهب معا إلى الحسين ، انصرفت .

أمام المصعد تذكرت المظروف الأصفر والخطابات الأخرى ، عدت مسرعا ، كان المظروف كبيرا ، طبقته بسرعة ، وضعته فى الحقيبة وأنا جاهل تماما بما يحتوى ، فى كل يوم تصلنى مظاريف عديدة من جهات شتى ، ربما يحوى برنامج المركز الثقافى الفرنسى ، ربما يحوى معايدة على بطاقة أولوحة متوسطة الحجم ، بمناسبة رأس السنة .

على أية حال اعتدت أن أقرأ بريدى ليلا ، مضيت إلى الشارع ،مضيت بصحبة مكرم عبر زحام القاهرة الكثيف إلى المركز الروحى للمدينة ، ولعمرى أيضا ، إلى الحسين ، إلى الجمالية ..

***

أبدأ جولتى عادة من معرض صديقى فتحى ، صاحبى منذ ربع قرن ، فنان طالع من أعماق الشعب ، وارث لقيم فنية وحرفية قديمة ، متخصص في الفضة ، قعدنا عنده ، شربنا شايا ، أسندت الحقيبة وراء مكتبه ، قلت : إننى سأبقيها هنا حتى نتم جولتنا ، سألنى :

فيها حاجة تخاف عليها ؟

قلت له :

- لاأظن .. وإذا شئت خذها بمحتوياتها ..

التقينا بالأديب الجزائرى الطاهر وطار ، التقط له مكرم بعض الصور ، ثم فارقتهما موغلا فى مكانى وزمنى الخاص ، إلى مسجد السلطان برقوق ، اجتزت المدخل الضيق الطويل والذى ينتهى فجأة إلى الصحن الفسيح ، الجميل ، فكأنه الفرج بعد الشدة ، أوالعسر يجئ بعده يسر ، أويت إلى الإيوان الشرقي ، متأملا نقوش الجدران ، أوالسقف ذا النقوش الزرقاء الذى يحاكى زرقة السماء ، والسماء القريبة البعيدة التى تبدو من خلال الصحن المكشوف ، أصغيت إلى أصوات الطريق والتى تبدو كرجع الصدى أوغلت في الزمان ، تحسست الدروب المؤدية إلى التاريخ ، هذا اليوم الذى وقف فيه السلطان برقوق عند افتتاح مسجده أمام تلك الميضأه ، يسقى الناس ، شراب السكر والليمون بيده .

هذا زمن مندثر ، وكينونته في المخيلة فقط ، وتلك الجدران التي بقيت بعد أن باد أصحابها .

العصر ، وللعصر فى المساجد القديمة وقع غريب ، عندما يشحب الضوء، تأتينى ظلال الأزمنة البعيدة ، يبلغ الوجود حدا من الرقة والحزن الشفيف القاطع ، حتى لا أقدر على احتماله ، فأفارق ، عدت إلى فتحى عند العصر، تناولت حقيبتى ، كان المظروف مطلا منها ، والسوستة غير مغلقة، لان المظروف أطول من الحقيبة ، ثم بدأت رحلة عودتى إلى حلوان ، كان يجب أن أنزل ليلا مرة أخرى لحضور حفل تكريم أقامه السفير الجزائرى للأديب الطاهر وطار ، فى القطار تأملت محتويات حقيبتى قبل أن أخرج كتابا أقرأه عبر المسافة الطويلة ، وقعت عيناى على المظروف .

ماذا فيه ؟

على أية حال ، فى الليل سأعرف .

* * *

الأربعاء ليلا :

انتصف الليل .

كنت مرهقا عند عودتى ، السكن بعيد ، والنزول مرتين متعب ، رحت أنقل بعض محتويات الحقيبة إلى الجاكتة التى سأرتديها غدا ، حتى لاأضيع وقتا أنا فى حاجة إليه صباحا .

المظاريف ، البريد ، عندى حاجة إلى النوم ، لكن لوأجلت ذلك إلى الغد ربما نسيت وتضيع بعض الخطابات . بدأت بالمظروف الأصفر القادم من سفارة فرنسا .

سحبت أربع أوراق ، الأولى تشبه الشهادة ، أخرجتها ، لا أعرف الفرنسية ، ولكننى ملم ببعض مفرداتها التى تتشابه باللغة الانجليزيه .

وزارة الثقافة ..

توقيع بالحبر لوزير الثقافة .

طبعا قرأت اسمى المكتوب بالآلة الكاتبة على الشهادة المطبوعة .

ماهذا ؟ ، إننى أمام ورقة غير عادية ، اتجهت إلى ماجدة زوجتى ، كانت ترقد بين بين ، أيقظتها برفق ، فأيام مرضها لم تنقض بعد ..

- اقرأى هذا .. أظنها شهادة ..

رحت أتابعها وهى تبدأ قراءة الورقة ، التفتت إلى ، صاحت :

- مبروك .. هذه براءة وسام فارس .

أصغيت غير مصدق ، كعادتى لا أستوعب الحدث لحظة وقوعه ، فى آنيته ، أستعيده فيما بعد ، وهكذا .. دائما أفراحى وأحزانى مؤجلة ، منفية عن آنيتها ، وقت حدوثها ..

* * *

وسام الاستحقاق الفرنسى في الآداب والفنون من طبقة فارس .

الترجمة الدقيقة للاسم ، رحت أصغى إلى زوجتى تترجم لى خطاب وزير الثقافة الفرنسى الذى كتبه بخط يده .. أصغيت إلى قوله :

- " إننى سعيد بشكل خاص لكون موهبتكم الكبيرة صارت معروفة هكذا ، وأنا أتوجه إليكم بتهانئى الحارة جدا .. وتقبلوا سيدى التعبير عن أفضل مشاعرى .. "

انسحبت فى هدوء إلى المكتبة ، اتصلت بصاحبى الحميم جلال السيد والذى اعتدت أن أتحدث إليه بعد منتصف الليل ، وجاءنى صوته الطيب الآمن مهنئا ، عدت إلى توحدى بزمنى ، تلك محطة فى الطريق الطويل الذى حفرت فيه عبر الصخور والمشاق ، إذن فتعب الليالى لم يضع هدرا ، سلسلة من المحطات ، كانت أولها ذات يوم لاأدرى إن كان أحد أوسبت أواثنين عام ألف وتسعمائة وتسعة وخمسين ، عندما شعرت بميل غامض لكى أكتب ، وبدأت ، وأعطيت الأدب عمري ..

وفى غمار هذه اللحظات التى يحق لى أن أشعر فيها بالسعادة ، تذكرت صاحبا لى ، كان يرقد بين الحياة والموت ، للأسف شيعته بعد ذلك بأيام قليلة ، صاحبى هذا قال لي يوما :

– " الأدب بقدر ماتعطيه يعطيك .. "

والعطاء هو الجهد والإخلاص .

***

الثلاثاء:

لطفك ياكريم !

هل أسعى حقا لأمشى في جنازة مصطفى كامل مراد ؟ ، أى قدر محزن؟ أى مأساة ، صباح اليوم قال لى صديقى محمد تبارك :

– ليتك لم تعرفنى عليه .. وإلا لما كنت حزنت هذا الحزن كله ..

كان تبارك يبكى بدموع ، وكنت فى وجوم أشم ، أحقا رحل الرجل العظيم ؟ أحقا ؟

عرفته منذ سنوات طويلة ، كان ضابطا فى القوات المسلحة ، بإدارة شئون الضباط ، وكان أديبا متمكنا ، نشر عددا من قصصه القصيرة ، ثم توقف ، ولما سألته يوما ، لماذا ؟ قال لى ماذكرته :

- " الأدب بقدر ماتعطيه يعطيك ، وعملى لايدع الإمساحة قليلة للأدب فهل تنتظر أن يعطينى ؟ "

كانت لقاءاتى به إنسانية ، عميقة الحوارات ، وكان وطنيا عظيما ، فى حرب أكتوبر لم يكن عمله القانونى يسمح له بالمشاركة فى العمليات ، إلا أنه اختلق مهمة فى الجبهة ، وسافر إلى مقر قيادة الفرقة الثانية فى الخطوط الأمامية ، شيعته القوات المسلحة وهو برتبة لواء ، ومدير قضائها العسكرى ، ولم يكن لواء فى الرتبة ، إنما كان لواء فى الأخلاق ، لواء فى الفروسية ، لواء فى الثقافة ، لواء فى الإخلاص للأصدقاء ، وشاء قدره أن يموت شهيدا وهو يحاول إنقاذ رفيقة عمره ، كان أبا رائعا ، ورب أسرة مثاليًا ، تزور بيته فتشعر أن الدنيا ماتزال بخير ، وأن القيم الحقة لها من يجسدها ، زوجته الفاضلة - شفاها الله الآن - عفاف طبالة ، من ألمع مخرجى التليفزيون ، بعد أن أتم الأولاد تعليمهم تقدمت لتواصل الدراسة ، لتحصل على الماجستير فى الإعلام ، حتى كان يوم - وأى يوم - كانت تنظف ستائر البيت كأى ربة بيت مصرية ، وكانت تستخدم البنزين ، لا أعرف ماذا جرى بالضبط ، ولكن مصدر نيران كان قريبا .

التحمت النيران بالبنزين ، وشب اللهب فى العمر الآمن ، وهرع اللواء ، الزوج الوفى ، لواء الإخلاص ولواء المحبة ، هرع مقتحما النيران واللهب محاولا انقاذ زوجته ..

وشاء السعير المجنون أن ينهى رفقة موفقة ، عذبة ، دامت عمرا ،

وأثمرت خيرا ، كل الخير ، لم تطل أيامه فى غرفة الإنعاش ، أما الزوجة فتعالج الآن والآلام عظيمة ، والله لا أصدق نفسى ، ان أرثي بيدى هذا الرجل الذى مامن إنسان عرفه إلا احترمه ، وأحبه ، كان صعبا على أن أمشى وراءه فى الجنازة العسكرية المهيبة ، كان صعبا خاصة أننى قصرت فى حقه ، فمنذ فترة كنت أعبر مدينة نصر ، وجدت نفسى قريبا من مكتبه، وخطر لى أن أمضى إليه ، أمكث معه بعض الوقت ، كنت مرتبطا بموعد ، فأجلت .. وليتنى مافعلت .. ليتنى ماأجلت رؤيته ..

قد صار اللقاء هناك ، فوداعا يالواء المحبة ، يالواء الشهامة ، يا أعز من عرفت ..

* * *

الخميس:

.. فيض من المشاعر الحميمية غمرنى طوال الأسبوعين الماضيين منذ أن كتبت فى يومياتى الماضية عن مرض زوجتى ، استفسارات وأمنيات بالشفاء ممن تربطنا بهم علاقة ، ومن ألتقى بهم عبر هذه الكلمات ، زوجة الدكتور عبد القادر قطب ، الذى يعالج زوجتى - وهى طبيبة أيضا - طلبت منه أن يبذل جل علمه حتى يمكن لزوجتى أن تمشى من أجل طفليها ، القارئ مصطفى محمود عاشور بهيئة النقل العام بالإسكندرية أرسل إلى خطابا يتضمن وصفة مجربة ، موادها من قشر الثوم وجلد القنفذ ، والوقت المحدد عند غروب الشمس .

ولكن الخطاب الذى لقى صدى عندى وصلنى بدون توقيع .. وإننى أنشره طبق الأصل .

فبراير ١٩٨٨

أفــــول

- أنا علاء الديب ..

أصغيت متوجسا ، فنبرة الصوت غير عادية ، كما أن مرات اتصاله بى فى مكتبى نادرة جدا ، مابين إجابتى وبدء حديثه أيقنت أن شيئًا غير عادى وقع ، قال : إن إسماعيل العادلى ، نقل أمس إلى المستشفى ، بعد إصابته بنزيف حاد ، مجهول الأسباب ، وأنه تم إجراء عملية جراحية كبرى ، وانه يجتاز الآن مرحلة الخطر ، ولن تنتهى قبل صباح الغد ، قال إنه يخبر أصدقاء إسماعيل بما جرى ، وأن الأمر تم كله فجأة ، بغتة .

بعد انتهاء المكالمة بقيت جالسا لا أتحرك ، أحدق في فراغ الحجرة ، جامد الأسارير ، وإن كنت فى أمر ، غمرنى ظل رمادى ، غيمت على سحابة كدر .

أهكذا ؟ ، أهكذا نصل إلى اليوم الذى نتناقل فيه أنباء المرض المفاجئ ، والوصول إلى نقطة الخطر ، ويدخل أحدنا غرفة الإنعاش ، لتتصل خراطيم الأكسجين بأنفه ، وأنابيب التغذية بعروقه ، أهكذا .

أوجست خيفة ، ورحلت بخواطرى إلى عشرين عاما خلت .

* * *

كان ذلك العام السابع والستين ، عادة مانكتسب الأصدقاء ، ومع مرور العمر لاندرى متى كان اللقاء الأول ، أوكيف بدأت الصلات ، ولكنه لاشك مناخ هذه السنوات البعيدة ، كانت الهزيمة تتطاير شظاها ، في أوجها ، وجراحنا طرية حادة ، إلا أن ذلك ولد فى جيلنا قوة على المقاومة ، ورغبة قوية في اجتياز ماجرى ، ونتج أيضا إحساس بضرورة القربى ، كنا لانفترق فى هذه الأيام البعيدة ، كان إسماعيل يعمل فى إذاعة الشعب ، بعد أن ينتهى من عمله ننطلق إلى ميدان الحسين ، إلى المقاهى العتيقة ، نتحاور فى السياسة ، فى الحب ، فى المجتمع ، تجمعنا الرغبة فى تجاوز الواقع ، كنا نقرأ النصوص التى يكتبها كل منا ، وبعضنا ينقد ، نبيل بدران قدم أول أعماله التى أحدثت ضجة كبرى " البعض يأكلها والعة " ، نخرج بعد انتهاء العرض إلى الفيشاوى ، فى الواحدة صباحا يغادرنا يوسف القعيد إلى مستشفى غمرة العسكرى حيث كان يمضى خدمته العسكريه ، يقطع الطريق مشيا ، نقرر أن نمض الليل حتى الصباح ، عند الفجر يهل الشاعر الراحل أمل دنقل ، ينضم إلينا ، كان يجوب القاهرة ليلا ونهارا ، وإذ يبدو في الفراغ وهم الفجر ، يرتفع الأذان من مسجد مولانا القريب ، نتأهب للانصراف ، يمضى كل منا إلى عمله ، بدون نوم ، ولكن في منتهى الحيوية، في هذه السنوات التى تبدو بعيدة الآن ، بدأت عملى فى الجبهة كمراسل حربى ، أحيانا كنت أمضى أياما ثلاثة أوأربعة بدون نوم ، وأعود متدفقا بالحيوية ، عامرا بلحظات البطولة ، وأحكى لأصدقائى عمن قابلت ، عديدة تلك الليالى التى أمضيناها معا ، لكم مشينا فى صمت شارع المعز فى مطالع النهارات ،ولكم سهرنا فى البيت عند إسماعيل فى مصر الجديدة، نسمع الشعر ، ونقرأ نصوصنا ، نتفق ونختلف ، لكن اختلافنا كان كالاتفاق، كان إسماعيل شديد الحيوية ، ساخراً دائما ، لم نلتق إلاالنسخر ،

لنضحك ، لنحول كل مافى العالم إلى مادة للسخرية ، حتى أحزاننا ، كان إسماعيل وقتئذ يعيش حياته كفنان ، كمبدع ، ولكنه لم يوغل بعد فى لجة الإبداع ، وعندما توفيت شقيقة له فجأة ، مضينا لنقدم له العزاء ، وكان موقفا غريبا علينا وقتئذ ، فلم نعتد الصمت عند اللقاء ، ولم نعتد تبادل عبارات العزاء .

ولم نكن ندرى أن الدهر يخفى لنا آلاما تنوء بها الجبال .

* * *

فى مقهى الفيشاوى ذات ليلة ، كنا ندخن النرجيلة ، رحنا نتنافس فيمن له القدرة على التدخين لأطول فترة ، وضعنا النرجيلة فوق المنضدة ، وعندما بدأ إسماعيل ، وانهمك ، سقط فجأة ، وبدا كأن أوصاله تفككت من بعضها ، جئنا بكولونيا ، وعندما ذهب شحوب وجهه قام من فوق الأرض هاتفا :

- يعيش العادلى ألف عام !

صيف عامى سبعة وستين ، وثمانية وستين ، بدأ الأستاذ نجيب محفوظ يتردد على الفيشاوى صيفا ، كل يوم اثنين ، كنا نتحلق حوله ، نتحدث فى كل شئ ، إسماعيل ، يوسف ، أبو عوف ، وكنا نشعر بزهو لأن نجيب محفوظ خصنا بهذه الجلسة الأسبوعية ، فيما بعد ذلك بسنوات أبدى الأستاذ آراء فيما يتعلق بحل الصراع العربى الإسرائيلى جلبت عليه المتاعب، وقد اختلفت معه ، إلا أننى أسجل أن نجيب محفوظ صارحنا بآرائه هذه في تلك الجلسات الأسبوعية حاورناه ، وكان كعادته ينهى الحوار عند الثامنة ويقوم منصرفا ليوغل فى حوارى الجمالية مسترجعا ذكرياته المتبقية من العمر الجميل .

فى هذه الأيام اقترح إسماعيل ، مشروع العشاء المتواصل ، وهو أن يدعو كل منا صحبه مساء الخميس ، فى أول أسبوع دعانا إسماعيل فى بيته ، والحق كانت وليمة ، فى الأسبوع التالى دعانا صاحبنا الناقد عبد الرحمن أبو عوف ، كنا خمسة ، ودفع مبلغ أربعة جنيهات بعد أن تناولنا العشاء في أحد مطاعم الحسين ، فى الأسبوع التالى كان دور يوسف القعيد، وفى نفس المطعم بدأنا بطلب الحمام المشوى ، ثم الكباب ، ثم ... ، ودفع يوسف ثمانية جنيهات ، وكان مبلغا كبيرا بمقاييس الفترة ، وطبعا كظم غيظه ، وعرف كيف ينتقم فى الأسبوع التالى ، وكان الدور على شخصى ..

كانت نقودنا قليلة، وكنا لانخاف من الغد كما نخشى الآن ، وكنا نقرأ بنهم ، ونكتب بغزارة ، بحيوية ، ولانفترق ، استمرت هذه الأيام الحميمية حتى دخلنا فى نفق السبعينيات المعتم ، فنال منا ،تحول الجمع إلى جزر متباعدة ، وازداد الإيغال داخل الذوات ، وبدأ الصراع مع واقع قاس، فيه الخشية من الغد ، والهم الدائم للحفاظ على الذات فى مواجهة واقع يحفل بعوامل التدمير ، أكثر من عوامل البناء ،وبالنسبة لى كان همى كله أن أصل بذاتى سليمة إلى ساعتين فقط كل يوم لأكتب وأقرأ . أما الحسين فصرت أمضى إليه بمفردى ، وصارت الوحدة ملجئى ، بل إننى أنزعج إذا ما اقتحمها البعض ، علاقاتنا أصبحت بالتليفون.

مع بداية السبعينيات أصيب إسماعيل بذبحة صدرية ، بعد ذلك بسنوات أصبت بجلطة فى ساقي ، وجاء إسماعيل يعودنى فى البيت ، وبعد فترة قلت له :

- " ألا تلاحظ أننا لانتبادل إلاحديث المرض " ..

قال :

- " لقد شبنا قبل الأوان " .

* * *

الأربعاء:

من الأحد الماضى أتصل يوميا بالدكتور سيد البحراوى الذى لازم إسماعيل طوال مرحلة الخطر ، حدثنى عن الطبيب الذى تبرع بدمه عندما أصبح الموقف حرجا ، وعدم تشابه دماء الأقارب بدم إسماعيل ، عن الأطباء الذين قضوا عشرين ساعة بدون نوم ، مضيت إلى مستشفى عين شمس التخصصى، مدينة طبية متكاملة ، النظافة طابع للمكان ، النظام الدقيق ، خلال السنوات العشر الماضية جرفت الحياة كلا منا ، صارت اللقاءات متباعدة ، كنت ألتقى به فأجده مهموما ، عيناه شاردتان ، وكنا نحاول استعادة حميمية الزمن القديم ، ولكننا أشبه بمن ينفخ فى الرماد ، فالمناخ تغير ، والهموم تعاظمت ، خلال هذه الأعوام أصدر إسماعيل مجموعة قصصية جميلة (العام الخامس) ورواية قصيرة ، كما أصبح أبا ، عندما رأيته راقدا فى الفراش ، صافحته بحرارة ، ولم أكن أرى صاحبا عزيزا ممددا ، تتصل بجسده أنابيب الجلوكوز ، والأدوية ، إنما مرحلة كاملة من عمرى ، وكعادتى .. لكى أهرب من مشاعر اللحظة المؤلمة ، رحت أشرق وأغرب طارقا مواضيع شتى ، وكان إسماعيل يضحك ، فيضطر إلى الانحناء متألما ، حكى لى عن النزيف المفاجئ ، عن مراحل الخطر . وعندما انصرفت في الثالثة ، قال لى أحد الأطباء إن إرادة الحياة عند صاحبكم قوية، خارقة ، لقد دنا من الموت ولكنه أنقذ بأعجوبة وعندما كنت أعبر صحن المستشفى كنت أغالب دمعى !

* * *

الاثنين:

.. مصادفة ؟

أم أنه التوقيت المتزامن لجيل بأكمله بدأ أفوله في خضم الشباب ، ومع ذلك مازال البعض ينكر عليه مجرد حق التواجد ، بعد أن حضرنا الاجتماع التحضيري لمؤتمر أدباء آسيا وأفريقيا الذى سيعقد فى القاهرة خلال الشهر القادم ، قال لى صديقى الروائى يوسف القعيد: إنه ماض إلى الطبيب لإجراء تحليلات ، إذ أنه يشكو أعراضا منذ فترة ، بعد أيام ثلاثة اتصلت به ، أخبرنى أن التحليلات أسفرت عن إصابته بمرض السكر ، وأن نسبته عالية جدا فى الدم ،تقترب من الأربعمائه ، وأنه لابد من ضبط الطعام ، والحركة .

قلت كلاما مشجعا ، فعميدنا وشيخنا نجيب محفوظ مريض بالسكر منذ ثلاثين عاما ، الأمر يحتاج إلى انضباط شديد ، فى الأيام التالية وخلال اتصالنا الهاتفى اليومى لاحظت الاكتئاب الذى غشى صوته ، وعندما أخبرنى أنه يقضى الآن أوقاتا أطول مع ولديه ، تحدثت عن ضرورة التكيف مع الواقع الجديد ، وأننا لم نعد صغارا فى السن ، ولكننى شعرت بالأسى مرة أخرى ، ماهذا إلا حصاد تراكمات عديدة أشعلت الشيب فى رؤوسنا قبل الأوان .

اليوم كنت فى زيارة أشقائى بمدينة نصر ، يوسف يسكن في المنزل المجاور ، لم أره منذ شهر ، فكما قلت صار الهاتف بديل لقاءاتنا ، وأمس كنت أتحدث - عبر الهاتف - إلى الصديق كمال القلش ، وطالت المكالمة وقرب نهايتها قلت مازحا :

- " ماتتفضل تتعشى معنا ؟ خليك شوية " .

عندما فتحت الباب ، فوجئت ، لقد التزم يوسف نظاما غذائيا حادا كان نتيجته أن وزنه نقص عشرين كيلو في حوالى شهر ، وعندما تقدمنى تذكرت نحول شيخنا نجيب محفوظ في السنوات العشر الأخيرة .

كنت أتحدث إلى صاحبى ، وشريط طويل من الذكريات يتوالى ، فليس من السهل أن يدرك المرض صديقا لك تعرفه منذ أكثر من ربع قرن ، وعبرت بصحبته مراحل زمنية واختلفت عليكما ظروف شتى ، ونادرة تلك الصلات التى تستمر مع الإنسان من أيام الحميمية ، حتى مراحل العمر المتقدمة .

خرجت إلى صحراء مدينة نصر ، قارسة البرد ، أبحث عن مواصلة تنقلنى إلى مقهاى بميدان باب اللوق ، كان الليل مكتملا ، ولكن داخلى مازال الشعور المصاحب لهذه اللحظات التى تسبق دنو الغروب .

* * *

الثلاثاء:

.. أصغيت إلى أرملة الفنان الكبير رمسيس يونان ، زارتنى بصحبة مستشرقة بولندية متخصصة فى الأدب العربى ، وتناول الحديث عدداً من الشخصيات ، وعندما بدأت تتحدث عن هذا الأستاذ الكبير أدركنى الأسى، آخر مرة رأيته فى حفل تسليم شيخنا يحيى حقى وسام الاستحقاق الفرنسى، كان ذلك منذ عامين ، كان لابد أن أرفع من صوتى عند حديثى إليه ، أصبح سمعه ثقيلا ، ولاحظت أن سائقه يعيد كلماتى بصوت مرتفع، ويمسك بذراعه ليوجهه بعنف ، بينما تحمل ملامحه سخرية من الرجل ، وبين الحين والحين ، يردد :

– أصله مابيسمعشى !

بعد هذا الحفل لم أره ، لم أسمع عنه ، توقف منذ عدة سنوات عن كتابة مقالاته ، هذا رجل فتح عينى على تاريخ مصر فى فترة مبكرة من الستينيات ، كما فتح عينى على عالم الموسيقى العالمية بغموضه ، ولم أتغلغل فيه الا من خلال شروحه ، عالم هو ، أديب ، مؤرخ ، تجاوز الآن التسعين وعندما أخبرتنى أرملة رمسيس يونان أنها تراه أحيانا ، سألتها عن أحواله ، فوقفت على ما أحزننى ، لقد انقطعت صلة الرجل بالعالم الخارجى تماما ، أصبح مقيما فى بيته ، ترعاه الشغالة وزوجها ، يمضى نهاره وليله نائما ، توقظه الشغالة فقط لكى يأكل ثم ينام ، إنه يقف فوق الدرج ماقبل الأخير ، مقطوعا عن كل قريب ، أو صاحب .

قالت لى أرملة رمسيس يونان ، إنها سألته فى آخر مرة عما إذا كان له أقارب ، فقال إن هناك شقيقة له فى الإسكندرية ، لكنه لايعلم إذا كانت على قيد الحياة أم ماتت ؟

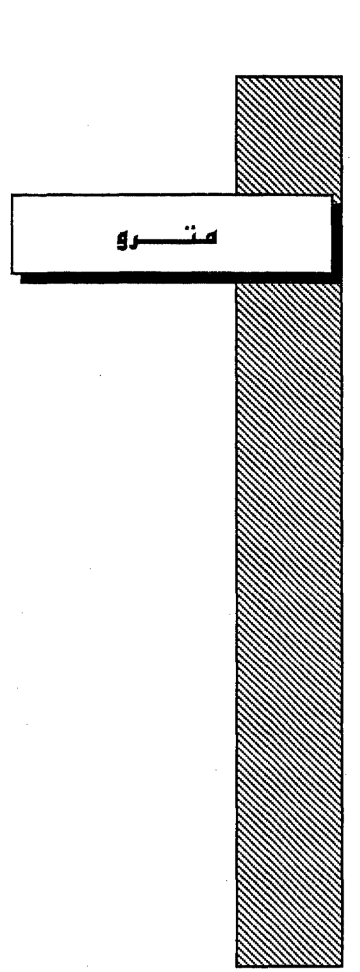
إلى هذا الحد ، لم ينجب الرجل ، أما امرأته الفرنسية فقد رحلت منذ عدة سنوات ،دفنت هناك .

قالت لى إن الوحيد الذى استفسر عنه دائما ، وزاره ، هو الدكتور لويس عوض ، ولكنه في المرة الأخيرة شعر بألم عميق ، مما آل إليه حال الرجل .

ينام ، يقوم ليأكل فقط ، يقف وخلفه مايقرب من تسعين عاما ، أعطى خلالها فى مختلف الفروع ، فأي نهاية ؟ اللهم لاتطل عمرى إلى هذا الحد .

اللهم اقبضنى فجأة ، كما رحل أبى وأمى فى ثوان ، لكم أدركت رحمتك بهما ، عندما استرددتهما فجأة ، بدون آلام ، بدون رقاد ، فما أصعب أن يموت الانسان فعلا ، وهو يمشى ويبصر ويرى .

مارس ١٩٨٨



مــــترو

مساء الثلاثاء :

ثكنات المعادى ..

صعد عدد كبير من الركاب ، طالبات المدرسة الإعدادية ، الفترة المسائية عمال وموظفون بسلاح المهمات ، ركاب عاديون ، جلس أمامى شاب يرتدى معطفا قصيرا ، بدا مرحا ، يتلفت حوله ، كنت أقرأ فى كتاب ، كعادتى خلال رحلتى الطويلة من حلوان إلى القاهرة ، أخصص كتابا أبدأه وأنهيه فى القطار ، معدل ما أقرأه بتركيز خلال ساعة إلاربعا ، ثلاثين صفحة ، طبعا هذه القراءة أصبحت ممكنة بعد افتتاح مترو الأنفاق ، وانتظام القطارات، وإمكانية الجلوس ، كنت أرقب الشاب الذى راح يتلفت حولى ، ثم اتجه إلى بالسؤال :

- هل هذا كتاب مهم ؟

- نعم .

- عن أى شئ ؟

- عن حياة كاتب .. أديب يعنى ..

- من هو ؟

- تشيكوف .

- من ؟

- أديب روسى اسمه أنطون تشيكوف .

- ياه .. وهل هو مهم إلى درجة كبيرة ..

- أظن ..

- يعنى يستحق أن تتعب نظرك ؟

- مؤكد ..

- إيه أهميته يعنى ؟

وهنا ، أغلقت كتاب تشيكوف لهنرى ترويا الأديب الفرنسى ، كان من الواضح أن صاحبنا لن يسكت ، وأنه من الذين اعتادوا بدء الحوار مع الغرباء عنهم ، تطلعت إليه وبدأت أسأل :

- أنت موظف ؟

- لا ، عامل فى سلاح المهمات .

- وأين تسكن ؟

- فى شبرا الخيمة ..

- ياه .. مشوار !

- مشوار طويل ، نعم .. أخرج من بيتنا السابعة صباحا ، وأرجع فى الليل .. ثم التفت إلى الطالبات الصغيرات :

- مش حرام أنهم يتأخروا إلى الآن ؟

- طبعا .. لكن التعليم ضرورى ..

- لوابنتى أنا لن أرضى بذهابها إلى المدرسة بعد الظهر ..

- أنت متزوج ؟

- لا .. كنت خاطبا ..

وهنا أبديت أسفا انعكس على ملامحى ..

- فسخت ؟

- آه .. ناس مش تمام ..

- ألم تكن تعرفهم ؟

- كنت أعرفهم ، هم جيراننا ، ولكن طلباتهم كانت لاتطاق ، اتفقنا ونقضوا كل الاتفاقات .

- كم مرتبك ؟

- تسعين جنيها ..

- وهل أدخرت مايكفى ؟

- دخلت جمعيات ، وحوشت مبلغ ..

كان رأسانا قد تقاربا ، وكأننا نعرف بعضنا منذ سنوات ، ألم نطرق الخصوصيات كان يتحدث بعفوية ، وتلقائية ، لايخفى شيئا ، وتلك حوارات خبرتها وعرفتها جيدا ، فى القطارات ، فى المقاهى ، أوفى قاعات الانتظار بعيادات الأطباء ، ولا يوجد شعب فى العالم يجرى التواصل بين أفراده مثل المصريين ، كنت قد أغلقت الكتاب ، وبدأت أصغى محاورا .. قال :

- اشتريت لهم شبكة ، ودفعت خلو حجرة بمنافعها ..

- طبعا استرديت الشبكة ؟

- أبدا والله ، من قرفى سبتها لهم .. كانوا ناس وحشين قوى ..

لوحت بيدى ، مخففا عنه :

- أحمد ربنا يارجل أنك خلصت منهم ..

هز رأسه ..

- تعبونى قوى ..

- كويس أنك لم تستمر ..

قال :

- يروحوا فى ستين داهية ..

أكدت قوله :

- ناس وحشين ..

كنا قد وصلنا إلى محطة السيدة زينب ، انتبهت إلى أننى أهاجم أناسا لا أعرفهم ، وأصفهم بأنهم وحشين ، وأشكر الظروف التى خلصت هذا الشاب منهم ، وكدت أسخر من نفسى ، ولكننى انتبهت إلى هذه المشاركة التلقائية، وقد لاحظت مثلا أثناء ركوبى عربات الأجرة بالنفر ، أن الركاب ينحازون إلى السائق ، إذا ماضايقه سائق آخر ، حتى لوكان مخطئا ، وتتوالى التعليقات ، بعضها يصف السائق الآخر بأنه يجهل القيادة ، وأنه حمار ، وأنه لم يكن يرى ، أو كاسر جامد ، أوركبوا السيارات وهم جهلة !

قام الشاب قبل محطة ميدان التحرير .

- السلام عليكم ..

وأجبت التحية ، بعد أن غادر المقعد ، عاد ليسألنى وعلى وجهه ظل ابتسامة ..

- ما اسم الكاتب ؟

تشيكوف ..

هز رأسه ، واختفى فى الزحام ، وانتبهت فى هذه اللحظة إلى أننى نسيت أن أسأله عن اسمه ..

* * *

الخميس ليلا :

.. بعد مترو الأنفاق ، أصبح ممكنا لى أن أضبط مواعيدى ، القطار منتظم ، الفواصل الزمنية ضيقة وهذا يخفف حدة الزحام مما يتيح الفرصة للجلوس ، والقراءة ، كان الوضع سابقًا صعبا جدا ، كان المترو يزدحم إلى درجة الضغط على ضلوع الجسد حتى ليصعب التنفس ، كانت المسافة من حلوان إلى القاهرة تستغرق ساعتين أو أكثر ، وأحيانا كنت أقف هذه المدة فى ساعات الذروة حتى يمكننى الحصول على موطأ قدم فى المترو أومقعد فى الميكروباس ، وكنت مواظبا على ركوب سيارة مؤسسة الأخبار ، وموعد هذه السيارة السابعة والنصف ، وكان هذا يعنى استيقاظى فى السادسة صباحا ، ولأننى أسهر أعمل حتى الثانية صباحا ، أقرأ وأكتب ، فكنت أفارق البيت أترنح من التعب والإرهاق ، فيوم عملى فى المكتب طويل ،

ويستمر حتى الثالثة لأبدأ رحلة العودة إلى البيت ، المترو أضاف إلى ساعات نومى ساعة ونصفا ، يمكننى الآن أن أنام خمس ساعات متصلة ، وأن

أصل فى نفس التوقيت إلى مكتبى ، التاسعة والنصف ، ولأن المترو يمكن الجلوس فيه ، فأستطيع القراءة ، وهكذا تتحول الرحلة إلى وقت مثمر، بدلا من وقت مضن ، مرهق ، ضائع ، مالفت نظرى منذ اليوم الأول ، هو سلوك الناس ، لقد كثرت المقالات قبل افتتاح المترو عن السلوكيات المتوقعة ، والقذارة ، ولكننى بعد عدة شهور أقول إننا نظلم أنفسنا وننهش ذواتنا بأيدينا ، أكثر مما يفعل الآخرون بنا ، باطن الأرض أنظف ، الناس منضبطون جدا فى عملية الدخول والخروج من الأبواب الأوتوماتيكية ، الالتزام بالطابور دقيق أمام شباك التذاكر ، مخالفات التدخين قليلة نسبيا ، وتضبط على الفور ، وأحيانا يقوم الجمهور العادى بإبلاغ الشرطة عن المخالف ، وفى تقديرى أن انضباط الجمهور ، راجع إلى أمرين ، أنه رأى إنجازا حقيقيا بعينيه ، والثانى أن القانون فى المترو مطبق على الجميع ، وبدون استثناء ، وإذا كان لابد من ملاحظات ، فأقول إن ماكينات قطع التذاكر غير عملية خاصة فى ساعات الزحام ، الموظف يضغط عدة أزرار حتى تظهر التذكرة ، ثم عملية عد الفكة ، وفى فرنسا لاتستغرق عملية شراء التذاكر إلا ثوان قليلة ، أيضا فلم يكن هناك داع لبوابات الخروج الكهربائية ، إنها لازمة عند الدخول ،ولكن لماذا عند الخروج ؟ لم أر مثيلا لها فى أى من العواصم التى زرتها وبها مترو الأنفاق ، إنها تؤدى إلى تزاحم الناس عند الخروج ، فإذا كان الدخول يتم فرادى فإنه يحدث جماعة ، وليس معقولا أن أجئ من المعادى إلى ميدان التحرير فى عشرين دقيقة . وأحتاج إلى مثلها كى أخرج من المحطة .

الطريف ، أن خصائصنا المصرية تبدو فى أدق الأمور ، عندى اشتراك ، وأبرزه عند الدخول أو الخروج للموظف المختص ، ومامن مرة أخرجه فيها إلاوأسمع " تفضل " أو " ماشى " أو "شكرا" ، وهذه الكلمات تقال من جانب

شخص واحد للآلاف يوميا ، ومثل هؤلاء يقفون فى لندن أوباريس أوأى بلد آخر كجلمود صخر حطه السيل من عل ، لا ينطقون ، ولايتكلمون .

الليلة ، وعند عودتى متأخرا ، كنت أجلس فى العربة الأمامية ، التى بها كابينة القيادة ، القطارات مزودة بأجهزة لاسلكى ، وفى الليل يعلو صوت الحوارات المتبادلة بين السائق وبين زملائه عبر الجهاز ، وطبعا كلنا نسمع ، هذه الليلة كان المتحدث صوته مرتفع جدا ..

"مساء الخير ياباشا .."

لم أسمع الجواب ، ربما لأن سمعى ثقيل بعض الشئ ، أولأن صوت السائق كان خافتا .

" عمال أمسى عليك وأنت تقلان علىّ .. "

" .... "

" حتبات فى حلوان ولا فى رمسيس ؟ "

" .... "

" معايا أمانة إنما ايه ياحاج على .. "

" .... "

" الحاج اللى معايا بيمسى هو كمان .. الحاج عبد الحميد عبد الحافظ "

" .... "

" بصراحة ، مافيش أعز منك عندى فى الخط كله ..

ثم يعلو الصوت فجأة :

" بس يابتاع رمسيس أنت ، ياللى واجع دماغى بالصفارة دى .. ابقى اتغطى كويس ياخويا ، أحسن مش حتلاقى حد من حبايبك يغطيك ها .. ها ..ها " .

وعندما غادرت المترو ، كان الركاب يبتسمون .

إبريل ١٩٨٨

شـــــريط ..

.. فتحت درج مكتبى الأيمن ، حيث اعتدت الاحتفاظ بأوراق ذات حميمية خاصة ، تناولت العلبة الصغيرة التى تحوى شريط " الكاسيت " تأملته ،قلبته ، بهدوء حذر أعدته إلى موضعه ، حتى الآن لا أجرؤ على سماع مايحتويه ، ليس عندى الجرأة ، ولا القدرة على تحمل الأثرالناجم ، برغم انقضاء ست سنوات .

نعم ..

ست سنوات كاملة ، فما أسرع كرّ الوقت .

* * *

كان شقيقى إسماعيل في أمريكا خلال هذا الصيف الحار ، أرسل مع صاحب له يطلب رسالة صوتية مسجلة من الوالدة الكريمة ، وفرصة توصيلها متاحة ، ذلك الصاحب نفسه الذى جاء مصر في أجازة مؤقتة ، كان إسماعيل قد اعتاد الاتصال بها كل أسبوعين مرة عند صاحبنا يوسف القعيد مستخدما هاتفه ، فلم يكن لدى أشقائى هاتف فى ذلك الوقت ، كان يطمئن على أخبارها ، ونسبة السكر فى الدم ، ودرجة الضغط ويحاول أن يستشف مالاتنبئه به من صوتها ، من وهنه ، أومن ذبذباته ، وما من شئ يكشف دخيلة الإنسان مثل صوته في الهاتف ، خاصة لمن يعرف ، يتحول الصوت

إلى مرآة دقيقة ، عاكسة ، يصبح وجود الإنسان كله مجرد ترددات مجردة لكنها تشى تماما بمافى أعماقه ، حتى وإن حاول المداراة .

ومع اتصاله هذا الذى لم يتخلف عنه ، إلا أنه أصر على طلب تلك الرسالة المسجلة .

أنظر إلى الشريط ، حوالى عشر دقائق وربما أكثر بدقيقتين ، أوثلاث يمكننى الآن أن أضعه فى الجهاز ، أديره ، فأصغي إلى الصوت الحبيب الذى لم يتردد فى مسمعى منذ ست سنوات ولن أسمعه إلى الأبد ، لكننى .. لا أجرؤ ، مع أننى لمت نفسى كثيرا بعد رحيل والدى الأبدى ، كيف لم نحتفظ بأثر صوته ، كيف مضى بدون أن نسجل حواراته وأحاديثه التى كان يروى فيها الكثير ، صحيح أننى لم أتعمد تسجيل صوت الوالدة ، إنما هو ترتيب شاءه القدر ، وهاهو ذا الشريط أمامى ، ولا أقدر على سماعه ، إنما أستعيد هذه الأيام الحارة النائية ، فأول أمس الأحد انقضى ست سنوات على تمام فترتها ، على النقطة الزمنية التى أنهت عندها رسالتها ..

* * *

بعد رحيلها المباغت ، المفاجئ ، فكرت فى شقيقى، بقى أسبوع على موعد اتصاله ، لكن الغريب أنه اتصل فى ساعة متأخرة عندى فى البيت ، وكان ذلك فى أول ليلة يخلوفيها عالم الأحياء من الوالدة ، وعندما لم يلقنى أبدى دهشته ، غير أن زوجتى تمالكت نفسها وأخبرته أنه يودع صاحبا على سفر ، فيما بعد قال لى إنه مربقلق عنيف هذه الليلة ، وأن شعورا ثقيل الوطأة كدره .

أما ما حيرنى أنا ، فكان مصارحتى له أوعدم إخباره ، بسطت الأمر لصحبى وأهل الوداد الطيبين الذين أحاطوا بنا يواسون ، ويقدمون العزاء ،

ويشاركوننا تلاوة آى الذكر الحكيم ، فريق قال إن الصدق منج ، وفريق آخر قال إن الأمر ثقيل على الأخ النائى المغترب ، وكنت إلى الرأى الثانى أميل، قال أحدهم بكتابة خطاب ، ولكن إخباره فى الهاتف فظيع ، فالمدة محدودة، والفترة قاصرة ، والعبارة عاجزة .

ملت إلى الكتمان ، أن أخبره بعد عودته المقررة بعد ثلاثة شهور ، لكن.. ماذا عن اتصاله نصف الشهرى ؟

قلت لصاحبى يوسف إن ميعاده معلوم ، ورنين الهاتف الخارجى معلوم ، رناته طويلة ، أوصيته ألا يجيب ، وبالفعل أصغى مع أسرته طويلا إلى الرنين ، حتى صمت ، مضت دقائق ثم عاود أخى الكرة ، لم يجبه أحد . فانتقل إلى الهاتف عندى .

بذلت الجهد حتى أبدو عاديا ، سألنى ملهوفا ، لماذا لايجيب يوسف ؟ ، قلت إنه ربما خرج ، غير أنه ذكرنى بتحديد الموعد قبل أسبوعين ، عندئذ اكتسى صوتى جدية مشوبة بتجهم ، قلت إن خلافا وقع بينى وبينه ، ونسبت إليه مالم يأته ، مع أن الرجل لازمنى فى المحنة تماما ، قلت إننى طلبت من الوالدة أن تقاطعه كما قاطعته ، وأبديت الوعد بالبحث عن هاتف آخر مجاور يمكنه أن يسمع صوتها منه ، وعلى أية حال يمكنه أن يعرف أخبارها منى حتى يتم ذلك ، وفى الأسابيع التالية كنت أبلغه تحياتها ، أنقل إليه رغبتها فى شئ ما ، إلا أن ماشغلنى طوال هذه المدة ، كيف أنبهه فى حذر للاحتفاظ بذلك الشريط ، ومرة ، وكان يحدثنى فى وقت مبكر عندنا ، حدت بالحوار فجأة وقلت له إن الوالدة تطلب منه شريطا مسجلا كانت قد أرسلته إليه ، هى تريد الاحتفاظ به ، قال لى : نعم .. نعم ، الشريط موجود ، فيما بعد ، بعد أن حط الرحال فى القاهرة ، قال لنا إن

الهـواجس كـانت نالت منه وتمكنت ، وأنه عندمـا أوغلت الشكوك فى قلبـه حفظ هذا الشريط على مقربة منه ، وإذا خرج يضعـه فى الجيب الملاصق لقلبه ، هكذا عاد به ، واستنسخ منه صورا .

* * *

ست سنوات إذن ،كـأننى أقف على شريط قطار أرقب العـربة الأخيـرة المبتعدة فى سرعة ، وكل ثانية تنال من هيئتها ، حتى يصبح القطار الضخم مجرد نقطة عند الأفق يتلاشى ، ولكن العدم لايلفه ، فعند حيز ما يوجد ، وفى مكان مايتـقـدم ، يهـدر ، تغـيب التـفـاصـيل ، ولكـن المعـانـى تزداد وضوحا ، فى تلك السنة بالتحديد ، إذ أتذكر من كان رحمها أول موطن لى فى هذا الكون ، حيث تكونت وتقلبت فى صور شتى خرجت إلى الدنيـا بشـراً سـويا ، إذ أتذكـرها أكـتـشف بدهشـة أننى لم أرها نائمـة قط طوال سعيها ، دائما كانت تستيقظ قبلنا وتنام بعدنا ، ، ولو أننى أو أحد أشقائى فى حجرة وهى فى أخرى ، وانقضى الكرى عن جفنى ، لأستيقظت هى فى نفس اللحظة ، وربما قبلى .

أتذكـر طلاتهـا صوبـى ، كنا نتـخـاطب أحيـانا بالصـمت ، بدون حروف منطوقة ، وكنت أدرك تماما أنها تفهم عنى ، قد لاتدرك الأمر فى تفصيله ، لكنها تعيه فى مجمله ، ولكم عانيت فى حياتى من سوء الفهم ، غير أننى فى حضرتها كنت آمنا ، واثقا أن ماعندى يلقى تفسيره عندها ، حتى وإن لم أشرح لها ، وإن لم أنبئها ، هكذا .. برحيلها فقدت الجانب الوحيد والأخير الذى كان يؤمننى ، ويدرك حقا جوهر ماعندى ، ولكم يهفو الفؤاد ، ويخفق القلب تشوقا ، ويدفعنى الخاطر إلى سماع صوتها الذى كان ، خاصة أن أول مايبهت من الملامح الأصوات ، وأتطلع إلى الشريط الغالى ..

غير أننى أبدا لا أجرؤ على فض ماحال بينى وبينه العدم !

رحمها الله .

كتيبة الإعدام:

منذ عدة سنوات لم أذهب إلى دار سينما ، انقطعت عن هذه العادة ، والتى كانت من عوامل بهجتنا زمن الصبا والفتوة ، وذلك بعد تدهور دور العرض القاهرية والتى كان بعضها فى الزمن المولى يبدو كقصور شماء ، وأيضا سوقية الجمهورالذى جعل من دخول أسرة إلى إحدى الدور مغامرة ، وأيضالأن ماأريد مشاهدته من أفلام يمكن لى الفرجة عليه بواسطة " الفيديو " لكننى إزاء ثلاثة أسماء تنتمى إلى جيلى قررت الذهاب إلى ذلك العرض الخاص لفيلم " كتيبة الاعدام " والأسماء الثلاثة ، نور الشريف، وعاطف الطيب ، وأسامة أنور عكاشة ، هذا ثالوث لابد أن ننتبه عندما يقدم عملا فنيا ، ومنذ اللحظة الأولى للعرض ، بدأ توهج روحى يشملنى ، فالقصة تلخيص لحقبة كاملة عشناها ، وتركت فينا ماتركت ، تبدأ الأصوات فى السويس المحاصرة عام ١٩٧٣ ، حيث تقع حادثة اغتيال أحد رجال المقاومة وسرقة أموال مرتبات الجنود والضباط المحاصرين ، ويتهم نور الشريف الموظف بالبنك ، ويلفت نظرنا ظهور شخص ضائع اسمه فرج الأكتع ، بلا أصل واضح ، وكان يظهر من حين إلى آخر وهو يحاول بيع بعض المسروقات التى اختلسها من هنا أوهناك ، وكانت لديه قدرة غريبة على الخروج والدخول من حصار المدينة حتى أن نور الشريف الذى كان يبعث معه برسائل إلى زوجته يسأله مرارا دهشا ، كيف يخرج ويدخل من السويس المحاصرة ؟

يدخل نور الشريف السجن ويمضى فيه أربعة عشر عاما يشيب خلالها

شعره ، ويخرج منبوذا ، ملفوظا من المجتمع كله ، أليس متهما بسرقة مرتبات الشهداء والأبطال المحاصرين ؟ ، وفى نفس الوقت يطارد من ثلاث جهات ، أولا ابنة رجل المقاومة - معالى زايد - التى تريد الثأر لوالدها ، وثانيا من مباحث الأموال العامة ،حيث يقوم بمطاردته - ممدوح عبد العليم - الضابط الشاب الذى يبدأ فى الفيلم كشاب لاه ، لايعبأ بشئ ، ثم يتطور وعيه تدريجيا مع تصاعد أحداث الفيلم ،حتى يصبح واحدا من أفراد كتيبة الإعدام التى تشكلت تلقائيا لتنال من المجرم الحقيقى ، أما الجهة الثالثة فلا نعرفها فى البداية ، ثم نكتشف أنها تنتمى إلى المجرم الحقيقى الذى استولى على المرتبات واستطاع إلصاق التهمة ظلما بنور الشريف ، ثم أصبح بواسطة هذه النقود واحدا من كبار رجال عصر الانفتاح ، إنه أبو خطوة أو .. فرج الأكتع نفسه ..

أدى نور الشريف واحدا من أفضل الأدوار فى السينما العربية ،جسد مشاهد صعبة باقتدار ، وعبر عن مواقف دقيقة بملامح وجهه ، وبطريقة مشيه ، وانحناءاته خلال تيهه فى شوارع المدينة الملفوظ منها ، كان أداؤه يذكرنى بأداء النجوم العالميين المقتدرين ، ويؤكد هذا ماأشرت إليه قبلا عن قدرات هذا الفنان الرائع ، كذلك كان أداء ممدوح عبد العليم رائعا ، وممثلة أخرى أراها لأول مرة ، مصرية الوجه ، اسمها سلوى خطاب .

الفيلم إيقاعه سريع ، بحيث يمسك المشاهد أنفاسه ، ويرجع هذا إلى مهارة كاتب السيناريو أسامة أنور عكاشة ، أما مشاهد تيه نور الشريف فى المدينة ، وعالم الفنادق الرخيصة بما يحويه ، فيعكس قدرة المخرج عاطف الطيب على التقاط أدق التفاصيل المصرية والتى تكسب الفيلم روحا خاصة. إنه من أفضل وأجمل وأجرأ ماشاهدت خلال الأعوام الأخيرة .

تحية واجبة :

خبر قرأته عن إجراءات حازمة ضد مخرجة تسجيلية مجهولة ، شاركت في مهرجان اسرائيلى للسينما التسجيلية ، بدون إذن ، وادعت أنها تمثل مصر ، تحية صادقة لممدوح الليثى نقيب السينمائيين ولكرم مطاوع ، رئيس المركز القومى للسينما وإلى صلاح التهامى رئيس اتحاد السينما التسجيلية.
إن الإجراءات الحاسمة التى اتخذوها تعكس بصدق سلامة الضمير الثقافى والفنى المصرى ، وهذا الضمير المستهدف الآن من قوى عاتية ، تريد له أن يتراجع وأن يتخاذل عما قرره والتزمه تجاه قضايا أمته ، ويحاول البعض أن يلتف حوله ، وأن يتهم من يخلص له بالغباء والجهل بالساحات العالمية ، وكأن كل تجمع مشبوه فى خارج مصر يدعو مجموعة من هنا أوهناك وسيلة إلى العالمية ، بينما الغرض الحقيقى هو جمع المثقفين المصريين أو العرب جنبا إلى جنب مع الصهاينة ، وإظهار أن الأدب الصهيونى ، أوالفنون الصهيونية على نفس قدم المساواة من حيث الأصالة والقدم .

إن الإجراءات التى تمت وموقف هؤلاء المسئولين الوطنيين إنما يعد درسا لأولئك الذين تنهار مقاومتهم عند التلويح بتذكرة سفر واستضافة لعدة أيام فى فنادق الدرجة الأولى ، والتلويح بوهم لن نبلغه أبدا عن طريق المؤتمرات خاصة المشبوهة ، هذا الوهم اسمه .. العالمية !

اغسطس ١٩٨٨

سائق على الطريق

.. عندما اقتربت الحافلة الكبيرة من النقطة المحددة لانطلاق الرحلة ، وحاذت الرصيف ، تطلع المسافرون إليها بارتياح ، سيارة توحى هيئتها بالمتانة ، والراحة ، المقاعد وثيرة ، والنوافذ عريضة تتيح الفرصة لرؤية أفضل .

فتح الباب ، نزل السائق برشاقة ، كان أصلع ، مما جعل رأسه يبدو أضخم، يرتدى قميصاً رياضيا ، يميل إلى الأمام ، عاد إلى الباب الأمامى ، راح ينظف بعناية الدرجات الأربع التى تؤدى إلى السيارة . دار حول مقدمتها ، قطب عينيه قليلا ، ثم هز رأسه ، بدا في تعامله مع العربة وكأنه يطوف بكائن آدمي ، يحنو عليه ، ويطمئن ، وربما يحاوره بلغة ما !

اقترب من الأبواب الجانبية ،المؤدية إلى خزانات الحقائب ، وعندما تزاحم المسافرون حرصا على أن يضع كل منهم حقيبته فى مكان أفضل ، رفع يده حاثًا على الهدوء ، قال مبتسما إن المكان فسيح جدا ، ويكفى الحقائب كلها ويزيد ، كان ينحنى لينظم وضعها بعد أن يدفع كل مسافر بحاجاته ويمضى إلى داخل العربة .

استقر الجميع في مقاعدهم ، وصعد هو إلى المقعد الأمامى ، كان بإمكانه أن يرى كل الركاب من خلال المرآة المعلقة فوقه ، وكان باستطاعتهم

أن يشاهدوه أيضا من خلال المرآة ذاتها ، تلفت حوله ، ثم سوى وضع الغطاء الأبيض الذى يفرش المعقد ، وعندما استقر فيه ، ضغط أزراراً ، أغلق الأبواب ، أطلق جهاز التكييف ، الهواء البارد ضرورى ، فالحر شديد ، والرحلة طويلة تستغرق أكثر من سبع ساعات حتى الوصول إلى ساحل البحر الأحمر .

بشكل ما ، كان الركاب الذين لايعرف بعضهم بعضا يتطلعون إلى مكان السائق ، يتعرفون على هيئته ، يحاولون الإلمام بمن سيمضى بهم هذه المدة الطويلة فوق الطرق الممتدة .

قبل انطلاق السيارة ، أمسك بميكرفون داخلى .

" صباح الخير على حضراتكم .. "

تمنى للجميع رحلة سعيدة ، وقال إن السيارة بها جهاز للفيديو ، ويتمنى أن يعجبهم الفيلم الذى سيبدأ تشغيله عند الانطلاق فوق الطريق السريع ، كما أنها مزودة بحمام ، لكنه يرجو ابلاغه حتى يزوده بالماء الذى لايطلق إلامن خلال لوحة القيادة .

كان صوته ودوداً ، وكان جلوسه فوق المقعد ، وطريقة انحنائه على عجلة القيادة ، ولمعة عينيه التى كان من الممكن رؤيتها خلال المرآة العاكسة ، وتطلعه الى الطريق ، وأسلوب قيادته للحافلة الضخمة ، وحرصه على آداب الطريق ، فمن يفسح له يرفع يده شاكرا ، وأحيانا كان يتبادل كلمات الود مع جنود المرور ، سرعان ما انتقل حضوره هذا إلى الركاب ، والى جو السيارة نفسه ، فشاع جومن الراحة ، والبهجة ، أغفى البعض ، فالرحلة بدأت فى أول النهار البكر ، وراح آخرون يتابعون أحداث الفيلم الأجنبى الذى كان يحكى عن مغامرات رجل بوليس سرى أمريكى فى مصر ، وفى

المقاعد الخلفية كان التعارف قد بدأ بين بعض الركاب وبدأ حوار يتخلله مناقشات عديدة تخضع لمنطق التداعى ، إذ بدأت مناقشة عن الفارق بين عبد الناصر والسادات ، وبدا واضحا أن الرجل الأكبر سنا يميل إلى تأييد الزمن الناصرى ، أما الأصغر سنا ، والذى بدا منتميا إلى زمن الانفتاح ، فكان يردد عبارات تتردد كثيرا فى أجهزة الإعلام ، وعند نقطة معينة من الحوار قال إن خطأ عبد الناصر هو تطبيقه للنظام الشيوعى فى مصر ، عندئذ التفت رجل يدنو من الستين ، وقال بهدوء إنه يتمنى معرفة ملامح هذا العصر الشيوعى المصرى ، متى كان .. وكيف ؟

وعندما وصل الحوار إلى نقطة كان لابد من إبداء الرأى فيها حول الزمن الراهن ، أو المستقبل ، خيم ظل من حذر ، ولاأدري كيف انتقلت المناقشة إلى العرب والفراعنة ، وجاء ذكر موقعة أكتيوم البحرية ، وعجائب الدنيا ، هل كانوا سبعا حقا ، وكان أحد الركاب يذكر اسماء تاريخية ، ويحدد تواريخ بالسنة ، والشهر واليوم ، طبعا كلها قبل الميلاد ، وأكد رجل وقور صامت منذ بداية الرحلة ، أن الاهتمام برجال المرور هو بداية النهضة الحديثة، وأن رجل المرور هو الواجهة ، وهو الذى تتمثل فيه السلطة ، وهيبة الدولة ، ومالم يحترم رجل المرور فلا فائدة ترجى فى هذه الأمة . .

* * *

استمرت الحوارات ، والمناقشات ، والصمت خاصة بعد توقف عرض الفيلم، فى نفس الوقت كانت الصلة قد بدأت منذ وقت بين المسافرين والسائق ، بعضهم جاء بالشاى الساخن والقهوة ، والشطائر ، كانوا يصبون المشروبات ويقطعون المسافة الصغيرة بين المقاعد ومكان القيادة ، يقدمونها إلى السائق ، وبعد فترة بدا كما لو أن ثمة تنافسا خفيا بين الركاب لتقديم

المشروبات والسجائر والشطائر ، كان بعض الأطفال يتقدمون إلى الأمام ، ويقفون إلى جوار السائق فيربت عليهم ، ويبادلهم حواراً ودياً ، يشير خلاله إلى بعض أجزاء لوحة القيادة أو إلى الجبال والصحراء المحاذية للطريق .

فى السيارة شاع جو من الراحة ،وفى أحد المقاعد الأمامية قال أحدهم إن عدوية ضحية ، والمجرم أفلت للأسف ، وفى مقعد آخر قال مسافر محتداً : لا .. لا . يكفى السادات قرار الحرب ، وقرار السلام .

وعندما اقتربت الحافلة من القرية السياحية ، كان الركاب يعرفون اسم السائق ، وأنه متزوج ،وأب لطفلين ، وأنه سيعود فى نفس اليوم إلى القاهرة، إى أنه سيقود لمدة أربع عشرة ساعة متصلة ، لايدرى أحد كيف ألم الركاب بهذه المعلومات ، لكنها انتقلت من مقعد إلى مقعد ، ومن راكب إلى راكب ، خفية ، بدون أن يشعر أحد ، أو يقصد أحد ، تماما كما انقضت الساعات السبع ، ولم يشعر بوطأة ثقلها أحد .

وعندما توقفت الحافلة ، وقف السائق أمام الباب ، كان يساعد بعض الأطفال على النزول ، بدا نشيطا ، يفيض حيوية ، وملامحه تنبض وداً ، صافحه الركاب ودعه البعض معانقين له ، كان الجميع يتهيأون لبدء إجازة لعدة أيام ، وكان السائق يودعهم متمنيًا لهم أياما سعيدة ..

بعد اسبوع ..

الثالثة ظهراً ..

بعد ربع ساعة تنطلق الحافلة صوب القاهرة ، إنها تقف أمام مدخل القرية الفسيح ، نفس الطراز ، اللون ، لا أذكر الرقم ، لكننى أجزم أنها نفس السيارة ، لكن .. أين السائق ، أين الصلعة ، أين الملامح الودودة ، التى

تشيع بهجة ، لم أره ، وكان الآخرون يبحثون مثلى ، وعندما استقر كل منا فى مقعده ، صعد رجل بدين ، مدكوك البنية ، ثقيل الحواجب ، أفطس الأنف ، مزموم الشفتين ، جلس فى مقعد القيادة ،

عندئذ أدرك الجميع أنه هو السائق .

أغلق الباب بحركة عنيفة ، ومع دوران المحرك ، بدت العربة وكأنها تعانى خفية ، ولأن الطريق طويل ، طويل ، تمنيت من الله ألايحدث عطل، فطريق البحر الأحمر لاتوجد به أى استراحة على الإطلاق بدءاً من السويس وحتى رأس غارب ، طريق مقفر ، محاذ للبحر ، ويقع في أجمل منطقة سياحية بمصر ، وبه نهضة سياحية الآن رائعة ، ولكن ماتزال أمور تبدو صغيرة فى حاجة إلى الاستكمال ، مثل الاستراحات الصغيرة ، ومحطات البنزين ، ونقاط الإغاثة ، معظم المسافة ستقطعها الحافلة ليلا ، والطريق يمتد أكثر من خمسمائة كيلو متر ، واضح أن الجو فى الخارج حار جداً ، وفى الداخل يبدو الأمر كذلك ، أين التكييف إذن ، الأمر يزداد صعوبة خاصة فى القسم الخلفى ، يمد المسافرون أيديهم ، يديرون الفتحات الصغيرة المعلقة فوقهم ، ولكن عبثا .

يتقدم أحد الركاب ، مدرس معار إلى بلد عربى شقيق ، جاء مع أسرته لقضاء بضعة أيام إجازة قبل عودته إلى هجير الصحراء النفطية ، يقترب من السائق ، يطلب منه رفع درجة التكييف لأن الحرارة لاتطاق ، يجيبه السائق بصوت خشن سمعه الجميع ، إن التكييف فى أقصى درجاته ، وماذا باستطاعته أن يفعل ؟ يعود المدرس مكسوف الخاطر ، يميل على هامساً ، قال إنه التقى بأحد معارفه الذين جاءوا فى هذه السيارة من القاهرة صباحا أخبره أن التكييف لم يعمل جيدا إلابعد أن جمعوا مبلغا من المال دفعه كل

راكب وقدموه الى السائق ، عندئذ اضطر بعض الركاب إلى طلب تخفيض درجته لأن السيارة أصبحت فى برودة الثلاجة . ، قلت إننى لن أمانع فى دفع أى مبلغ ، المهم من يقوم بذلك ؟ قال المدرس إنه عرض ذلك على بعض الركاب ، لكن بعضهم اعترض باعتبار أن هذه رشوة ، وأن من واجب السائق تسيير الأمور على ما يرام ، وقال إن المعارضة الأساسية تجئ من الرجل المتقدم فى السن الذى يصر على ضرورة إبلاغ حالة السيارة إلى أول رجل مرور تقع الأعين عليه ، كما أنه يؤكد لمن حوله ، أن أحوال رجال المرور لوكانت على مايرام لما جرؤ السائق على التلاعب فى التكييف ، وقيادة السيارة بهذه الطريقة العنيفة ، الأمل كله معلق برجال المرور . قلت للمدرس : إن هذا الرجل لم يكف عن الحديث عن رجال المرور ، ويبدو أنها رسالة عمره .

راح التكييف يخف شيئا فشيئا كنت قلقا على ابنتى الصغرى رقيقة الصحة ، واضطر البعض إلى فتح النوافذ قليلا لتسرب بعض الهواء حتى لو كان ساخنا ، ولكن سرعان ماارتفع صوت السائق الأجش عبر الميكرفون يحذر من فتح النوافذ لأن هذا سوف يفسد التكييف ، وعندما ارتفع صوت أحد الركاب متسائلا :

وأين هو التكييف ؟

عندئذ قال السائق : إن التكييف موجود ، وفتح النوافذ يعنى زيادة التحميل على البطاريات ، وهذا سوف يؤدى إلى تعطيل السيارة ، يعنى سنقضى الليل فى الصحراء .

كان التهديد واضحا ، سكتت الأصوات المرتفعة ، عدا الرجل العجوز الذى راح يهمس بغيظ ، إنه لو وجد نظام مرور سليم تماما مثل الدول

الأوروبيـة لما حـدث شئ مـثل هذا ، وكـان يتطلع إلى من حـوله ، قـائلا : اذهبـوا وشـوفـوا رجـال المرور فى أوروبا . كل منهم له هيـبـة عظمى ، مـالم نصبح مثلهم .. لن تنصلح أحوالنا ، إلا أن دعوته لإصلاح حال رجال المرور صار يرددها الآن هامساً ، بعد قليل بدأت رائحة المرحاض تفوح فى السيارة، بدأت خفيفة فى شكل موجات تهب كلما فتح الباب وأغلق ، ثم استقرت عـالقـة فى الفـراغ ، وراحت تزداد ثقـلا ، حـتى أخـرج البـعض مناديلهم ووضـعوها أمام فـتـحات أنوفهم ، ثم بدأ البـعض يبللها بالعطر ، وعندما مضى أحد الركاب إلى السائق وطلب منه فى هدوء وأدب أن يطلق الماء إلى دورة المياه ، رد بخشونة وعدوانية أن الصنبور تلف .

أصبح الوضع صعبا ، النوافذ مغلقة ، الرائحة فظيعة ، الحر ، والطريق طويلا مـازال ، فى وسط هذا الجو الخانق لاحظت أبا وأما يجلس طفلهما فى المقعد المجاور بمفرده ، كـان الأب ينهر ابنه بقسوة مبـالغ فـيها ،وكان الطفل يتطلع إليه صامتا . واجمًا ، لايمكنه التساؤل أوالرد ، كنت قد لاحظت هذه القسوة فى مطعم القرية السياحية ، ولكن مارأيته فى العربة كان مؤلما ، وربما جسده أكثر سوء الوضع فى السيارة .

استـمر تقدم الحـافلة ، كانت تمضى متثـاقلة ،وكـان الجـميع صـامتين ، لاحوار ، لانكات ، لاضـحكات ، حتى الفـيديو توقف بعـد أن أرسـل طنينا عـاليا مزعـجا ، تعـذر معـه سمـاع الحوار ،وبعد رجاوات متعددة استجاب السائق فأوقف الجهاز ، وسادت نغمة الصمت .

لاحت منى التفاتة الى الطفل الصغير ، كان أبوه مغمض العينين ، راح فى إغـفـاءة ، أمـا الطفل ابن الثـمـانى سنوات فكان يكلم نفسـه ، وانسـال داخلى شـجى ،ولكن مــاذا بوسـعى أن افـعل ، كنت أفكر فى القـســوة

غيرالمبررة ، وأحاول سد أنفى حتى لا أشم الرائحة الفظيعة التى أصبح ممكنا لمسها باليد .

كان المهم أن نصل ، فمجرد خاطر توقف الحافلة فى الصحراء أمر يثير الفزع .

اخيرا ، بعد الساعات السبع التى بدت زمنا ممتدا ، طويلا ، ثقيلا ، مرهقا ، وصلت الحافلة إلى القاهرة ، صاح أحد الركاب عند مغادرته ، " إفراج " ، وعندما استقر الرجل العجوز فوق الرصيف ، صاح فى وجه الركاب:

" تستحقون ماهو أكثر .. مادمتم لاتهتمون برجال المرور .. "

وكان في وقفة السائق المتطلع إليه صامتا شئ مايذكر بوقفة الدب على قائمتيه الخلفيتين .

الخميس

زرت جنوب سيناء منذ حوالى سبع سنوات ، لم يكن على شاطئ شرم الشيخ إلاثلاثة فنادق بنيت كلها خلال زمن الاحتلال ، كان تصميمها يعكس عقلية تحرص على الأمن ،المدينة التى بناها الإسرائيليون تبدو كقلعة ، لأول مرة أرى مبانى مطلة على البحر تدير ظهرها للبحر ، النوافذ أضيق من مزاغل الدشم العسكرية .

أعود إلى المنطقة لاأصدق ماأراه ، التعمير تم بسرعة كبيرة ، الفنادق الثلاثة غيرت الإدارة المصرية من شخصيتها تماما وأضافت إليها ، المثير تلك الفنادق المصرية الجديدة المطلة على خليج نعمة ، لكل منها شخصية متميزة مستمدة من عناصر العمارة المصرية بطرزها المختلفة ، تعكس أصالة وذوقا

رفيعًا ، معظم النزلاء جاءوا مباشرة من عواصم أوروبا ، كانت الفنادق التى بنتها إسرائيل خالية من الذوق ، جافة المظهر ، وأقامت حولها دعاية هائلة ، تعكس فنادقنا الحديثة تراثا عريقا ، وهنا يمكن مقارنة الفارق الحضارى، إن تعمير هذه الصحراء الجميلة من سيناء ضرورة قومية وأمنية تتصل بالماضى والمستقبل ، وكذلك الاهتمام بالعنصر البشرى الذى يقيم هنا ،ولهذا حديث يطول .

الاثنين

أصغى إلى نشرة الأخبارالإسرائيلية .

نبأ يقول إن المحكمة العسكرية العليا قررت منع هدم أى بيت فى الضفة الغربية أوقطاع غزة ، إلا بعد .... بعد إنذار قبل الهدم بثمانٍ وأربعين ساعة .

ياسلام !

أى إنسانية ، أى رحمة يبديها العدو ، أحيانا نسمع خبرا فى كلمات قد تبدو مجردة ، ولكن تجسيد هذا الخبر فى حدذاته بالمخيلة على أرض الواقع يوضح المأساة ، المأساة الإنسانية التى يحياها الشعب الفلسطينى .

أن يهدم بيت بالجرارات العسكرية ، أوينسف ، معناه تهديم كيان إنسانى ، كيان أسرى ، تشريد أسرة ، تبديد مأوى يضم أما وأبناء ورب أسرة ، وعجوز ربمالا يقدر على الحقد .

أن يهدم بيت يعنى بدء التشريد الإجبارى لأسرة فلسطينية فى محاولة لطردها من الأرض ، من الوطن .

أنا لا أدرى إلى أين يذهب أولئك الذين تهدم بيوتهم بواسطة الجيش

الإسرائيلى ، ولكننى أعرف أن البيت يضم كيانات إنسانية ، وحياة آنية ، وذكريات .

فإلى أين يذهب سكانه ؟

أى وسيلة نازية ، خسيسة ترتكب ضد المدنيين ؟

الأسئلة كثيرة ، ولكننى أدعو كل إنسان منا إلى أن يضع نفسه ببساطة، هو وأطفاله ، هو وأباه وأمه ، هو ومتاعه ، ورصيد عمره فى المكان ، أن يضع نفسه بالخيال فقط فى نفس موضع أولئك الذين تقوض جدران بيوتهم وأسقفها أمام عيونهم بواسطة آليات واحد من أقوى الجيوش فى العالم ، وهم عزل ..

مارس ١٩٨٨

كبـــــريت

الخميس:

ياه ..

هذا الطابور كله !

أمام نافذة وحيدة في محطة مترو حلوان الرئيسية وقف عشرات المواطنين، الحركة بطيئة جدا ، فالماكينة التي تقطع التذاكر معقدة تذكرني بماكينات حجز الطائرة في شركات الطيران ، لابد من الضغط على أزرار عديدة ، قبل تسليم التذكرة ، وطبعا عملية رد الفكة تتم ببطء شديد انامعي اشتراك ، ولكن لابد من قطع نصف تذكرة لمحمد ابني الذي أصحبه معي إلى كبريت !

قام ثلاثة قطارات ، السابعة والثلث الآن ،موعدنا في هيلتون رمسيس الثامنة بالضبط ، بدأت أقلق ، إنني دقيق جدا في مواعيدي ، ومنذ أن حدثني الصديق جمال الليثي أول أمس وأنا أحدث محمد عن كبريت ، وماجرى في كبريت ، قررت أن يصحبني ، حتى يرى وحتى يعاين ،وحتى لاينسى ..

الطابور بطئ كثعبان كسول ، الوقت يمضي والقطارات تقلع ، و...

خرجنا من الطابق نبحث عن عربة أجرة بالنفر ،

كانت السيارة التى وجدناها متجهة إلى باب اللوق ، لابأس ، ركبناها حتى قصر العينى ، وفى الصباح الباكر يكون العثور على عربة تاكسى أمرا سهلا .

الثامنة وعشر دقائق كنت أعبر مدخل الفندق لاهثًا ومحمد يتبعنى ، كنت أرجو أن أجد الوفد المتجه إلى كبريت ، بطائرة خاصة قرر المشير أبوغزالة أن تنقلنا وتعودبنا إلى الجيش الثالث ..

* * *

عندما اتصل بى الصديق جمال الليثى ، لم استوعب فى البداية ، كان يحدثنى عن موضوع يتعلق بزمن الحرب ، وهذا عهد قديم ، كنت أشبه بأهل الكهف ، إذ انتهى دورى عمليا عام ألف وتسعمائة وثلاثة وسبعين ، وحتى عام ألف وتسعمائة وستة وسبعين ، عندما فارقت هذاالتخصص العزيز على قلبى ،والذى شهد مرحلة نادرة فى حياتى توحدت فيها مع عملى تماما ، وعرفت خلال الحقبة أشرف رجال هذا الوطن ، عرفتهم فى أقصى المواقع الأمامية حيث الخطر والموت والبطولة ، حتى هذا الوقت كنت قد أوقفت عملى على كتابة سير الشهداء . فى أحد أيام هذا العام البعيد ، دخلت على الأستاذ موسى صبرى ، رئيس تحرير الأخبار وقتئذ ، كان هوالذى رشحنى للعمل فى الجبهة عام ١٩٦٩ ، قلت له إننى أشعر أننى أديت واجبى ، وأننى يمكننى أن أعطى فى موقع آخر فى الجريدة ، تطلع إلىّ قائلا :

إننى أفهمك .. أين تريد أن تعمل ؟.

واخترت القسم الذى بدأت منه ، التحقيقات الصحفية ، منذ هذا الوقت، راحت سنين الحرب تنأى ، والمسافة تتباعد مابينى وبينها ، وعكفت استرجع ما مربى ، أبدى بعضا منه في الأدب ، والأغلب لم أعبر عنه بعد ، ثم جاءت السنوات بما جاءت به ، وازددت إيغالاً فى خبايا الذات وتأملا .

فى سنة ألف وتسعمائة وأربعة وسبعين ، كنت قد وقفت على ماجرى في موقع كبريت ، أسطورة بطولية ، إنسانية ، أرفع من الأدب ، والدراما ، رحت أسعى وقتئذ لمقابلة الرجال الذين حوصروا ، وكنت ضمن أول من وصل إلى الموقع فى فبراير من ذلك العام ، فور انسحاب القوات الإسرائيلية، وانتهاء الحصار سافرت إلى مواقع شتى من مصر ، إلى السويس ، إلى العامرية غرب الإسكندرية حيث كان يرابط تشكيل حوصر معظم أفراده فى كبريت ، أقصد لواء مشاة الأسطول ، كتبت عدة تحقيقات صحفية عن كبريت ،كتبت تحقيقا مطولا في مجلة الطليعة ، قارنت فيه بين ظروف حصار موقع لسان بورتوفيق ، وموقع كبريت ، الموقع الأول كان يضم سبعة وثلاثين إسرائيليا مزودين بمؤن وذخائر تكفيهم ستة شهور ، وقهرته القوات المصرية ، أسقطته بعد سبعة أيام فقط .

فى كبريت لجأ أربعمائة مقاتل مصرى إلى نقطة قوية في قلب الثغرة والنقطة فى الأصل موقع إسرائيلى سقط أول أيام العبور وحوصر الرجال الأربعمائة لمدة مائة وأربعة وثلاثين يوما ، مات بعضهم جوعا ، وكان فص البرتقالة حلما كالمستحيل ، ومما حدث أن جنديا رأى برتقالة طافية فوق مياه القناة ، فتبعها ، ونزل الماء محاولا الحصول عليها ، ولم تنفع معه كل التحذيرات ، واستمر وراء البرتقالة حتى دخل في منطقة يسيطرعليها الإسرائيليون ، وقع فى الأسر !

مئات المواقف الإنسانية ، المشحونة ، وحافظ قائد الموقع على العلم المصرى مرفرفا فى قلب منطقة الثغرة ، ويشاء القدر أن يستشهد يوم ١٩ يناير ١٩٧٤ . أكتب التاريخ من الذاكرة فتلك أيام لن تنسى أبدا .

من وحى الحصار كتبت قصة ، قرأها جمال الليثى وقتئذ وأعجب بها جدا ، قرر أن ينتجها للسينما ، ومرت الأيام ، وتقلبت الظروف ، وكنت بين الحين والحين أسمع أنه عرض القصة هنا أوهناك ، وأنه يحاول إنتاجها ، وبدا الأمر عندي كضوء خافت بعيد فى خلفية السماء الرمادية .

حتى اتصل بى أمس الأول ، وأمس مضيت لأقابله ، وحكى لي عن لقائه بهذا المنتج العالمى الأمريكى ، وأن الرجل قرأ القصة فأعجب بها جدا ، وأنه جاء إلى مصر ، وأن المشير محمد عبد الحليم أبوغزالة متحمس جدا ، ومجرد ذكر اسم المشير أثار عندى الاطمئنان ، والأمان .

اليوم الخميس سنصحب المنتج الأمريكى إلى قيادة الجيش الثالث فى طائرة هيلوكبتر خاصة ، ومن هناك إلى كبريت .

* * *

الحمد الله ..

لم ينطلقوا بعد ، كنا قد تأخرنا عشر دقائق بالضبط ، كان هناك أصدقاؤنا جمال الليثى ، والفنان المصورمجدى هداية ، أحد الذين عملوا مع الراحل العظيم شادى عبد السلام ، ومصور إيطالى الأصل ، مهمته تسجيل الرحلة بالفيديو خطوة بخطوة وفيليب زالجى المنتج العالمى ، الذى أنتج أشهر أفلام ترافولتا ومسلسل رامبو ، ومسلسل الملاكم الشهير الذى يقوم ببطولته سلفستر ستالونى .

الرجل ضخم جدا ، يشبه الملك فاروق ولكنه أطول ، كان يرتدى أفرول أزرق رياضيا ، وقبعة ، ويرتدى قفازا جلديا فوقه خاتم ضخم من الماس ، كان يحمل الحروف الأولى من اسمه ، ثم اكتشفت أن كل شئ يمت إليه بصلة يحمل الحروف الأولى من اسمه ، الحقيبة ، دفاتر الورق ، الجاكت الذى رأيته يرتديه فى اليوم التالى ، القلم الساعة ، صافحته ، وصافحت المصور الإيطالي ، تصورت فى اللحظات الأولى أنهما صديقان ، ولكن مع بدء الرحلة اكتشفت اتساع الهوة ، فالإيطالى تابع صامت دائما إذا سألته عن شئ يشير إلى زانجى ، كأنه يقول ، خذرأيه أولا ، أمازانجى نفسه فكان مرتفع الصوت ، يمشى فى مواجهة الدنيا فاتحا صدره ، محدثا ضوضاء ، متحدثا عن ثروته الطائلة .

لاحظت أن الأمريكان عكس الشرقيين ، أوعكسنا نحن المصريين ، عرفت أثرياء هنا لديهم الأموال الطائلة ، لكنهم يتظاهرون بالعوز ، أويبسطون أيديهم قائلين ، متسائلين (منين) ، ولكن الثرى الأمريكانى يحرص منذ البداية على أن يعلن عن ثروته ، عن صداقاته ، عن عدد السيارات التى يمتلكها ، والقصر فى كاليفورنيا ، والبيت فى روما ، والتحف النادرة التى يمتلكها ، والمشروعات التى ساهم فيها بنقوده ، الغرض طبعا إحداث عملية إبهار ، وإفهام خلق الله هو مين ؟ وعنده كام ؟

المهم ..

دخلت قاعدة ألماظة الجوية ، منذ عام ١٩٧٦ لم أدخل وحدة عسكرية ، كانت انفعالاتى عميقة ، فعندى تجاه القوات المسلحة مشاعر فيّاضة ، واحترام عميق لرجالها ، ولكل مايمت إليها ، قابلنا الضباط مرحبين ، كانت الطائرة جاهزة للإقلاع ، طائرة هيلوكبتر من طراز كوماندو ، مجهزة لكبار

القادة .

لم اسأل ، ولكننى أظن أنها الطائرة الخاصة للمشير نفسه ، وكان الطيار برتبة عقيد ، كذا مساعده ، كان محمد ابني سعيداً متحفزاً ، إنها المرة الأولى التى يركب فيها طائرة هيلوكبتر ، كما أنه يعرف عن كبريت الكثير ممارويته له ، وعما قليل سيطالع الموقع ، أما أنا فنطلقت ماكنت أفكر فيه لمجدى هداية الذى شعرت بتآلف سريع معه .

" لماذا يفكر هذا الأمريكى في إنتاج فيلم عن حرب أكتوبر "

وكنت أعنى ما أعنى .

* * *

.. فى الطائرة سألته بصراحة ،

لماذا يفكر فى انتاج فيلم عن حرب أكتوبر ، وماذا عن السينما العالمية التى - لاشك - أن للنفوذ الصهيونى ذراعا طويلا فيها ، قال : إنه أولا معجب بالقصة ، وأن الوقائع فريدة ، وأنه يبحث فى العالم كله عن الموضوعات الجيدة ، وأن فكرتنا نحن عن النفوذ الصهيونى في أمريكا مبالغ فيها جدا ، أفاض فى الحديث بصدد هذه النقطة ، ثم قال : إنه ليس ضد إسرائيل ، ولاضد الصهيونية ، ولاضد العرب ، ولاضد أى شئ ، ولكنه مع إنتاج فيلم جيد يدر أموالا وربحًا .

وانتهى الحوار ، والله الكلام ظريف ، المهم الفعل ، والنوايا قبل ذلك .

كنا نقترب من مقر قيادة الجيش الثالث ، لاحت المبانى ، والطرق المنتظمة ، والحدائق الصغيرة ، كان نموذجا جميلا للعمارة في الصحراء ، مدينة فريدة ، لها كل ملامح المدن .

الدور السكنية ، دور العبادة ، مقار العمل ، مطار صغير ، ولكن كل من يتحرك فيها من الرجال ، لانساء ، لا أطفال ، إحدى مدننا العسكرية التى أقامتها قواتنا المسلحة فى عمق الصحراء وفقا لتصاميم خاصة ، هدوء معقم ، نظافة بادية ، وجود خاص .

على باب الطائرة استقبلنا أحد ضباط القوات المسلحة ، المقدم أحمد صليحة ، وبعد وقت قصير شعرت بالفخر ، إنه أحد ضباط الصاعقة ، حارب فى ممرات سيناء الجنوبية ، يتقن خمس لغات منها الإنجليزية ، والفرنسية والإيطالية والعبرية ، وعبر يوم قضيته بالقرب منه تأثرت بشخصيته ، واستعدت بعضا من لقاءات الزمن القديم ، المندثر ، عندما كنت أصحب الأفذاذ من أبناء هذا الوطن فى المواقع الأمامية ، وتتصل مصائرنا ، ومشاعرنا من أجل هذا الكيان الحبيب .. مصر .

فى الضفة الشرقية للقناة قابلت شخصية أخرى ، مقدم مهندس محروس كيلانى ، إنه يتعامل مع الألغام ، مع خطر معدنى مدفون يمكن أن ينفجر فى أى لحظة ، زرنا مقبرة الألغام التى تضم أكثر من ثمانين ألف لغم إسرائيلى تم انتزاعها من جوف الأرض وإبطال مفعولها ، طبعا هناك أعزاء يستشهدون ، وحتى كتابة هذه السطور مايزال المهندس محروس ورجاله يعملون فى هذه الصحراء ، وذلك الفضاء الشتوى الرحب ، بعيدا عن كل مايشغلنا ، فمازال فى مصر أناس يقفون عند الحافة التى تفصل بين الحياة والموت .

***

الطرق متعرجة ، متداخلة ، والرمال لم تتخلص بعد من آثار السيول،ولكنها كلها تؤدي إلى كبريت ، كان المنتج الأمريكى يتوقف عند

نزولنا ليسجل فى كل مرحلة بالصوت والصورة وصوله هنا أوهناك .

وكنت أتطلع إلى الموقع الغارق فى صمت غريب ، أربعمائة رجل عاشوا فى ظروف شاقة لاقبل لمخيلة بتصورها ، مات بعضهم جوعًا ليس مجازا ولكن بكل ماتعنيه الكلمة من معنى ، كم حلموا ،وكم تألموا ، وكم تطلعوا هنا إلى غد كان يبدو بعيدا ، لو تنطق الأرض ، لو يبوح المكان ؟ جاءوا ، وظمئوا ، واستشهدوا لكى يبقى العلم المصرى مرفرفا ،

فماذا جرى لنا ؟

* * *

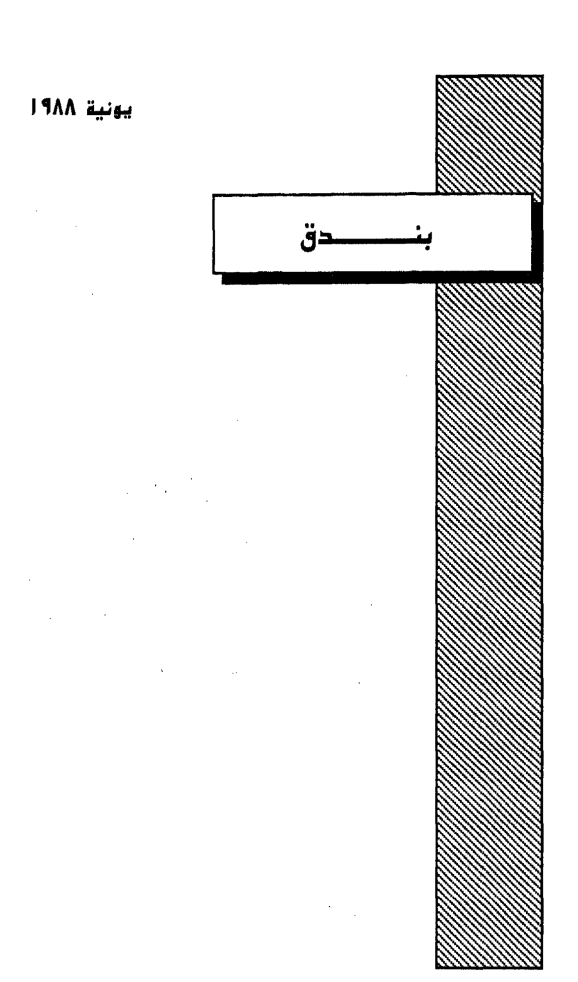
كنت أتطلع إلى الأمريكى ، ترى كيف سيقدم هذا الرجل بطولة الرجال إلى العالم ؟

لاإجابة ، ولكن داخلى حذر تعلمته من التجربة الطويلة ، وإن كان الضمان فيمن يشرفون على هذا العمل من مصر ، كل من رافقنا ، هذا الضابط الشاب الذى فقد احدى عينيه فى الحرب ، الضباط ، الجنود كانوا يتفانون فى تقديم المساعدة وكنت معهم أدرك أن ماأنجز فى هذه الحرب لم يعبر عنه فنيا ، ولا إعلاميا حتى ، والسبب فى رأيى ، هو الهوة الشاسعة بين الأداء العسكرى العظيم ،وأن النتائج السياسية التى تلت الحرب لاتتناسب مع هذا الأداء . خواطر تروح وتجيء ، لكننى كنت أعاود النظر إلى الأمريكى .

متسائلاً :

كيف سيكون العمل ؟

وأجيب على نفسى ، فلننتظر .. وسوف نرى !


يونية ١٩٨٨
بنـــــدق

عجيب ، غريب ، مدهش !!

ويتوقف الشهيق ، والزفير ، وتتجه العيون كلها إلى مركز واحد يتوسط القاعة الفسيحة ، شاهقة الجدران ،التى يغطيها سقف مكسو بالخشب المشغول ، المذهب ، بينما الدوران مستمر فى منتصف القاعة تماما ، دوران ، دوران ، دوران ، أميل على صاحبى متسائلاً ، دهشا :

- لم أكن أتصور أن فى الجسم البشرى امكانية لتحمل هذا ..

ويجيبنى قائلا :

- لقد مضى عليه عشرون دقيقة ..

نعم .. وتمضى الدقائق ، ويقترب بندق الأسمر من النصف ساعة وهو فى دوران مستمر ، تتبعه قطعة القماش الحمراء المستديرة التى تحيط بخصره ، تنبسط أثناء الدوران ، تصبح مجرد دائرة من اللون فقط ، أما جسد بندق الأسمر ، النحيل ، الطويل ، فيوشك أثناء دورانه السريع أن يتلاشى بوجوده المادى ، يتحول إلى خطوط ، إلى أطياف ، بينما يحمل بين يديه أربع طارات ، يغير أوضاعها باستمرار ، مكونا منها تشكيلات مختلفة ، مظهرا أيضا قدرته على الاحتفاظ بوعيه الأتم أثناء الدوران ، تشتد

السرعة ، ويبدأ بندق فى تسليم الطارات واحدا وراء الآخر إلى أعضاء فرقة الدراويش ، وعندما ينتهى ، يصل دورانه إلى الذروة ، ثم يجثو محييا الجمهور وعلى وجهه سيول من عرق .

ويصفق الحضور طويلا ، منبهرين ، معجبين ، يصفق الضيف الأجنبى مانفريد روميل عمدة مدينة شتوتجارت ، وابن المارشال الألمانى الشهير ، ويصفق فاروق حسنى وزير الثقافة ، واللواء يوسف صبرى أبو طالب محافظ القاهرة ، والدكتور يوسف إدريس ، والروائى يوسف القعيد ، وسائر الحضور الغرباء وأبناء الغورية ، وترتج قبة الغورى بالتصفيق لبندق الأسمر ، وفرقته، ولكن هذا الانبهار لم يكن برقصة التنورة فقط ، وإنما بالبرنامج الفنى الذى يعرضه القصر ، والذى توالى فيه الفنانون النابعون من أعماق الشعب ، من هذه الحوارى الممتدة المتشعبة حولنا ، لم يكن بندق بمفرده ..

* * *

هذا البرنامج الفنى النابع من التراث بدأ الإعداد له منذ شهر ونصف فقط، بل إن إعداد المكان كله تم فى هذه المدة ،منذ أن تولى الفنان التشكيلى صلاح عنانى إدارة قصر ثقافة الغورى ، والذى قرر الفنان فاروق حسنى تخصيصه لفنون التراث ، تم إعداد المكان ، وإخلاؤه من المعدات التى كانت تشغله ، وإعداد مسرح صغير ، وتجديد النقوش ، والمدخل الرئيسى .

وقبة الغورى هذه جزء هام من منشآت السلطان الغورى فى بداية القرن السادس عشر الميلادى ، كان من عادة سلاطين المماليك أن يبنوا مساجد ضخمة ، تحوى داخلها مثواهم الأبدى ،واختار الغورى سوق الشراشيبين واستولى على مجموعة من البيوت والمبانى ، هدمها قسرا ، أو اغتصبها

ليشيد عليها مسجداً ، حتى تندرالناس ، فيقول المؤرخ المصرى ابن أياس انهم سموه " المسجد الحرام " !! ، لم يبن الغورى مقبرته داخل مسجده ، إنما فعل مثل السلطان المنصور قلاوون الذى أنشأ قبة لتكون مدفنا ، متصلة ، منفصلة بالمسجد ، هكذا قام مسجد الغورى وفي مواجهته تلك القبة الضخمة ، فكأن المسجد الأصل ، وهى الصورة المنعكسة ، أوكأن المسجد الصوت ، والقبة هي الصدى .

المدخل هنا يواجه المدخل هناك ، الارتفاع نفس الارتفاع ، التشابه يصل إلى حد التطابق ، لكن تدبرون وتدبر الأقدار!

بنى الغورى هذه القبة لتكون مدفنا له ،ثم خرج عام ١٥١٧ إلى الشام ليتصدى للجيوش العثمانية ، وتقع الواقعة شمال حلب فى مرج دابق ، وتهزم الجيوش المملوكية بسبب الخيانة والضعف الداخلى ، ولكن الغوري لم يهرب ، إنما وقف فى الميدان يحاول أن يلم جنده ، وكان يصيح :

- " يا أغوات حاربوا وعليّ رضاكم " .

أى أنه سيدفع لهم ، لكن كل منهم انشغل بنفسه ، وقتل الغورى ، الرجل العجوز ، الشجاع ، ولم يعثر له على جثة .

وقد زرت مرج دابق شمال حلب عام ١٩٧٣ ، وتوقفت طويلا ، صامتا ، فى المكان الذى تقرر فيه مصير بلادى لعدة قرون ، وكنت لشدة معايشتى هذه الحقبة أكاد أسمع وأرى الأشرف أبو النصر قنصوه الغورى وهو يصرخ بلا فائدة ، ترى أين قتل ؟ ومن قتله ؟ وأين استقر جثمانه ؟

المهم .. أن قبته بقيت خالية منه ، لم يعثروا على جثته ، ولم يدفن فى البناء الضخم الذى شيده ، بقيت القبة خالية ، حتى أصبحت قصرا للثقافة

منذ الستينيات ، وفيها كنت أسعى إليها ، للاستفادة من المكتبة التى تضمها ، وللاستماع إلى فرقة الموسيقى العربية التى كونها واحد من أنشط الذين عملوا في جهاز الثقافة الجماهيرية ، أقصد سعد عرفة ، كان مديرا للقصر وقتئذ ، وهوالآن مدير عام للثقافة الجماهيرية إن صحت معلوماتى .

لم يدفن الغورى هنا إذن ..

وفى هذه الليلة من رمضان ، كنت أتابع العروض ، وأرحل بفكري حينا إلى التاريخ القديم .

وأعود إلى بندق وبقية فقرات العرض ..

***

إلى القاعة دخل شيخ بدين ، قصير ، ثم شيخ ضرير فى ربيع العمر ، بدأ الأول ، وكان صوته عذبا ، جميلا ، راسخا ، وظننته المنشد الرئيسى، ولكن عندما بدأ الشيخ الضرير اكتشفت أن الأول لم يكن إلا بمثابة تمهيد لذاك ، للشيخ عطية الجوهرى ، صوت قوى ، عميق ، عريض ، وبقدر مافيه من ضخامة وتدفق ، بقدر مافيه من رقة وحنية ، وشعور دينى عميق، مهيب ، كان صوت الشيخ عطية الجوهرى ، محملا بكل عبق الزمن القديم ، والتياع المؤمن المشتاق إلى الوصول ، إلى طلب المغفرة ..

يافارج الكرب العظام ..

صوتان آخران ترددا تحت قبة الغورى . غناء نعيمة مصطفى ، السمراء ، النحيلة ، التى تحمل ملامح وجهها إجهادا مبعثه ضنك الحياة .

غناء الفتى ياسر جمال والذى أقدر أنه لم يتجاوز الخامسة عشرة . كل هؤلاء أبناء المنطقة ، من حوارى الجمالية والدرب الأحمر ، اكتشفهم الفنان

صلاح عنانى ، وقدمهم ، بمافيهم فرقة الدراويش التى قدمت عرضا راقصا يفوق مستوى بعض الفرق التى تقدمها دول عظمى ، أى أن حوارى هذا الشعب العريق يكمن فيها التبر والجوهر ، مزروعة بالمواهب ، كل ماتحتاجه أن يتقدم أحد وينفض عنها غبار الإهمال ، ونظرة سريعة إلى تاريخها الفنى سنكتشف أن أعظم مواهب فنانينا جاءت من أعماق الشعب ، ولنا فى أم كلثوم أعظم مثال ، ترى .. كم موهبة تماثل أم كلثوم لم تجد من يكتشفها وظلت مجهولة ، ضائعة فى ربوع هذه البلاد ؟ إن مايتم الآن فى قصر ثقافةالغورى عودة إلى دور الدولة فى اكتشاف المبدعين الموهوبين من أبناء الوطن .

ينتهى الشيخ عطية الجوهرى من إنشاده .

وتتأهب القاعة لاستقبال بندق وفرقته .

فى البداية دخل رجلان ، يحمل كل منهما إطارا من الخشب الخرط المشغول ، يحيط بمرآة ، وقف الأول فى أقصى اليسار والثانى إلى أقصى اليمين .

ثم دخل ستة من حملة الطارات ، اصطفوا إلى جوار بعضهم البعض ، ولمدة ربع ساعة لم يتوقفوا عن دق يتراوح بين العنف والرقة ، فيه أنغام عربية ، وأصداء إفريقية ، وشئ ماغامض ، مبهم ، كان كل منهم يرتدى جلبابا أبيض ، ووشاحا أخضر .

ثم دخل عازف للطبلة ، ثم عازف للرق ، أى ضابط للإيقاع ، ثم ترددت أنغام نحاسية ، ودخل بندق الأسمر ، كان يتحرك على أنغام الصاجات النحاسية ، يتحرك حول القاعة فى حركة دائرية ، وإيقاعات تعبيرية ، لكن يشب حتى لتكاد تخاله سوف يطال السقف الشاهق ، أو يجوز الفراغ ، ثم

خرج ، ولم يتوقف العزف .

بندق من درب المسمط ، أحد حوارى الجمالية ، كذلك أعضاء فرقته ، تعلموا الرقص أبا عن جد ، يقدمونه فى حفلات الزار ، والأعراس ، كان اتجاههم تلقائيا لتعلم هذا الفن .

يستمر العزف ، يتصاعد .

ويدخل بندق وحول خصره التنورة الحمراء ويبدأ الدوران واللعب بالطارات الأربع التى لم يتخل عنها إلابعد مايقرب من نصف ساعة من الدوران احتبست فيها الأنفاس .

* * *

قال لى الفنان صلاح عنانى : إن ماقدم ثلاث رقصات مركبة ، رقصة النقرزان ، ورقصة الدكة العروسى ، ورقصة التنورة ، والأخيرة منحدرة من رقص دراويش فرقة المولوية أتباع مولانا جلال الدين الرومى ، وتؤدى حتى الآن فى تركيا ،وقد قرأت لادوارد وليم لين فى كتابه " المصريون المحدثون " وصفا لهذه الرقصة كما رآها في بداية القرن التاسع عشر ، يقول لين :

" وجدت نفسى وسط حلقة كبيرة من أربعين منهم وشعرت لحظة أنى أكاد أميل إلى البقاء حيث كنت والقيام بالذكر معهم ، غير أنى فكرت فيما أعرض له إذا اكتشفوا أنى لست منهم ، فقررت الخروج من الحلقة ، وأخذ الدراويش فى الذكر فكانوا يرددون اسم الله على التواتر ، ويحنون رؤوسهم وأجسامهم ، ويخطون خطوة على اليمين فتلف الحلقة كلها بسرعة ، وحالما أخذوا فى الذكر ، بدأ درويش تركى من طائفة المولوية يدور حول نفسه وسط الحلقة ، وهو يعمل برجليه معا ، ويداه ممدودتان ، ويسرع في حركته

حتى تنتشر ملابسه مثل المظلة ، ويظل يدور هكذا حوالى عشر دقائق . "

غير أن بندق دار مايقرب من نصف ساعة .

بعد الرقص وقفت أتحدث إليه ، وإلى راقص آخر اسمه عطية فارس ، حدثنى عنه صلاح العنانى باعتباره (حالة أخرى) ، ولم أره للأسف ، كنت أسأل بندق عن ظروف عمله ، إنهم ينتظرون عرسا ، أوذكرا ، أى يعملون حسب التساهيل ، وكان أحدهم قد سألنى عن إمكانية " التعيين " أى التثبيت ، أى ضمان أجر فى حده الأدنى يكفل أعباء حياتنا الحالية التى تهدد كل موهبة بالخنق والضمور ، وكنت أفكر ، لو أن مثل هؤلاء فى مكان آخر من هذا العالم ، حيث الوعى بقيمة التراث وأهميته لأصبح لهم شأن آخر .

يوليو ١٩٨٨

فرصـــــة

الأربعاء:

.. أطوف بمكتبات وسط المدينة مرتين ، الأولى صباحا ، والثانية مساء قبل انتهائى إلى المقهى للقاء الأصدقاء ، دخلت مكتبة دار الشروق الجديدة التى افتتحت منذ عام ، بعد أن تحول عدد من مكتبات المدينة القديمة إلى متاجر عرض الأحذية ، جرى ذلك فى السبعينيات ، مع بدء تراجع قيمة الثقافة ، وكأن انقلاب المعانى والقيم يترجم فى الواقع المحسوس أيضا إلى معالم تستوقف المعايش ، المتابع .

لمحت محمد المعلم مدير الدار وصاحبها ، وهو مثقف قديم ، تخرج فى دار العلوم ، ورافق قمم حياتنا الفكرية دهرا ، عمل مذيعا فى الإذاعة نهاية الأربعينيات ، ثم تفرغ للنشر ، كان يجلس فى الطابق الثانى للمكتبة ، دعاني إلى الصعود ، لاحظت وجود خمسة أوستة فى عمر الشباب ، ظننتهم من الزبائن ، جلست بجواره ، لم يفصح لى عما يقوم به ، إلا أنه قال لى مبتسما : إن أمامه عمل سوف ينجزه ثم يتحدث إلى ، لاحظت أوراقا أمامه، كل ورقة تحمل صورة لشاب أوشابة ، بعد لحظات اكتشفت أنه يجرى مقابلات لعدد من المتقدمين لشغل وظيفة بائع فى المكتبة سبق الإعلان عنها. كان الرجل يطالع القادمين بوجه طيب انضجته خبرة السنوات الطوال ،

وابتسامة هادئة يحاورهم من خلال أسئلة تستقصى وتستكشف ، ورحت أصغى .

* * *

الطبيبة ..

.. قال محمد المعلم :

- أهلا بالدكتورة .. متى تخرجت ؟

قالت إنها تخرجت العام الماضى ، تعمل الآن طبيبة امتياز فى أحد مستشفيات القاهرة ، ثم هزت رأسها باختصار واثق :

- إننى أرغب فى العمل بالمكتبة نصف الوقت ..

رحت أتأملها ، جمالها مصرى نقى ، لوزية العينين ،ملامحها محددة ، قالت إنها ابنة مفتش لغة عربية ، وأن والدها علمها حب الأدب والشعر واللغة العربية ، قرأت الشعر القديم ، وتعجب من المحدثين بصلاح عبد الصبور ،وحجازى ، وأمل دنقل ، ومن الروائيين بنجيب محفوظ ، كما أنها قرأت للجيل التالى ، القعيد ، أصلان ،صنع الله ..

انتبهت ، فهذه واحدة من الجيل الذى يقرأ لنا ، من الذين نكتب لهم ولانعرفهم لحظة الإبداع ، أصغيت إلى إجاباتها على أسئلة محمد المعلم المدققة ، ما الذى أعجبها فى كل واحد من هؤلاء ؟ ، ولم تكن مجرد مستعرضة للأسماء ، إنما كانت تبدى رأيا عميقا فى كل منهم ، تبديه بتلقائية ولكن في ثقة ، وكان عمق الفهم يبدو واضحا فى آرائها تلك،وعندما سألها محمد المعلم عما إذا كانت تحفظ شيئا من الشعرالقديم ، رفعت عينيها إلى الفراغ لحيظات ، ثم أنشدت بردة البوصيرى كاملة فى

أداء واضح ، ونطق يعكس تذوقها لما تحفظ ،وعندما فرغت أبدت استعدادها لإنشاد بعض من شعر الراحل أمل دنقل ، ولكن الأسئلة اتخذت وجهة أخرى، فلماذا تسعى الطبيبة المتخرجة حديثا إلى العمل فى المكتبة ، لمحت فى وجهها علامات كبرياء خفية ، قالت إن هذا العمل سوف يتيح لها فرصة معايشة الكتب ، والقراءة ، خاصة أن أسعار الكتب الآن أصبحت فى غير المتناول .

طيب .. كيف يمكن التوفيق بين ظروف العمل فى المستشفى وظروف العمل فى المكتبة ؟ ، هذا يعنى أنها ستعمل طوال النهار وجزءاً من ساعات الليل ؟

جاءت إجاباتها موضحة لظروفها ، أن نوبتها فى المستشفى صباحية ، كانت تحاول تذليل العقبات التى يمكن أن تبدو .

لمحت خاتم الخطوبة حول إصبعها ، ومن الفراغ البادى أسفل المكتب لمحت حذاءها ،ولم يكن صعبا على ذهنى تخمين ظروف اقتصادية ليست باليسيرة أبدا ، وليس أدل على الحال من شكل حذاء فى قدم صاحبه ، أحيانا أرى أحذية لم يمس باطنها تراب الأرض لأن أصحابها لايمشون كثيرا فى الطرقات التى نسعى خلالها ، جلد النعل يحتفظ بلمعته ، وأحيانا ألمح أحذية أدرك كم يحاول أصحابها إطالة أعمارها .

لم تنطق الطبيبة الشابة الجميلة ، شيئا عن ظروفها ، ولكن خيالى كان يكمل الصورة ، فهذه فتاة أعدها والدها فأحسن الإعداد ، ورباها فأحسن التربية ، وثقفها فما أجمل التثقيف ، طبيبة ، تحفظ الشعر ، حتى وقت قريب كانت كلية الطب ، من الكليات التي تصبو إليها الأخيلة والطموحات، دائما فى برامج الأطفال أسمع السؤال التقليدى " تحبى تطلعى إيه " وتجيب

الطفلة أوالطفل : " دكتور " ، كانت قيمة العلم هى الأولى ،وكان الوصول إلى ماوصلت إليه هذه الفتاة هو منتهى السؤال ، والطلب ، ولكن يشاء حظ جيلها العاثر أن ينمو فى ظروف انقلاب القيم ،والمعانى ، والبديهيات ، أصبح المال هو من يمنح صاحبه القيمة بغض النظر عن الوسيلة التى جمعه بها ، ومن ثم انقلبت القيم ، هذه إحدى نتائج الانفتاح على المجتمع ، كم يبلغ مرتب الطبيبة ، بعد هذا العمر كله ، بعد أن أنفقت الأسرة جل ماتملك لتقدم إلى المجتمع نبتة صالحة ، طاهرة ؟ ، لا أظن أن مرتب طبيب الامتياز يتجاوز المائة جنيه ، إنها مرتبطة ، أى لديها مشروعها الحلال ، وحتى يكتمل هذا المشروع ، لابد من اجتياز صعوبات العثور على الشقة والأثاث، مواجهة مصاعب الواقع التى لم تعد هينة ولابسيطة ، وربما كان الأب الذى أنفق عمره يعلم المئات مثلها أصول وأسرار اللغة قد وصل إلى مرحلة العناء فى إتمام الطريق لأبنائه من صلبه كما يتمنى ، لذلك تسعى إلى العمل فى وقت فراغها تسعى إلى فرصة مشروعة تنتمى إلى زمن الحلال ، واحترام قيمة العمل ، والإنسان .. لعل المستقبل يصبح أفضل ..

عند انصرافها تبادلت النظر مع محمد المعلم ، ولم يكن عسيرا علىّ إدراك أن ماجال بخاطرى جال بخاطره ، وتطلعت إلى الشابة التالية التى تقدمت فى خطى مترددة .

المندوبة :

ممتلئة إلى حدما ، نيلية الملامح ، قاهرية القسمات ، وجه مألوف ، تسكن مصر القديمة ، بكالوريوس تجارة ، تخرجت منذ خمس سنوات ، لم تعمل حتى الآن فى شركة أودائرة حكومية ، لكنها التحقت بعمل مؤقت كمندوبة تسويق لدى إحدى الشركات التى تبيع دوائر المعارف العالمية .

- ولماذا تركته ؟

قالت إن العمل كان مرهقا جدا ، وأنها طوال عدة شهور نجحت في بيع مجموعتين ، وأن العملاء كانوا يرشحون لها أسماء من لديهم الاهتمامات ، لكن المشكلة أن من يحتاجون إلى دوائر المعارف فعلا من المثقفين تعجز إمكانياتهم عن شرائها ، حتى عن شرائها بالتقسيط ، أما الذين لديهم الإمكانية فليسوا حريصين على اقتناء مثلها ، وأحيانا كان بعض هؤلاء يشترى دائرة معارف من عدة أجزاء لكنه يشترط لونا معينا حتى يناسب لون ورق الحائط ، أولون الموكيت ، أوديكور الصالة ..

قالت إنهـــا تفضل العمل فى المكتبة لأنه محدد ، واضح المعالم ، مستقر ..

انصرفت ، وتقدمت بعدها فتاة أخرى أصغر سنًا ..

المهندسة ..

قصيرة ، بسيطة الملامح ، ترتدى جاكتة جلدية ، تنطق الكلمات بسرعة، محددة ، واضحة ، تخرجت فى كلية الهندسة ، جامعة المنيا منذ عامين ، حتى الآن لم تعمل ، ولاتدرى متى ستحين الفرصة ، سواءعن طريق القوى العاملة ، أوأى فرصة أخرى ، ولأنها تقرأ منذ أمد بعيد ، وتحب الكتب ، لذلك تقدمت للعمل بالمكتبة .

- لماذا ؟

ذكرت نفس السبب الذى قالته الطبيبة ، ان عملها بالمكتبة سوف يتيح لها فرصة قراءة كتب عديدة لم تعد فى المتناول لارتفاع أسعارها ، ثم قالت بوضوح أكثر : إن من كان فى مثل عمرها يختلف وضعه بعد التخرج عن

أيام الدراسة ، فى الجامعة لم يكن الأهل ينتظرون منها شيئا ، ولكنها الآن ، تشعر أنها عبء .

- بصراحة الواحد عاوز يساعدهم ويساعد نفسه .. يعنى اشترى هدومى .. أدبر مصاريفى ..

إنها شقيقة لستة ، أنجب والدها سبعة ثم رحل عن الدنيا ، كان ميسور الحال ، مستورا إلى حد ما ، ولكن الظروف تزداد صعوبة ، والبقاء بلاعمل صعب .

- يكفى ماقاموا به حتى تخرجت ..

كانت كلماتها واضحة ، محددة ، جملها قصيرة ، أومأت لنا محيية ، ثم تقدم بعدها خريج كلية دارالعلوم ..

الدرعمى:

طويل القامة ، ربما يفسر هذا لعبه لكرة السلة فى أحد النوادى الشعبية بالجيزة ، من ملابسه أدركت رقة حاله ، والده صول فى الشرطة ، وله عدة أشقاء ، تخرج منذ عامين ، وحتى الآن .. لاعمل ! ، وهاهو ذا يسعى لعل وعسى !

ذكر قراءاته ، ومحاولته الاستيعاب ، العقبة الأساسية هى ارتفاع أسعار الكتب ، قال إنه مضى إلى دار الكتب عدة مرات ليقرأ مايريد أن يطلع عليه ، وأنه يحاول أن يفهم خاصة الفترة القريبة من تاريخنا ، الستينيات وهزيمة السابع والستين وما كتب حولها من كتابات متناقضة .

قال إنه لم يختر الدراسة فى كلية العلوم ، ولكن مجموعه هو الذى أدى به إلى هناك ، وعندما سأله محمد المعلم وهو درعمى قديم عمن أحبه من

أساتذته وارتبط به ، فكر قليلا ثم قال :

- واحد فقط ..

أما الآخرون فلا .

كان يتحدث بهدوء ، ومسحة تعب فى صوته ، وكانت معاناته تبدو صادقة ، وعندما سأل محمد المعلم :

- هل بقى أحد ؟

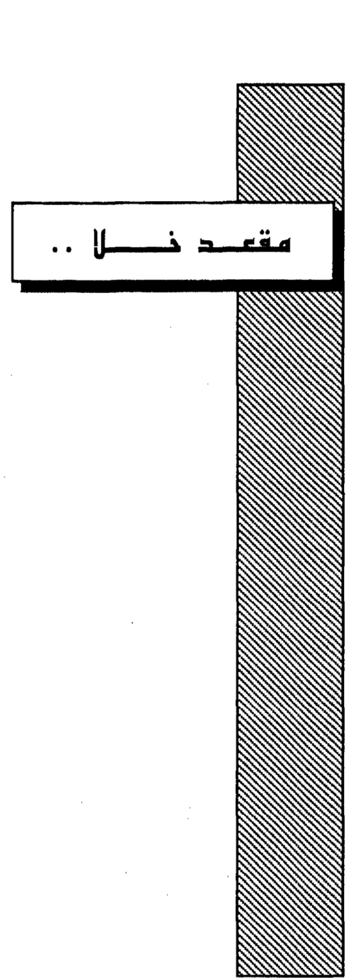
قالوا له إن هذا الشاب كان آخرهم ، التفت إليه قائلا :

- يبحثون عن فرصة مشروعة .. شريفة ..

ألقى الرجل القلم على الورق ، قال بأسى :

- حاجة تقطع القلب !

اغسطس ١٩٨٨



مقعـــد خـــــال ..

اعتدت لقاءه ..

كلما مضيت إلى بيت السحيمى العتيق فى الدرب الأصفر ، للقاء الصديق محمد مجاهد الذى ولد فيه ويتولى الإشراف عليه ، ويحفظه من عوادى الزمن .

إذ ألج البوابة الضخمة والممر القصير المؤدى الى الحديقة الصغيرة المنسقة الجميلة ، إنما أمضى من عصر إلى آخر ، أنأى عن الضجيج وكل مايثقل النفس من كدورات .

لا يطول مكثى طويلا ، حتى أراه مقبلا من داخل البيت ، فى ملابسه البسيطة ، وعلى وجهه ظلال الجدران العتيقة ، وفى عينيه ضوء الشمس الذى روض عبر ثقوب المشربيات .

صوته هادئ ، متواضع ، وإذ أصافحه ، أطلب منه أن يطلعنى على آخر ما أنجزه من لوحات ، فيصحبنى إلى الداخل ، وأتوقف أمام القماش الذى كان أبيض ، المشدود إلى الإطارالخشبى المستطيل ، وأرى ركنا أوجزءا من البيت ، وقد أعيد تصويره من جديد ، ليس تصويرا فوتوغرافيا ، إنما بقدر ماحافظ على ملامح المكان وروحه ، بقدر مايحمل من آيات ابتكار ورؤية فى المنظور ، والتصوير ..

سبع سنوات كاملة عكف سامى على حسن الفنان التشكيلي على تصوير بيت السحيمى ، جدارا جدارا ، وسقفا سقفا ، وقطعة قطعة ، المشربيات ، الزخارف العربية الأصيلة على الجدران ، أبيات بردة البوصيرى التى تنتظم فى شريط حول قاعة الحرملك ، الحديقة ، الممرات الصغيرة ..

سبع سنوات أمضاها هنا ، حالة من حالات الدأب المصرى النادر ، والعطاء الفنى الخصب ، حيث تتألق خصائص الإبداع والصبر والدأب ، إنه نفس دأب نجيب محفوظ ، وجد عم مصطفى الذى تجاوز الثمانين ومازال ينحنى على الصينية النحاسية بمطرقته الصغيرة يملؤها نقوشا دقيقة من فيض إبداعه فى ركن شبه معتم من ربع السلحدار بخان الخليلى ..

إنها صورة من العبقرية الإبداعية المصرية جدا .

هكذا كان سامى على حسن أيضا ..

* * *

جاء إلى بيت السحيمى منذ سبع سنوات ليرسم لوحة صغيرة فقط ، قابله محمد مجاهد ، وقضى معه ساعات ، ومحمد ابن بلد أصيل ، وفنان ، فى جلستهما الأولى قال له :

- إيه رأيك لوترسم القاعة دى ..

وحدق سامى طويلا ، وبدأ غرامه بالبيت ، ثم ارتبط به ، ثم وهب أيامه كلها لإبداعه من جديد ، يوميا يجئ من العاشرة صباحا ، ويستمر حتى غياب آخر ضوء وانسحابه من زوايا البيت ، ونزول الشفق المغربى ، فى الظهيرة يتناول غداء خفيفا أويستغرقه الوقت ، وعندما يجئ إليه محمد مجاهد بفنجان قهوة ، يتطلع إليه مجهدا ، مغبش النظرات ، يقول :

- ياسلام .. القهوة جاءت فى وقتها ..

ويتصل الحديث بينهما ، يسأله محمد :

- ألوان اللوحة مزهزهة ياعم حسن ؟

يجيبه قائلا : إنه يحاول تخيل المكان فى أيامه الأولى ، وفى إحدى المرات قال لي إنه يصور المكان من خلال المنظور الإسلامى الذى يرى العالم وحدة واحدة ، بعكس المنظور الغربى ، بحيث تبدو القاعة من الأرضية وحتى السقف ، تستدعى إلى الذهن منمنمات فن التصوير الإسلامى ، التى تجمع أكثر من مستوى فى وقت واحد ، فى نظرة واحدة .

فى الشهور الأخيرة تزايد نشاطه ، كان يبدو كالعريس المقبل على ليلة عرسه ، فقد قارب على إنجاز معظم عمله ، وتحدد افتتاح معرضه يوم الأحد ١٣ نوفمبر الحالى .

كان حلمه أن يقف أمام لوحاته ، ويشرح للجمهور رؤيته ، ويناقش ، لهذا لم يضع أسماء للوحاته ، وقبل افتتاح المعرض بأيام كان قد أنفق آخر قرش فى جيبه على نقل اللوحات إلى الأتيليه ، لكم جاء أجانب ومصريون إلى البيت ، رأوه وهو يعمل ، وعرضوا عليه شراء بعضها ، آخر مرة عرضت سيدة أمريكية شراء إحداها بخمسة عشر ألفا من الجنيهات .

قال له محمد مجاهد :

- بعها ياعم حسن وفك على نفسك شوية ..

تطلع إليه قائلا :

- يامحمد أنا عاوز أزودهم لوحة .. مش أنقصهم ..

وقبل خمسة أيام من افتتاح المعرض جئت إلى بيت السحيمى ، وقابلته ، كان ممسكا بريشته ، وعلى قميصه أصباغ وألوان ، قدم إلى مجموعة من المظاريف تحتوى على الدعوات ، لكى أوجهها إلى من أشاء من الأصدقاء ..

كان يبدو مبتهجا ، سعيدا ، فلم يتبق إلا ساعات ويلقى الجمهور الذى سيعرض عليه حصاد سبع سنوات من التفانى ، من الفن ، من الإبداع الرصين ، الذى يذكرنا بصبر أجدادنا الفراعنة العظام الذين عكفوا على نقش وتلوين الحجر والخشب وعناصر الحياة ، لم يتبق إلا أيام معدودات .

ولكن .. يقدر الإنسان ، وتشاء الأقدار ..

* * *

افتتاح المعرض مساء الأحد ١٣ نوفمبر ..

لم يتبق إلا الثمانية وأربعين ساعة فقط ، يوم الجمعة ، تمدد الفنان سامى على حسن فى فراشه ، بدا نائما ، هادئ الملامح ، فقد أنجز وأتم ..

وعندما ناداه ابنه ليوقظه لم يجب إنما جاوبه الصمت الأبدى ..

* * *

قال صديقى محمد مجاهد :

- ياسلام ، كانت عشرته لطيفة جدا ، حفظ البيت كله ، صاحب كل شئ، النقوش والجدران ، حتى القطط .. بالنسبة لى فكأنه لم يمت حتى الآن، مادام معرضه مازال مستمرا .. ولكن ماذا بعد المعرض ؟

إننا نقترح على وزارة الثقافة شراء مجموعة لوحاته ، وإقامة معرض دائم

لهـا فى بيت السـحـيـمى نفسـه ، هكذا تـكون رسـالة هذا الفنان الفـريد قـد أنجزت بحق .. فهل من مستجيب ؟

* * *

رحـيل الفنان سـامى على حسن عن واحد وسـتين عـامـا جعلنى أفكر طويلا فى صديق عـزيز ، لم أسـتوعب رحـيله حتى الآن حتى أننى تـهـيبت الكتابة عنه .

كنت فى البحر الأحـمر أمـضى أجازة قـصيرة في سبـتـمبر الماضى ، فى الصباح قرأت فى الصـفحات الأولى للصحف نبأ استـشهـاده غرقـا وهو يحاول إنقاذ ابنه .

ونزل علىّ كمد .

محـمـود ثابت ، زمـيلنا فى التلـيفزيون ، وصديقنا فى المقـهى ، كان يجئ إلى " الندوة الثقـافـية " فى باب اللوق ، يهل علينا مبتـسمـا ، يجلس هادئا ، واذ أذكره فـلاتطالعنى من اللحظات المنقـضيـة إلا ابتـسامتـه التى لم تكن تغيب قط ، وهدوئه الذى لم يتـخل عنه يوما ، حتى عند احتدام المناقشات، وتصـاعد حدة الخلاف ، لم تفـارقـه قط دماثتـه ولا رقتـه ،عـرفتـه منذ سنوات طويلة ، كـان عـروبيـا فى تفكيـره ، غطى كل الأحـداث العـربيـة الكبيـرة ، وتكبد مشـاق السفر إلى ارتيريا ، وساهم فى تأسيس الصـحف العربية ،وفي حربنا كان فى طليعة المراسلين الذين مضوا إلى الجبهة .

تحـمل قلبـه الكثير ، ولكنه لم يتحـمل لحيظة واحدة ، لحيظة قلق عنيف متفجر على طفله .

كان فى البحر الأحمر ، ولكن فى مكان آخر ، نزل مع طفليه الصغيرين،

كان يحمل أصغرهما الذى يبلغ من العمر عامين فقط ،عندما سقط الطفل فجأة فى الماء ، كانا يقفان فى منطقة ضحلة ، يغطى الماء فيها منتصف جسده ، فمحمود مثلى لم يكن يعرف العوم .

دار حول نفسه هلعا على ابنه الذى غطاه الموج الضعيف فى الثوانى الأولى ، وبلغ تفجر فزعه الأبوى أنه لم يتحمل عنف اللحظة ، وماقد يترتب عليها ، فتوقف قلبه إلى الأبد .. وأنقذ الطفل ، عندما وصلت المقهى ، تبادلنا العزاء ، وجلسنا صامتين ، وفجأة قال صديقى الكبير محمد تبارك مشيرا الى مقعد :

- هذا مقعد خلا ..

وانتبهت لأول مرة أننا احتفظنا بمقعد خال لم يقربه أحدنا أثناء جلوسنا ، وبقدر ماكان فى صوت تبارك من لماحية ، بقدر ماكان فيه من تذير .

* * *

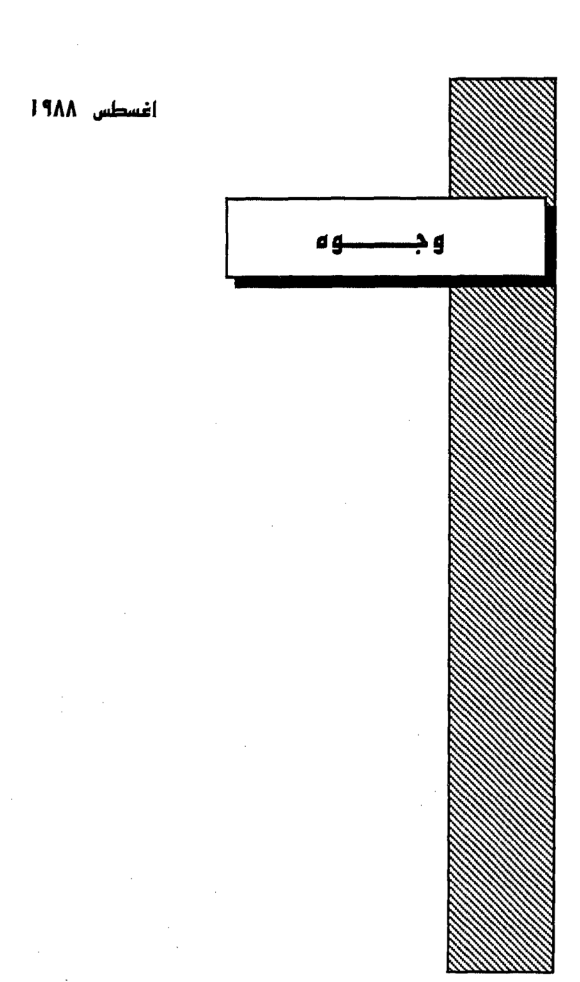
الاربعاء:

امتدادا للدور الثقافي النشط لمؤسسة أخبار اليوم ، أقيم معرض للكتاب فى مدرسة الطبرى النموذجية بمصر الجديدة ، وعلى هامشه أقيمت ندوتان ، الأولى شارك فيها عبد الرحمن الأبنودى الشاعر الكبير ، وندوة أخرى التقيت خلالها بطلبة المدرسة ، المرحلة الثانوية ، وكان موضوعها ، أدب وحياة نجيب محفوظ .

مالفت نظرى هو مستوى المدرسة المتقدم ، المدرسة تابعة لوزارة التربية والتعليم ، وللوهلة الأولى تلحظ رحابة المكان ، ونظافته ، الخضرة الكثيفة، المسجد الصغير الجميل ، نظافة الفصول ، اتساع الفناء ، قال لى عبد القادر

فـهمى ناظر المدرسـة : إن الفنا ء الفـسيح ضـرورى جـدا لممـارسـة الألعـاب المختلفـة، ولامتـصاص الطاقات ، ولكن مالفت نظرى هو المستوى المتقدم للطلبـة ، ودرجـة وعـيـهم المرتفع ، كـانت أعـمـارهم تدور حـول الخامـسـة والسادسة عـشرة، لكن وعيـهم بدا مرتفعـا ، وكانت أسئلتـهم حول نجـيب محفوظ تعكس فـهمهم لأدبه ، شعرت بالاطمئنان ، فـهؤلاء هم المستقبل ، من ناحيـة أخرى ، لو أن المدارس كلها أصبحت فى مسـتوى هذه المدرسـة النموذجية لماكانت هناك حاجة إلى المدراس الخاصة ، والأجنبية .

اغسطس ١٩٨٨



وجـــوه

خــلاء..

فسيح ، ممتد على طول ساحل البحر الأحمر ، منذ سنين الحرب لم أجيء إلى هنا ، وهأنذا بعد مايقرب من سبعة عشر عاما أجئ فى أجازة قصيرة لمدة أربعة أيام ، لكم تغيرت ملامح المنطقة التى أصبحت نقطة جذب سياحية عالمية الآن ، نزلنا إحدى القرى السياحية التى أنشئت حديثا ، المكان جميل والعمارة فيها ذوق ، والبحرالأحمر ممتد غامض ، بما يحويه من أشكال شتى للحياة ، أما السماء فى الليل فمزرعة هائلة للنجوم ، هذه النجوم التى تتوه وتضيع في سماء المدينة ، الشاليهات متقاربة ، جئت من القاهرة فى سيارة الفوج الذى ضم عائلات مختلفة وأشخاصاً لايعرف بعضهم بعضا .

بعد ساعات من الوصول ، بعد يوم ، أوفى بداية اليوم التالى ، ومع بدء الأجازة يشغل النزلاء بملاحظة بعضهم البعض عن بعد ، ولا أدرى كيف بدأت أعرف تفاصيل عن الآخرين ، أولئك الذين تحدثت إليهم ، أوالآخرين الذين نتبادل معهم التحية .

فى المساء الأول ، رحنا نرقب الهجوم الشامل فى المطعم على البوفيه المفتوح ، بدت الهمم عالية ، وفسد الطابور الذى حاول البعض تنظيمه ،

قررت أن أبدأ من النهاية ، أن نتجه إلى أطباق الحلو ، وأن نضعه فوق المائدة انتظارا لفرصة سانحة ، فى اليوم التالي وقف الفندقى المخضرم أشرف السلحدار ، والذى تعرفت به فى سيناء بعد عودتها مباشرة إلى أحضان الوطن ، كان يدير وقتئذ فندق شرم الشيخ ، وغير ملامحه التى تركتها الإدارة الإسرائيلية ، وقف ليعلن بمكبر الصوت أن كميات الطعام كافية جدا ، وبدأ تنظيما مختلفا لتقدم النزلاء في مجموعات ، كنت أتابع الأطباق المحملة بالمتناقضات ، وبعد الفراغ من العشاء كان ماتبقى كثيرا جدا ، ويبدو أن أصحاب القرية تركوا الأمر تماما ، فالقرية جيدة ، ومخاطبة البطون أفضل طرق الدعاية ، شيئا فشيئا بدأت ألاحظ البعض ، تتحول القرية إلى عالم صغير ، محدود .

السفير ..

.. فى الصباح الباكر يبدأ المشى ، مرتديا حلة صيفية بيضاء تماما ، مكوية بعناية ، وحذاء لميع ، شعره أبيض غزير ، يمسك بيده عصا قصيرة سوداء تتبعه زوجة أنيقة ، بها أطلال جمال متميز ، ولكن حيويتها كامنة .

بعد الإفطار يتجه إلى البحر ، يجلس في نفس المكان ، يحملق إلى الأفق ، وأحيانا يتبادل كلمات مقتضبة مع زوجته ، يبدو محاورا ذرات الرمال ، وأمواج البحر التى تحاول عبثا أن تطال حذاءه الأسود الفاقم .

فى المساء يظهر في الصالة ، مستعدا للعشاء ، مرتديا حلة غامقة ، ورباط عنق ، زوجته فى كامل أبهتها وزينتها .

كان صديقى محمد شومان قد تعرف إليه ، أوعرف عنه أنه سفير ، وأنه أحيل إلى المعاش منذ سنوات طويلة ، فى الصباح قابلناه في الطريق المؤدى إلى البحر ، تقدم منا ، حيانا ، ثم صافحنى وبعد أن ذكر اسمه ، قال

متمهلا:

- سفير سابق ..

كان حريصا تماما على أن يقرن اسمه بهذه العبارة ، وإذ يذكرها ، ينحنى بشكل ملحوظ ، ولا أدرى ، لمن الانحناءة ، لماضيه المولى ، أم لمحدثه .. وعندما سمع اسمى .. سألني :

- لك أخ فى الجيش ..

قلت: نعم ، إنه ضابط مهندس برتبة عقيد ، الأصغر منى مباشرة ، قال:

- لا .. لك أخ أكبر ..

قلت :إننى أكبر إخوتى ، قطب حاجبيه ، وذكر اسم ضابط برتبة لواء ، اسمه الثانى - الغيطاني - ، وقال إنه خدم مع حيدر باشا ، في هذه اللحظة اكتشفت أنه يتحدث عن جيش ماقبل ثورة يوليو ، بدا مستغرقا تماما ..

- اللواء الغيطاني .. لابد أنه أخوك .

ولما رأيت إصراره قلت ضاحكا :

- أنت أدرى ياسيادة السفير ..

مضى مستغرقا تتبعه زوجته أنيقة الخطوات ، عرفت أن سعادته من السفراء الذين خرجوا من الخدمة بعد الثورة ، في اليوم التالى لمحته ، تقدمت منه :

- صباح الخير ..

انحنى انحناءة كبيرة ، بعد أن ذكر اسمه قال :

- سفير سابق ..

وأيقنت أن الرجل لايذكرني ، ورحت أتتبع خطاه البطيئة أثناء مضيه إلى البحر مترامى الأطراف .

اسمنت ..

.. رجل وامرأة ، الرجل يقترب من الأربعين ، يمشى دائما وفى يده حقيبة صغيرة ، مرتديا كامل ملابسه ، أسمر ، أصوله شعبية ، ينظر إلى الأرض حتى فى مشيه ، يبدو وكأنه يفضل التوارى عن الآخرين .. المرأة تجاوزت الثلاثين ، سمرتها نحاسية ، ترتدى ثيابا شديدة الالتصاق بجسدها ، خاصة البنطلون ، منفوشة الشعر ، وفى أنفها حلق صغير ، من شكل مشى الرجل والمرأة أو من هيئة الجلسة يمكننى أن أستنتج العلاقة ، هل هى حميمة ، أو وصلت إلى مرحلة الفتور ، والبرود ، يكفى النظر إلى اثنين متزوجين في مرحلة متقدمة من العمر ، إذا كانت العلاقة قد استنفدت محتوياتها ، ستجد كلا منهما ينظر في اتجاه ، انقطاع للاتصال ..

المهم ، عرفت أن هذا الرجل يعمل فى مؤسسة لها علاقة بالأسمنت ، وأنه جمع ثروة هامة خلال الأعوام الأخيرة ، قيل لي إنها تجاوزت المليون ، يمتلك سيارتين (زلموكه) ، إحداهما تقف أمام القرية ، جاء فيها مع زوجته هذه من القاهرة ، أما هى ، فتدرس في لندن - هكذا قيل - وهو فى القاهرة ، كان واضحا أنها تمارس عليه نفوذاًما ، وأنها الطرف الأقوى فى العلاقة ، قال صديقى :

- يبدو أن المليون جنيه التى سرقها سوف تنتقل تدريجيا إليها ..

فى الليل ، وعلى مسرح القرية ، بعد أن انتهت راقصة أمريكية أو أوربية - لا أدرى - من تقديم فرقتها من الرقص الشرقى ، والتى تنافس فيها راقصاتنا المحترفات ، بدأت السهرة ، وطلع بعض الأجانب للرقص فوق

المسرح ، وطلعت امرأة صاحبنا لترقص في مواجهة أحد أعضاء فرقة الراقصة الأجنبية ، كان شابا أسمر نوبى الملامح ، ولكنه يبدو كأنه خلق للرقص ، اندمج الاثنان في رقص غجرى ، حتى لم يعد إلاهما ، وكان الزوج يجلس في القاعة ، يحملق في اتجاهات مختلفة ، ثم ينظر إلى امرأته بملامح جديدة، كان من الواضح أنه لايمتلك القدرة على الاحتجاج ..

فجأة ..

انقلبت الموسيقى ، من غربية إلى شرقية .

وتوقفت المرأة ، وضعت إصبعها فى فمها ، لتشير إلى حيرتها ، ماذا تفعل ؟ ، تعالت الأصوات من القاعة تطلب منها الاستمرار ولكن فى الرقص البلدى، أشار النوبى أيضا مشجعا ، لكنها نظرت إلى زوجها حرامى الأسمنت، تساءلت بهزة من رأسها ، ماذا أفعل ؟ وارتفعت إصبعه بعلامة النفى ، لا .. وهنا تزايد التصفيق ، فلامست وجنتيها بيديها ، وبسطت يديها ، أشارت إلى زوجها بما يعنى أنها مضطرة ، بعد تردد أشار إليها أن تستمر .

كان من الواضح أنها توهمه أن له سلطة عليها ، خاصة أمام الناس .

المهم ، أن رقصًا شرقيا عنيفا اندلع منها ، وكأنها جاءت للتو من حارة العوالم ،حتى أنها أزالت أثر الراقصة الأجنبية تماما ، قال صاحبى :

- شوف الرقص الأصلى ..

فقلت له :

- شوف حرامى الأسمنت ..

كان يجلس مطرقا ، ممسكا بحقيبته الصغيرة التى لاتفارقه ، وبين الحين

والحين يرفع بصره إليها ، يشير بيده ، مايعنى " وبعدين " ، " كفاية بقى".

لكنها لاتعبأ ، تستمر ، وكأنه غير موجود بالمرة ..

الممثــل ..

.. لفت الأنظار بملابس الكاوبوى التى يرتديها ، قميص جينز ، وبنطلون جينز قصير نهارا ، وطويل ليلا ، وحذاء ضخم له حلقة من الحديد تبرز منه، وحزام عريض تتوسطه نجمة الشريف الأمريكى ، وكان الحزام يميل قليلا ، لكنه بدون مسدس ، عرفت أنه يمت بصلة قرابة إلى ممثل مصرى مشهور ، سافر إلى الخارج منذ سنوات طويلة ، وأنه حريص على ذكر هذه القرابة فى أى محادثة لكن الأغرب تصرفاته ،إذ يمشى متمايلا ، تماما مثل الكاوبوى ، تتدلى صفارة من حول رقبته ، كان يتقدم فى المطعم حاملا طبقه ، وقبل وصوله إلى البوفيه ، ينفخ فى الصفارة ثلاث مرات ، ثم يشير في الغالب إلى طابور الأطفال الصغار ، مشيرا بيده أن يفسحوا له مكانا ، وعلى الشاطئ يتمدد فوق مقعد مستطيل ، وبين الحين والحين ينفخ فى الصفارة فيبدد الهدوء المخيم ، يشير إلى الحارس ، وعندما يقترب منه ، يشير إلى فمه ثلاث مرات ، لايتكلم ، وعندما يعود الحارس بزجاجة المياه العذبة ، يرفع الزجاجة ويفتح فمه ، ويتلقى الماء ..

فى الصباح رأيته يلامس خصره بيديه ، يبدو أنه اشتبك فى شجار مع رجل بدين ، طيب الملامح ، لم أدرسببه ، لكنه كان يصيح :

- أوه .. مش عارف أنا مين ؟

- حتكون مين يعنى ؟

- أنا قريب الممثل العالمى ..

وعندئذ أمسك البدين بكتفيه ، هزه هزا عنيفا .

- ملعون أبوك لأبوه سوا.. تضرب عيل صغير ..

وبدا الكاوبوى كالفأر المذعور ..

البصاص..

له صلة بالواقع الثقافى .. ليس كمبدع ، ولكن كموظف ..

كان يبدو شديد الثقة بنفسه ، فهو على صلة وثيقة بأحد المسئولين السابقين الكبار ، ومعروف أنه من رجالته ، لم تنقطع صلته به حتى الآن ، غير أننى فوجئت بمدى مايعرفه من معلومات ، سواء كانت حقيقية أوزائفة، لكنه يحكيها فى ثقة شديدة ، ولايفضى بكل ماعنده مرة واحدة ، إنما يبدأ باتخاذ وضع معين ، هو أن يتراجع إلى الخلف قليلا ويشبك يديه على بطنه، ثم يلفظ الاسم من بين شفتيه :

- بتقول أحمد ؟ ، دا سافر أول امبارح باريس ؟

أسأله :

- لكن عرفت إزاى ، وإنت هنا ؟

عندئذ يبتسم ، يشير إلى صدره :

- وفيه حاجة تخفى على أخوك ؟

أواصل انبهارى ، مبديا دهشتى ، يقول :

- طيب أنت عارف هو سافر ليه ؟

طبعا لاأعرف .. يعتدل هو في جلسته :

- أصلى فيه خلاف .. وكان لازم يسافر عشان يحله ..

وبعد لحظات أذكر اسم شخص ما ، فيبادر قائلا :

- على فكرة أنا زعلان منه ..

- وهذا تعرفه أيضا ؟

يهز رأسه ، يواصل :

-تصور إنه خطب إحدى زميلاتى ولم يخبرنى ..

- كيف ، هل خطيبته كانت زميلته ..

- طبعا .. أصلها كانت بتحب (...) وسابوا بعض فى ١٩ أكتوبر ١٩٨٠ .. وفى مرة كنا نتحدث عن أحد الشعراء الكبار .. قال واثقا :

- الله يرحمه .. كان بيحكى لى متاعبه مع امرأته ..

ثم ينطلق فى رواية وقائع ، الله أعلم بها ، فالشاعر الكبير تشاجر معها فى يوم الجمعة الموافق كذا ، وكادا أن ينفصلا فى يوم الاثنين الموافق كذا ، وعندما مات لم تحزن عليه قط .. هو يعرف ..

وفى مرة أخرى جلسنا على الشاطئ ، وكنت أتحدث إلى صديقى محمد شومان عن بعض مخطوطات التراث ، عندما قلت :

- وذهبت أبحث عن بعض أجزاء موسوعة الشفاء .. فوجدت القانون فى الطب لابن سينا ..

وهنا انتبه صاحبنا :

- ابن سينا .. مش ده اللى اتعين في العريش مدير الإدارة الطبية ..

ضحكت .. قلت له اننا نتحدث عن ابن سينا الفيلسوف والطبيب الإسلامى الكبير ، والذى مات منذ أكثر من ألف سنة ، قال بثقة عندئذ :

- غريبة .. يبقى تشابه أسماء ..

اكتوبر ١٩٨٨

فـــــــرح

الخميس :

.. كنت مرهقا ، لذا فسد ترتيبى ، أن أجلس للكتابة بعض الوقت نهارا ، وحتى لايمضى الوقت عبثا ، بدأت القراءة فى ألف ليلة وليلة ، طبعة بريل ، التى صدرت منذ عدة سنوات ، بتحقيق ودراسة الدكتور محسن مهدى

عند الواحدة ظهرا غفوت قليلا ، استيقظت في الثانية تماما ، وكأن هناك ساعة داخلية تحتم ذلك ، الثانية ؟ ، إذن لأصغى إلى نشرة أخبار الظهيرة من إذاعة مونت كارلو ، إنها النشرة المفضلة ، اعتدت سماعها مع نشرة الاذاعة البريطانية عند الظهر ..

لمست مفتاح الراديو .

" نجيب محفوظ الأديب المصرى يحصل على جائزة نوبل ، أول أديب عربى يحصل على الجائزة العالمية .. "

ياه .. الحمد لله !

قفزت واقفا ، كنت بمفردي فى البيت ، ومامن شخص آخر أنضى إليه بالنبأ الذي أثار عندى قدراً هائلاً من الانفعال ، نجيب محفوظ ، أستاذى وأبى الروحى ، وصديقى الأكبر ، من عرفته منذ حوالى ثلاثين عاما وأنا

بعد أحبو فى عالم الأدب ، من تأثرت به ، حتى في سلوكى الشخصى ، ونظامى اليومى ، وقفت والمشاعر والأفكار تتدفق حولى وداخلى كشلالات متضاربة .

لابد أن أتحدث إليه تليفونيا ، والجريدة .. لابد أنهم عرفوا الخبر الآن وينتظرون ظهورى ألست المحرر الأدبى ، وهذا يوم تاريخى بحق ، أدرت قرص التليفون ، كان الخط مشغولا ، عبثا حاولت .

الدقائق تمضى ، وتوتر داخلى يتصاعد .. أدرت الرقم المباشر للأستاذ سعيد سنبل ، جاءنى صوته على الفور ..

- مبروك .. أنت فين ؟

قلت له إننى فى حلوان ، وجدت نفسى أعبر عن مشاعرى بتلقائية اعتدتها عند الحديث إليه ..

- إننى فرح جدا .. هذا حدث تاريخى ..

وهنا جاءنى صوت الأستاذ سعيد رئيس التحرير ..

- فرحك عظيم ولكن لاتنس أنك صحفي الآن .. والعدد كله غدا مخصص لنجيب محفوظ .. تعال فورا ، وقبل أن تنزل كلم الأستاذ جلال دويدار ..

هذا صحيح ، أنا الآن يجب أن أتصرف كصحفى أمامه وقت محدود جدا ، وعمل كثير جدا ، أهم محور فيه هو ضرورة مقابلة الأستاذ نفسه ، أما التأمل فى الحدث ، وإمعان التفكير فى مغزاه ، فمؤجل ..

فى دقائق كنت في المترو ، بسطت حقيبتى على حجرى ، مسند لابأس به ، واهتزازات المترو لاتعوق الكتابة ، أمامى أربعون دقيقة يجب

استغلالها ، كتبت مقالا قصيرا أعبر فيه عن انطباعى الأول ، ولأننى معايش لمايجرى على الساحة الثقافية العربية ، فقد أشرت إلى بعض المحتمل أن يقوله الأشقاء جدا ، أولئك الذين وضعوا أعظم كاتب روائى معاصر على لائحة المقاطعة العربية ، فعاقبوا جماهيرهم قبل أن يعاقبوا أى شخص آخر ، ومنطق المقاطعة هذا غريب ، فبسبب آراء سياسية ، وليست أدبية - قوطع نجيب محفوظ ، ومنعت أعمال أدبية كتبها فى الأربعينيات قبل أن توجد دولة إسرائيل نفسها من الدخول إلى الدول العربية ، وطبعا نشطت خفافيش الظلام لتشويه صورة الكاتب الكبير ولعب بعض صغار الكتبة دورا نشطا فى هذا الاتجاه .

وإن كانت هذه المحاولات لم تنجح بحق فى مس مكانة الأديب الكبير ، ولن أنسى عبارات التقدير التى كنت أصغى إليها من معظم الأدباء العرب الذين التقيت بهم فى العواصم العربية المختلفة ، وفى عام ١٩٨٠ صدر كتابى (نجيب محفوظ يتذكر) في بيروت لأول مرة ، وظهرت طبعات عديدة من أعمال أديبنا الكبير .

كنت أعلم أيضا المحاولات التى تدبر في الخفاء ، بمساندة منظمات وأنظمة ، وتيارات سياسية ، وهيئات علمية وشبه علمية ، لمساندة هذا الأديب أوذاك من أجل حصوله على جائزة نوبل ، وقد كشفت فى صفحة أخبار الأدب عن بعضها ، وسأقص في الأسابيع المقبلة بعض ماكان يجرى ، بصراحة .. كان حصول أى أديب آخر غير نجيب محفوظ على الجائزة من العالم العربى ظلما ، ليس بعده ظلم ، لا أحد يقارنه ، لافى القامة ، ولا فى السيرة الأدبية المستمرة منذ حوالى ستين عاما بلا انقطاع ، ولا فى الدور ولا فى الإخلاص للأدب ، وقبل ذلك كله لا أحد يشبهه في إنسانيته ،

ونبله، نجيب محفوظ أديب عظيم ، ولكنه قبل ذلك كله إنسان عظيم .

لقد جاءت الجائزة إلى من يستحقها فعلا .

وأغادر المترو . قافزا السلالم بسرعة ، عابرا شارع الجلاء الذى يفيض بالسيارات .

فى الطابق السابع تطلع إلى الأستاذ جلال دويدار ، قال إننى تأخرت حوالى نصف ساعة عن المسافة المقررة ، ثم تحدثنا فى التفاصيل ، وأثناء اتجاهى إلى صالة التحرير ، قررت أن أتجه إلى بيت الأستاذ ، منذ أن عرفته لم أدخله ، كنت أعرف وأحترم رغبة الأستاذ فى الحفاظ على خصوصية حياته ، لم أحترم ذلك فقط ولكننى تعلمت هذا منه ، كنت أصحبه مشيا وقرب البيت أستأذن مودعا ، ولكن اليوم غير كل الأيام ، فلأقدم على المغامرة لعلنى أراه .

* * *

صحبت زميلى المصور رضا مصطفى ، كان النهار يوشك على الاكتمال ، والغروب يضفى لونا أحمر على السماء عندما توقفنا أمام البيت فى شارع النيل .

يسكن الأستاذ في الطابق الأرضى من عمارة بنيت فى الخمسينيات ، شقة متوسطة من ثلاث غرف وصالة ، خلف هذه النوافذ القريبة من الأرض يعيش واحد من أعظم مبدعى العالم ، بالقرب من الطريق الذى لاتهدأ الحركة فيه ليلا أونهارا ، وبجوار محل للفول والطعمية ، وآخر للجزارة ، واستدعيت للمقارنة بعض بيوت كبار الأدباء الذين زرتهم فى الخارج غير أننى لم أسترسل ، كان حلمى هو أن ألتقى به ، أن أقول له " مبروك " فى

هذه الساعات بالذات ، ولتتحول اللحظات بعد ذلك إلى مادة صحفية .

أمام البيت كان عشرات من الصحفيين العرب والمصريين والأجانب ينتظرون ، كاميرات تليفزيونية ، وآلات تصوير ، سألت أحد الأصدقاء ، قال:

- لقد اصطحبوه إلى الحسين .. وسيعود ..

كان بين الواقفين المخرج الكبير توفيق صالح ، وصديق عمر الأستاذ ، قال لي إنه يشك فى عودة الأستاذ إلى البيت ، وأنه دخل ليقول للسيدة حرمه " مبروك " .

قلت له : هل تعتقد أنه سيذهب إلى جلسة الحرافيش ؟

قال لي توفيق صالح : أراهنك أن شيئا لن يتغير ..

فعلا ، لم يغير نجيب محفوظ عاداته ، وأهمها الوفاء لأصحابه ، حتى فى يوم نوبل ، لاحظت أن بعض الصحفيين يتجهون إلى داخل البيت ، معقول ؟ مضيت حذرا ، وجدت باب الشقة مواربا ، ضغطت الجرس .

* * *

إنها رفيقة عمره ولاشك ، المرة الأولى التي أراها ، عندما قدمت نفسي أصرت أن أدخل ، وعندما خطوت عبر العتبة ، فوجئت بعدد من الصحفيين العرب والأجانب فى صالة البيت ، كانوا يجلسون في حالة انتظار ، وكانت السيدة الوقورموزعة بين حرج الضيافة والحيرة فيما يجب أن تفعله ، إنها المرة الأولى التي تستباح فيها عزله البيت ، كان هناك غرباء أيضا ، لا أدرى هل هم من أبناء المهنة أم لا ؟ ، كان بعضهم يقلب أوراقا على المكتب، طبعا الغالب هو الفضول السخيف ، خاصة لمن لم يعرف الرجل عن قرب ،

كان هناك أجانب يحملون كاميرات ، وكانت السيدة بمفردها ، حائرة ، لاتدرى ماتفعل ، إنه الموقف الأول من نوعه الذى تواجهه .

طلبت منها أن تغلق صوان الأوسمة والهدايا التذكارية ، وليتنى نبهتها إلى ضرورة انتظار الجميع في الخارج ، فى اليوم التالى علمت أن أوراقا فقدت ، وبعض الأشياء الصغيرة ، لكن الرهبة التى ملأتنى وأنا أقف عند الصالة التى لم أتجاوزها منعتنى من إبداء أى ملاحظة فيما عدا تلك الخاصة بصوان الأوسمة وكان بجوار الباب الخارجى تماما .

أصرت على أن أصافح كريمته الصغرى ، قلت لها :

- إنه الابن الروحى .. وانت تعرفينه ..

وعندما رأيت كريمة الأستاذ أطلت علىّ روحه من بين ثنايا ملامحها ، ماأعجب الشبه الإنساني ، وتذكرت أنها لم تكن ولدت عندما رأيت الأستاذ لأول مرة عام ١٩٥٩ ، عندما وقعت عيناى عليه لأول مرة وهو متجه من ميدان العتبة إلى كازينو الأوبرا ، موعد ندوته الأسبوعى ، لا أدرى كيف عرفت وقتئذ أنه نجيب محفوظ ، لابد أننى رأيت صوره ، كان حجم جسده وقتئذ ربما ثلاثة أضعاف حجمه الحالي ، لم يكن قد اكتشف إصابته بالسكر بعد ، لم يكن بعد قد أتم الخمسين ، فيما تلا ذلك عرفت الطريق إلى ندوة الأوبرا ، كنت أجلس إلى جوار صديقى الناقد عبد الرحمن أبو عوف ، كنا في مقتبل العمر وقتئذ ، وكنا نشعر بالرهبة ، وعندما يتكلم الواحد منا يتردد أولا ، ثم يرفع إصبعه معلنا رغبته ، وكأنه فى مدرسة يواجه أستاذا يعمل له حسابه !

وعندما قدمت إليه أول قصة قصيرة منشورة لى فى يوليو ١٩٦٣ قرأها وفى اليوم التالى ناقشنى فى تفاصيل دقيقة ، وهذا جهد نجيب ، لايهمل

الأستاذ عملا لأديب شاب ، ولايهمل خطابا يأتيه من أى ناحية ، يرد على كل رسالة بخطه ، وهذا ما أعجز تماما عن محاكاته فيه ، خاصة مايصل أخبار الأدب من رسائل ، اقرأها بعناية ، أفهرسها ، ولكننى لاأستطيع الرد على خمسمائة رسالة أسبوعيا ، وليس لدى مساعدون فى الأمور المكتبية، ولكننى أثق أن نفس العدد لووصل إلى نجيب محفوظ ، فلن يهمله ، سوف يرد عليه .

* * *

إلى قعدة الحرافيش ..

أخيرا .. هاهو ذا ، لم يخلف موعده ، عندما لمحته اضطربت ، كيف أعبر، هرعت إليه ، احتضنته ، تلك رائحة حضوره المميزة والتى أحبها ، وعندما قبلنى ، انحنيت تلقائيا على يده ، فسحبها وقبلها ضاحكا ، أقعدنى إلى جواره ، كان لابد أن أقول شيئا ، ثم تذكرت أننى صحفى ، وأننى لابد أن أعمل حاجة فسألته بسذاجة :

- شعورك ايه الآن ؟

وضحك ، وضحك معه الحرافيش ، وأدركت أننى أكرر ببلادة سؤالا سمعه اليوم أكثر من مرة ، قال توفيق صالح :

- ياجمال أنت أدرى الناس بمافى داخل نجيب محفوظ .. انس الآن أنك صحفى ..

كيف ؟ ، والصفحات المنتظرة ، وفريق العمل الذى أعلن حالة الطوارئ فى سهرة الليلة بقيادة الزميلين على حسنين ومصطفى حسن ، وعندما تطلعت إليه ، رأيت ملامحه الآمنة ، الهادئة ، الوديعة شاركنا فى الحوار ،

وقلت فلأستعيد فيما بعد ، علت ضحكات ، وقفشات ، وسخريته حتى من نفسه ، كان يتحدث عن وصول السفير السويدى ، وخروجه إليه بثياب النوم ، ويضحك :

- عشان يشوف جائزة نوبل لما يدوها لأديب من العالم الثالث ..

ونضحك من القلب ، شيئا فشيئا يفيض الفرح داخلى تماما مثل النيل الهادئ ، غريب الصمت ، الماضى فى رسوخ بجوارنا ، الأبدى مثل روح مصر التى قد يدركها الإعياء والتعب فى مشوارها الطويل ، ولكن فردا من أبنائها يضوى معبرا عنها ، وقود ضوئه عمره ذاته وجهده وإخلاصه ، أعود إلى ابتسامات الأستاذ .

فى العصر مضى إلى الحسين ، وكان معه المصورون ، سأل أحد الجالسين عن هذه الحركة ، قال أحد الصحفيين إن نجيب محفوظ حصل على جائزة نوبل ، قال الرجل :

- مبروك .. عقبال الشهادة الكبيرة ..

ونضحك من القلب ، نستعيد أيامنا عند جلوسنا الأسبوعى إلى الأستاذ فى مقهى عرابى ، عندما سمح لى بحضور هذه القعدة مع أصدقاء العباسية القدامى اعتبرتها خطوة هائلة فى اتجاه تطوير العلاقة وتعميقها .

كان ذلك فى منتصف الستينيات ، قبل زمن الكدورات الذى هل مع يونيو ١٩٦٧ ، ولكن هذا حديث آخر يطول ..

***

السادسة صباحا ..

النهار بان ولاح ، برد الخريف ، أغادر مبنى جريدتى بصحبة زميلى

وصديقى على حسنين الذى يسكن بجوارى فى حلوان ، كانت ليلة صاخبة من العمل ، تحولت فيها صالة تحرير الأخبار إلى مايشبه قيادة معركة ، وتفاصيل هذه الليلة تعد درسا حقيقيا فى العمل الصحفى ، انعكست فى ثلاث طبعات من الأخبار الجمعة الماضى .

طوال الليل أيضا لم تتوقف التليفونات عن الاتصال بى ، فى البيت وفى الأخبار ، من سائر أركان المعمورة ، هذا يسأل عن رقم تليفون الأستاذ ، وهذا يستفسر عن رد فعلى ، وهذا يريد استكمال معلومات ، واضطر أحد الزملاء إلى القول :

- خلص شغلنا الأول وبعدين شغل الناس ياعم ..

ولكن التليفونات التى أضافت فرحا إلى الفرح ، تلك التى جاءت من أصدقاء عمرى ، أوالتى سعيت من خلالها إليهم ، كنا نبدأ الحوار بكلمة واحدة " مبروك .. "

مبروك لك ، مبروك لى ، مبروك لمصر ، إنه عيدنا الحقيقى ، عيد الثقافة المصرية ، لذلك يحق لنا أن نفرح من القلب ! .

ديسمبر ١٩٨٨

مــــع الســـلامة ..

الأحــد :

.. أقضى الليلة مع أخوتى فى مدينة نصر ، شقيقى إسماعيل سوف يسافر فجرا إلى الولايات المتحدة لمدة سنة ، سنة كاملة ، زمن طويل تتغير فيه أمور ، وتتبدل مصائر ، والسفر عندى جالب للخوف الغامض ، وساعات ماقبل الفراق تثير الحنين إلى الماضى الذى كان ، والآتى الذى لانعلم عنه شيئا ، دائما يثير السفر عندى صورا رمادية ، كيوم مطير ، حتى لوكان السفر مرتبطا بمناسبة سعيدة ، يمضى أحيانا أسبوع أوأسبوعان لانلتقى ، ولكننى أعرف أنه هناك فى المتناول ،ولكنه بعد ساعات سيكون فى قارة بعيدة ، وستمضى شهور قبل أن نلتقى مرة أخرى ، عندئذ تتداعى الذكريات ، أستعيد طفولتنا المشتركة وصبانا ، أذكر أبعد صورة فى خزانة ذاكرتى ، يوم لا أدرى موقعه الآن من الزمن ، ربما كان عام ١٩٤٨ ، كان ابن شهور ، مددته أمى فوق السرير ، كان ملفوفا فى ثوب قاتم ، وفوق جبهته بصمات من البن ، بن القهوة ، أظن مرضا أصابه فأرجعته المرحومة إلى حسد إحدى النسوة ، كانت تخشى عليه من العين ، هذه أقدم صورة فى شريط ذاكرتى ، ماعداها غاب تماما ، فكأنه فيلم احترق بمجرد تعرضه لضوء الزمن ، هذا الطفل الصغير يقف أمامى الآن ،يستعد للسفر ، ليست

المرة الأولى ، ولكننى أردد وصايا عديدة ، أن ينتبه إلى مخاطر الشوارع ، أن يرتدى ملابس ثقيلة اتقاء للبرد ، بينى وبينه ثلاث سنوات ، ومع ذلك أمارس نوعا من الأبوة ، ربما لأن الأب غاب ، وربما لأن للأخ الأكبر موقعا خاصا فى الأسرة المصرية .

فى الرابعة والنصف بدأ يتهيأ للرحيل ، كنت أتحدث بلهجة حيادية لا أدع لأفكارى الرمادية أدنى فرصة للانعكاس على ملامحى ، أظن هذا حال شقيقى الأصغر على ، وشقيقتى أيضا ، بدأنا نتحدث فى مواضيع شتى ، حملت عنه الحقيبة الأثقل وكأننى أشارك ولو بقدر فى تحمله المشقة ، كنت أستعيد مشاعرى فى مرات السفر المختلفة ومايرتبط بها ، أذكر صديقا عزيزا مقيما فى باريس ، لا ألتقى به إلاعند حضوره إلى مصر ، أوذهابى إلى هناك ، مرة فى السنة ، أوكل سنتين ، منذ ثلاثة أعوام تقرر أن يغير مكان عمله ، نقل إلى تركيا ، وليلة سفره من باريس إلى أنقرة نزلت إلى السنترال .

طلبته فى الهاتف لأودعه وكان عندى غيم رقيق ، كنت حزينا لأنه سوف ينتقل من هناك إلى هناك ، مع أننى باق فى مصر وهو مغترب بالنسبة لى، إن فى باريس أوتركيا ، ولكنه الشجن الخفى المصدر الذى يثيره السفر ، هذا مايتعلق بالأصدقاء ، فما البال بشقيق استوطن وتكون فى نفس الرحم الذى كان أول مأواى فى هذا الكون ، أمام المطار تحين لحظة اجتيازه البوابات المتتالية ، وهذه لحظة لابد من الابتسام فيها ، طبيعيا كان أومتكلفا ، أما القلب فليس بوسعه إلاتمنى السلامة ، السلامة فى السفر أو فى الإقامة .

الاثنين :

.. فى مترو حلوان ، لم يكف الطفل الذى قعد على حجر أمه عن

الحديث ، كان يولى وجهه تجاه النافذه ، يحاور أمه ، يسأل ، أحيانا يبتسم، وأحيانا يبدى جدية مثل الكبار .. كان الركاب كلهم صامتون ماعدا هو ، وصوت العجلات الرتيب :

- هو شغلك بعيد ياماما ..

تومئ الأم برأسها ، تقول نعم ..

- بعيد قوى ..

تؤكد الأم إجابتها ..

- طيب مابتقعديش معايا ليه ؟

تقول إنه من الضرورى ذهابها إلى الشغل ، يقول :

- مش أنت بتحبينى ؟

تقول :"طبعا" ..

- طيب ليه مابتقعديش معايا على طول ؟

تقول: إنه لابد من الذهاب إلى الشغل حتى تشترى له الحاجات الحلوة ، يسكت لحظة ، ترى .. هل اقتنع أم يبدى الاقتناع ، يسأل :

- القطر بيزمرليه ؟

تقول الأم : حتى يمكنه المشى ..

- لا .. دا بيزمر علشان الناس تنزل ..

ثم يسأل :

- هو القطر أسرع من الطيارة ؟

تقول الأم : إن الطائرة أسرع ..

- الطيارة اللى خدت بابا ..

وتصمت الأم ، لاتجيب ..

- هو بابا بيقعد فى الطيارة كتير ..

تقول الأم : إنه لايقعد أكثر من ثلاث ساعات ..

- أمال بيغيب كتير ليه .. كتير قوى ..

تقول : إنه يركب الطيـارة ليروح إلى شغله .. ومرة أخرى يصمت الطفل لحظات .

- القطر لوعطل صاحبه حيزعل ؟؟

- المعادى فيها قضبان برضه ؟

يواصل الحديث مخاطبا القطار " ياالله ياقطر أمش " ثم يسأل :

- هو الكوبرى لازم يبقى فوق ليه ؟

تقول أمه : إن الكوبرى يجب أن يكون فوق حتى يعبر الناس عليه :

- طيب له مايبقاشى تحت ..

- الراجل ده خدمنك الفلوس ليه ؟

- الفلوس اللى خدها الراجل عشان نركب القطر ؟

تسود لحظات صمت:

- هو بابا حيركب الطيارة وهو جاى ؟

تقول الأم : أيوه ..

- هو حيغيب تانى ؟

وتضم الأم ابنها إلى صدرها ، تداعبه قائلة :

- وبعدين .. انت مش حتبطل غلبة ؟

الثلاثاء:

.. هل يفتينا العلماء الأجلاء فى أمر الركعتين اللتين صلاهما فضيلة الشيخ متولى الشعراوى لله شكرا يوم أن هزمت مصر عام ١٩٦٧ ، يوم وقوع أكبر كارثة فى تاريخنا الوطنى المعاصر ، والتى مازلنا نعيش آثارها حتى اليوم ، يوم أن استشهد آلاف الشباب المسلم دفاعا عن تراب الوطن وهم فى وقفة جهاد مشروع ، يوم أن بدأت إسرائيل احتلالها لجزء غال وعزيز من وطننا ، يوم أن اشتعلت رؤوسنا شيبا ونحن بعد لم نزل فى عشرينيات العمر ، مثل هذه الصلاة ، جائزة ، وماحكم مؤديها ؟

لنفترض أن خلافًا بين الإنسان والنظام السياسى الذى يحكم وطنه ، هل تصل درجة الشماتة إلى الركوع والسجود للصلاة شكرا على استشهاد الآلاف من بنيه وضياع أرضه ، الصلاة شكرا على هزيمة الوطن ؟

كيف يقال هذا الكلام الخطير من داعية كبير له منزلة عظمى فى القلوب؟كيف يتم التفوه به من خلال أخطر منبر إعلامى مؤثر ، كيف يتلقى صغارنا وبسطاؤنا هذا الكلام ؟ ألا نعلمهم بذلك مبدأ الشماتة فى الوطن إذا حلت به مصيبة لمجرد أننى أضيق بهذا الحاكم أو أختلف مع هذا النظام ، إن الوطن هو الوطن .. وهوالباقى أبدا أيا كان من يحكمه أو النظام السياسى الذى يدير شئونه ، وإذا جرى تهديد له من أجنبى ، فالجهاد فريضة بصرف النظر عن الخلاف أو الاتفاق مع النظام الذى يحكم ..

لاأدرى ، أهى زلة غير مقصودة ، فى هذه الحالة يستوجب التوضيح أو الاعتذار ، أم أنها الغربة الطويلة التى عاشها الشيخ ، لقد قال إنه منذ عام ١٩٥٠ وهو مغترب ، بعيد عن الوطن ؟ فهل هزت سنوات الاغتراب من رؤيته ؟

لقد تداعى إلى ذهنى مواقف العديد من مشايخنا العظام الذين ضمدوا جروح الوطن في محنه ، وقادوا جماهيره ضد المحتل والغازى ، بدءاً من مشايخ الأزهر الأجلاء : حسن العطار ، والشرقاوى ، ومشايخ زاوية العميان الذين قادوا ثورة القاهرة ضد نابليون فأعدم منهم ستين تحت ظلام الليل وألقى جثثهم فى البحر ، حتى الإمام محمد عبده ودوره فى الثورة العرابية ، وتلاميذه أمثال الشيخ الزنكلونى وغيره ، وأولئك المشايخ عميقو الإيمان بالله والوطن الذين قادوا مواطنيهم فى ثورة ١٩١٩ ضد المحتل الإنجليزى ، حتى أولئك الشيوخ البسطاء الأجلاء الذين كانوا يعايشون جنود الجيش المصرى العظيم فى الخطوط الأمامية ، وقد رأيتهم بعينى يؤدون رسالتهم المقدسة تحت القصف وخطر الموت . لم يهربوا إلى بلاد النفط، ولم ينظم أحدهم يوما قصيدة مدح فى ملك أورئيس ، إنما كانوا يبثون الثبات ويقوون دعائم الإيمان لدى أولئك الذين حاربوا وأقدموا على الشهادة .

إن ماقاله الشيخ الشعراوى خطير ، ولاتكفي مقالة أومقالتين للرد عليه .

أى عصر هذا قدر علينا أن نشهده ؟ وأى معان مقدسة تربينا ونشأنا عليها من أجل حب الوطن نراها تنقلب أمامنا ، وبأيدى من ؟ بأيدى الذين لهم منزلة والذين تعتبرهم الأغلبية قدوة ؟!!

ديسمبر ١٩٨٨

صـــــورة ..

.. على الفور ، ألممت باللحظة .

كأنه سنابرق من الماضى شق رمادية الذاكرة ، كانت الصورة مستطيلة ، تتصدر مدخل شقة المصور فى حلوان ، استوديو قديم .

صورة لميدان الجمهورية . عابدين - المكان مازال حتى الآن محتفظا بملامحه الأساسية ، المبنى الرئيسى للقصر ، السور الحديدى ، المبانى التى تحتلها محافظة القاهرة حاليا ، فى ذلك الوقت كانت هيئة التحرير تتخذها مقرا ، فى الناحية المقابلة قاعدة تمثال أزيلت لاوجود لها الآن ، كان من المقرر وضع تمثال للملك فؤاد .

أخبرنى حلمى الذى التقط الصورة أنه كان يقف فى الشرفة التى تعلو مدخل قصر عابدين للتشريفات الآن ، كان وقتئذ جنديا فى البوليس الحربى، وأن الصورة مكونة من خمس لقطات متجاورة ، لهذا جاء هذا المشهد البانورامى للميدان ..

قلت مقتربا ، محدقا ، متأملا :

- أين أنا ؟

ياه ، تنبعث التفاصيل وكأنها من عمر الأمس لاغير ، أستطيع أن أحدد

مكان وقوفى ، كناهنا ، بالضبط فى هذا المكان ، طلبة مدرسة الحسين الإعدادية ، كنت فى الصف الثالث ، عندما خرجنا فى بداية اليوم الدراسى أذكر بهجتنا ، فخروجنا فيه كسر للمألوف ، يعنى أننا لن نلزم مقاعد الدراسة ،خرجنا صفوفا ، لاأدرى الآن كيف انتقلنا إلى ميدان عابدين ، نسيت ، ولكن أظن أننا قطعنا الطريق مشيا ، حتى وصلنا إلى هذا الميدان الذى وجدناه يغص بالبشر ، الأرض لاتبدو ، عشرات الألوف ، رجال بملابس أفرنجية ، آخرون بملابس بلدية ، نساء ، طالبات ، طلبة . أمعن النظر فأرى أعلاما صغيرة ..

غير معقول .

هذا هو علم مدرستنا ، مثلث ، مكتوب عليه بخط جميل اسم المدرسة ، إذن أنا قريب من هنا ، أنا واحد من هؤلاء لكن أين ؟ ، أين ؟ الملامح دقيقة جدا .

أتذكر وقوفى ، وإصغائى إلى خطاب الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، كان شابا وقتئذ لم يزل ، لم يشتعل بالشيب ، وكان من الصعب رؤية ملامحه عن قرب من موضعنا الذى كان فى مؤخرة الميدان ، ولكننا كنا نراه فى مجمله ، كنا نرى حضوره من بعيد ،وقد كان حضوره قويًا، طاغيا ، له هيبة ، ومنه بريق .

يمكننى تمييزه فى الصورة ،ولكن من الصعب تمييز من هم بجواره ، يتدلى من الشرفة علم كبير ،ترى في أى لحظة التقطت الصورة ؟

هل التقطت قبل أن يعلن الزعيم الراحل الوحدة مع سوريا أم بعدها ؟

لاأدرى ، لكن اليوم يمكننى تحديد تاريخه ،الثانى والعشرين من فبراير

عام ألف وتسعمائة وثمانية وخمسين ، ما اسم اليوم ؟ لا اجابة من ذاكرتى ، ربما السبت وربما الأحد ، لاأدرى ..

بعد أن انتهى الخطاب ضج الميدان بالتصفيق ، ثم تقدم الموسيقار الكبيرمحمد عبد الوهاب ، وأنشد أغنية وطنية لاأذكر أيضا كلماتها ، إنها المرة الأخيرة التى غنى فيها عبد الوهاب فى جمهور عام ،وليست حفلة نادى الضباط الشهيرة التى غنى فيها " كل ده كان ليه ؟ " .

ترى ، هل اللقطة أثناء الغناء أوبعده ؟

لاأدرى ، تجول نظراتى بين البشر ، أين أنا ؟ صعب التحديد ، كم عدد هؤلاء ؟ عشرات الألوف ، بل مئات ، من مات منهم ؟ ، من بقى على قيد الحياة ؟ من فارق البلاد إلى غير رجعة ؟ ومن سافر وعاد ؟ ومن أصبح أبا ، ومن لم يصبح ؟ كان هذا الخضم من البشر مندغما ، كأنه كتلة واحدة ، يصعب إبراز تفاصيلها ، اللقطة تسجل اللحظة ، ولكن من الصعب تحديد التفاصيل ، تمييز الملامح ، فكأنها تتخذ نفس موقعها فى السياق الزمنى داخل ذاكرتى ، مطموسة فى الواقع ، كما هى مطموسة في ذاكرتى ، فيلم ذاكرتى مهزوز ، عبثا أحاول الوقوف على الملامح فيه .

أين أنا ؟

تجول نظراتى ، ولكننى أفشل مرة أخرى ، أذكر أن أستاذنا مصطفى أمين كان يرينى مجموعة من الصور النادرة لثورة ١٩١٩ ، وكان من بينها صورة لبيت الأمة ، وأمامه حشد كبير ، مظاهرة ، فى الشرفة التحتية يقف سعد باشا ، وفوق السطح ، وفى الزاوية القصوى أطل طفلان صغيران، أشار بأصبعه قائلا :

- هذا هو المرحوم أخى وهذا أنا ..

حدقت طويلا ، تأملت الواقفين فى الحشد ، كانوا رجالا وشبانا ، قلت فجأة له :

- لابد أن هؤلاء كلهم ماتوا ..

تطلع الأستاذ مصطفى أمين بدهشة إلىّ ، قال :

- أظن ..

ولكن هذه اللقطة من تاريخنا القريب ، قريب ؟ لاأظـن ، تبدو أيام عبد الناصر وكأن دهرا يفصلنا عنها ، يبدو جيلنا مثقلا بماعاشه ، ممارآه من أحلام تبخرت فى يونيو ، وواقع انهار ، وعصر انقضت عليه المعاول فى السبعينيات لتحيله أنقاضا ، لتشوه كل كبيرة وصغيرة فيه ، حتى السد العالى تحول الشروع في بنائه يوما إلى جريمة لابد من عقاب المسئول عنها ، حتى اضطر الصديق فيليب جلاب إلى تأليف كتاب حمل هذا العنوان التهكمى " هل نهدم السد العالى ؟ " كان ذلك قبل أن نكتشف أن هذا السد أنقذ مصر من جفاف محقق سنوات متتالية .

أستعيد مذاق ذلك اليوم ، أكاد أشعر ببرودة خفيفة سرت فى الجو ، لكننى لا أتذكر اسمه ، فما أعجب الذاكرة .

أنحنى مرة أخرى ، لعل وعسى ، لكن عبثا أحاول اكتشاف نفسى ، كنت مجرد علامة فى الحشد ، كنت أمامى ولا أرانى ، فكأنى أعيش اندثارى وزوالى وأنا حى بعد ، أتنفس وأحيا وأسترجع .

فالسلام على الأيام الجميلة ، الأيام التى انقضت إلى الأبد .

جمال الغيطانى

جمال الغيطانى

ولد عام ١٩٤٥ . التاسع من مايو . في قرية جهينة . محافظة سوهاج . بصعيد مصر .

نشأ فى منطقة القاهرة القديمة ، في أسرة رقيقة الحال . كان والده عاملا فى وزارة الزراعة .

له ثلاثة اشقاء . اصغر منه . أخ هو ضابط مهندس بالقوات المسلحة . وشقيق درس الاداب وتخرج فيها . وشقيقة خريجة حقوق .

تلقي تعليمه الابتدائي في مدرسة عبد الرحمن كتخدا ، ومدرسة الجمالية الابتدائية.

تلقي تعليمه الاعدادى فى مدرسة محمد على الاعدادية .

بعد حصوله علي الشهادة الاعدادية (١٩٥٩) التحق بمدرسة الفنون والصنائع بالعباسية ، حيث درس فن تصميم السجاد الشرقى . وتخرج في عام ١٩٦٢ .

عمل رساما للسجاد بالمؤسسة المصرية العامة للتعاون الانتاجى منذ عام ١٩٦٣ ، وحتى عام ١٩٦٥ ثم عمل مشرفا على مصانع السجاد بمحافظة المنيا لمدة سنة حتى عام ١٩٦٦ .

عمل سكرتيرا للجمعية التعاونية المصرية لصناع وفنانى خان الخليلى . منذ عام ١٩٦٧ وحتى عام ١٩٦٩ .

في عام ١٩٦٩ ، انتقل ليعمل فى مؤسسة أخبار اليوم الصحفية .

عمل مراسلا حربيا فى جبهة القتال ، منذ عام ١٩٦٩ وحتى عام ١٩٧٤ ، ثم عمل بقسم التحقيقات الصحفية ، ثم أصبح رئيسا للقسم الادبى بالاخبار عام ١٩٨٥ ، ومستشارا ثقافيا لمؤسسة اخبار اليوم .

متزوج واب لولد وبنت .

يمكن اعتبار جمال الغيطانى عصاميا فى ثقافته ، فدراسته فنية ، ويعتبر من اوائل المبدعين العرب الذين تعمقوا فى التراث العربى وبحثوا فى جذوره عن أسس خاصة للابداع .

كتب اول قصة عام ١٩٥٩ . وكان عنوانها :(نهاية السكير) ونشر أول قصة قصيرة فى يوليو ١٩٦٣ . وفى مجلة الاديب اللبنانية وفى نفس الشهر نشر دراسة عن كتاب (القصه النفسية) تأليف ليون ايدل فى مجلة الادب القاهرية التى كان يصدرها المرحوم الشيخ أمين الخولى .

منذ عام ١٩٦٣ وحتى عام ١٩٦٩ . نشر اكثر من خمسين قصة قصيرة فى صحف : المساء المصرية ، والأديب اللبنانية ، ومجلة الجمهور الجديد ، وجديته المحرر اللبنانية ، وكان يشرف على ملحقها الادبى الشهيد غسّان كنفانى . ونشر مجلة (المجلة) المصرية ، كما نشر قصة طويلة بعنوان (حكايات موظف كبير جدا) فى جديدة المحرر اللبنانية .

فى مارس ١٩٦٩ ، اصدر اول كتاب له . (أوراق شاب عاش منذ ألف عام) وضم خمس قصص قصيرة فقط ، كتبت كلها بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ . وقد أثارت المجموعة ضجة كبيرة ، وكتب عنها العديد من النقاد ، واعتبرت مرحلة جديدة فى القصة القصيرة .

حتى عام ١٩٨٨ ، اصدر القائمة التالية من المؤلفات :

١) اوراق شاب عاش منذ الف عام . — مجموعة قصصية

الطبعة الاولى ١٩٦٩

الطبعة الخامسة ١٩٨٧ (صدر فى بغداد - بيروت - القدس المحتلة عن دار صلاح الدين)

الطبعة السادسة ١٩٩١ عن الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢) ارض .. ارض — مجموعة قصيصة

الطبعة الاولى ١٩٧٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب

الطبعة الثانية ١٩٨٠ بيروت دار المسيرة

الطبعة الثالثة ١٩٩١ الهيئة المصرية العامة الكتاب

٣) الزويل — قصة طويلة

الطبعة الاولى ١٩٧٤ بغداد - وزارة الاعلام

الطبعة الثانية ١٩٨٠ بيروت - دار المسيرة

الطبعة الثالثة ١٩٨٧ القاهرة - مكتبة مدبولى

٤) الزينى بركات — رواية طويلة

الطبعة الاولى ١٩٧٤ دمشق - وزارة الثقافية

الطبعة الثانية ١٩٧٥ القاهرة - مكتبة مدبولى

الطبعة الثالثة ١٩٨٥ القاهرة - دار المستقبل العربى

الطبعة الرابعة ١٩٨٨ كتاب اليوم - مؤسسة اخبار اليوم

الطبعة الخامسة ١٩٨٩ دار الشروق - القاهرة

الطبعة السادسة ١٩٩١ دار الجنوب - تونس

الطبعة السابعة ١٩٩١ دار الشئون الثقافية - بغداد

٥) وقائع حارة الزعفرانى — رواية طويلة

الطبعة الاولى ١٩٧٦ القاهرة - دار الثقافية الجديدة

الطبعة الثانية ١٩٨٦ القاهرة - مكتبة مدبولى

الطبعة الثالثة ١٩٨٧ بغداد - دائرة الشئون الثقافية

الطبعة الرابعة ١٩٩١ مكتبة مدبولى

العنوان	الطبعة	السنة	الناشر
٦) الحصار من ثلاث جهات			مجموعة قصصية
	الطبعة الاولى	١٩٧٥	دمشق– اتحاد الكتاب العرب
	الطبعة الثانية	١٩٨٠	بيروت – دار المسيرة
	الطبعة الثالثة	١٩٩١	الهيئة العامة للكتاب
٧) حكايات الغريب			مجموعة قصصية
	الطبعة الاولى	١٩٧٦	القاهرة – كتاب مجلة الاذاعة
	الطبعة الثانيه	١٩٨٠	بيروت – دار المسيرة
	الطبعة الثالثة	١٩٩١	الهيئة العامة للكتاب
٨) ذكر ماجرى			مجموعة قصصية
	الطبعة الاولى	١٩٧٨	القاهرة – مكتبة مدبولى
	الطبعة الثانية	١٩٨٠	بيروت – دار المسيرة
	الطبعة الثالثة	١٩٩١	الهيئة العامة للكتاب
٩) الرفاعى			رواية
	الطبعة الاولى	١٩٧٨	الهيئة العامة للكتاب
	الطبعة الثالثة	١٩٨٠	بيروت – دار المسيرة
	الطبعة الثالثة	١٩٩١	الهيئة العامة للكتاب
١٠) خطط الغيطانى			رواية
	الطبعة الاولى	١٩٨٠	بيروت – دار المسيرة
	الطبعة الثانية	١٩٩١	القاهرة – مكتبة مدبولى
١١) كتاب التجليات			رواية
	السفر الاول	١٩٨٣	القاهرة – دار المستقبل العربى
			بيروت – دار الوحدة العربية
١٢) كتاب التجليات			
	السفر الثانى	١٩٨٥	القاهرة – دار المستقبل العربى
١٣) كتاب التجليات			
	السفر الثالث	١٩٨٧	القاهرة – دار المستقبل العربى
كتاب التجليات			
	صدرت الاسفار الثلاثة	١٩٩٠	القاهرة – عن دار الشروق

١٤) اتحاف الزمان بحكاية جلبى السلطان — مجموعة قصصية

الطبعة الاولى ١٩٨٥ دار المستقبل العربى

الطبعة الثانية ١٩٩٠ الهيئة العامة للكتاب

١٥) رسالة فى الصبابة والوجد — رواية

الطبعة الاولى ١٩٨٧ روايات الهلال

الطبعة الثانية ١٩٩٠ دار الشروق

١٦) رسالة البصائر فى المصائر — رواية

الطبعة الاولى ١٩٨٨ روايات الهلال

الطبعة الثانية ١٩٩٠ مكتبة مدبولى

١٧) شطح المدينة — روايه

الطبعة الاولى ١٩٩٠ روايات الهلال

الطبعة الثانية ١٩٩١ دار الشروق

١٨) هاتف المغيب — رواية

الطبعة الاولى ١٩٩٢ روايات الهلال

١٩) ثمار الوقت — مجموعة قصصية

الطبعة الاولى ١٩٨٩ كتاب اليوم

الطبعة الثانية ١٩٩٠ الهيئة العامة للكتاب

ادب رحلات :

٢٠) أسفار المشتاق

الطبعة الاولى ١٩٩٢ دار سعاد الصباح

مختارات قصصية :

٢١) منتصف ليل الغربة مختارات فصول ١٩٨٤ الهيئة المصرية للكتاب

٢٢) أحراش المدينة كتاب اليوم ١٩٨٥ مؤسسة اخبار اليوم

دراسات ومشاهدات :

٢٣) المصريون والحرب من صدمة يونيو الى يقظة اكتوبر كتاب روز اليوسف ١٩٧٤ مؤسسة روز اليوسف

٢٤) حراس البوابة الشرقية			(الجيش العراقى فى حرب اكتوبر)
	الطبعة الاولى	١٩٧٥	القاهرة – مكتبة مدبولى
	الطبعةالثانى	١٩٧٥	بيروت – دار الطليعة
٢٥) نجيب محفوظ يتذكر			
	الطبعة الاولى	١٩٨٠	بيروت – دار المسيرة
	الطبعة الثانية	١٩٨٧	القاهرة – مؤسسة اخبار اليوم
٢٦) مصطفى أمين يتذكر		١٩٨٠	القاهرة – مكتبة مدبولى
٢٧) ملامح القاهرة فى الف عام		١٩٨٣	القاهرة – كتاب الهلال
		١٩٨٤	القاهرة – مكتبة مدبولى
٢٨) اسبلةالقاهرة			تحقيق الامام الشيخ محمد عبده
تقديم وتحقيق تراث :			
٢٩– مقامات بديع الزمان الهمذانى	دراسة ومراجعة جمال الغيطانى		صدر عن مؤسسة اخبار اليوم ١٩٨٨

اعمال ترجمت الى لغات أجنبية

الزينى بركات	ترجمت وصدرت عن :	
الطبعة الفرنسية	دار	EDITION DU SEUIL
الطبعة السويدية	دار	NORESTAD & SONERS
الطبعة الانجليزية	دار	PENGUIN
الطبعة الهولندية	دار	UNIEBOEK
الطبعة النرويجية	دار	ASCHEOUG

الترجمة الالمانية	دار سويسرا -	LENOS
الترجمة الروسية	دار	رادوجـــا
الترجمة البولندية	دار	الدولـــة

وقائع حارة الزعفرانى

- صورت ترجمتها الى اللغة الانجليزية ، فى سلسلة الادب المعاصر عن الهيئة العامة للكتاب فى القاهرة . صدرت باللغة الالمانيـة عن دار فولك اندخلت

- قصص قصيرة ترجمت متفرقة الى اللغات : الفرنسية ، الانجليزية . الايطالية ، الاسبانية ، العبرية ، الالمانية

جوائز :

جائزة الدولة التشجيعية للرواية عام ١٩٨٠

وسام العلوم والفنون من الطبقة الاولى

وسام الاستحقاق الفرنسى من طبقة فارس ١٩٨٧

- اعدت دراسات عن أعماله ، فى جامعات :

القاهرة ، السوربون (باريس) - بيركلى (امريكا)

محمد الخامس (الرباط) - جامعة لندن - جامعة مارتن لوثر

(هالة بالمانيا الديموقراطية) . - جامعة ليبزج

- جامعة أرلنجن بالمانيا الغربية .


مطبعة اطلس
imprimerie atlas
LE CAIRE: 11-13 RUE SOUK EL TEWFIKIEH, R.C.100731,TEL:747797
القاهرة ١١-١٣ شارع سوق التوفيقية س.ت ١٠٠٧٣١ ت ٧٤٧٧٩٧

يَوميّاتي المعلنَة

.. فى عام خمسة وثمانين وتسعمائة والف بدأ الروائى الكبير فى نشر يوميات بجريدة الأخبار .. ومنذ ذلك الحين حققت شعبية كبيرة بين القراء ، هذا الكتاب يضم ما نشر ومالم ينشر من يوميات جمال الغيطانى . فيها يقدم أضافة جديدة إلى أدبه . حيث يعايش هموم البشر الصغيرة ، وخلجاتهم الانسانية التى يعرفها والتى يجيد التعبير عنها جيدا . ويصف ما يمر به وما يثير عنده التأمل ، ويدرك مالا يمكن للعين العادية أن تقف عليه فى الواقع اليومى . وما يمر بالوطن والأمة . والأحداث الصغيرة والكبيرة التى تهز المجتمع والانسان .

كل ما تضمه هذه اليوميات مستمد من الواقع اليومى ، وينفذ فى نفس الوقت إلى جوهر الانسان ، إنه إضافة جديدة من أديب كبير يعرف القراء رواياته وقصصه القصيرة ، والآن .. يعرفون يومياته .

